جامعة الجزائر
معهد التاريخ

العصبية القبلية

وأثرها على النظم والعلاقات في المغرب الإسلامي
(من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجري)

بحث قدمه الطالب
بوزياني الدراجي
لنيل درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي
تحت اشراف
الاستاذ الدكتور لقبال موسى
استاذ التاريخ الاسلامي
بجامعة الجزائر

السنة الدراسية

اثر العصبيــة القبليـة علـى النظــــــم
الاقتصــاديــة بالمغـــرب الاسلامـــــي

ان استخراج الحقائق المتعلقة بأثر العصبية القبلية على النظم الاقتصادية من المصادر والمراجع المتوفرة حتى الآن أمر صعب للغاية ، بسبب اهمـــال هذا الموضوع في السابق ، وعدم عناية المؤلفين آنذاك بهذا الجانـــب. لان انشغالاتهم كلها -آنئذ- كانت محصورة في التأريخ للسلطان ودولتـــه (ممثلة بالبلاط واعيان الدولة) . وتسجيل الحروب التي خاضتها الدولـة ضد خصومها ، مع الاشارة لبعض النظم المتعلقة بالحكم . ومع هذا فانه يمكـن استنباط بعض الحقائق من النصوص الموزعة هنا وهناك ، ضمن المصـــادر والمراجع المذكـــــورة .

واذا كان من الصعب الحكم بوجود نظام اقتصادى في المجتمعـــات القبلية ، خاصة البدوية منها، فلا يمكن نكران وجود أنشطة اقتصادية فـــي تلك الاوساط ذات الطابع البسيط والساذج . وبما أن الظاهرة القبليـــة تقتصر على الصحراء فقط ، اذ تشمل الارياف وبعض المدن الصغرى ، فـــان موضوع النظام أو النشاط الاقتصادى يبدو أمرا مغريا للباحـــث .

لقد عرف الانسان ماهية الاقتصاد منذ وصوله الى الاكتفاء الذاتي مـــن الطعام ، وتحقيق فائض في الانتاج الغذائي ، بحيث سمح له ذلك الأمر بأن يبادل ما توافر لديه عن طريق المقايضة ، أو المهاداة ، أو البيـــع بالنقـــود فيمـا بعـــــــد .

ويمكن حصر النشاطات الاقتصادية التي كانت وما زالت تتبعـــها المجتمعات القبلية ضمن عملية الالتقاط والجمع ، وصيد البر والبحـــر ، والتجارة والرعي والزراعــة . والى جانب هـذه الانماط يمكن اضافة بعـض

الحرف التقليدية : من صناعات بسيطة تنشأ بالخصوص في الاوساط القبلية المقيمة بالارياف . وهذا بالطبع لا يعني أن هذه الاوساط قد عرفت التخصص المهني أو تقسيم العمل بشكل قطعي وواضح . وكل ما هناك أن أعضاء القبيلة جميعا يتعاونون في الاعمال كافة ، ويشتركون في أدائها ، فمن يجيد الزراعة يجيد القنص والرعي والتجارة .. الخ أما الاعمال التي تتطلب مهارات خاصة فهي متمركزة بالمدن والامصار ، حيث يلجأ اليها أعضاء القبيلة لقضاء حاجاتهم منها .

لكي يكون الحديث عن المظهر الاقتصادى في قبائل المغرب الاسلامي واضحا يستحسن التفريق بين أهل الريف ، وأهل الصحراء ، نظرا لاختلاف أشكال النشاط الاقتصادى لدى الفئتين . بل ان سبب تباين الفئتين واختلافهما يعود في الاساس الى عوامل اقتصادية ومعاشية،(1) حيث فرضت الظروف الطبيعية والامكانات المعاشية على الجماعات الانسانية بالمغرب اختيار أسلم السبل للتكيف وضمان الحياة . لذا انقسمت تلك الجماعات الى فئات طبقا للوسط ، والبيئة المحيطة . فنتج عن ذلك ظهور عدد من الاشكال يمكن اجمالها في : البدو والحضر . وتفسير ذلك يتضح بكون المجتمع المغربي ينقسم الى فئتين عظيمتين : أهل البادية (وهم البدو وسكان الريف والصحراء) ، ثم الحضر (سكان المدن والامصار) . فأما تفسير أثر العصبية القبلية على نظم المجتمع البدوى فانه يبدو سهلا بعض الشيء . اما تفسير أثر العصبية القبلية على نظم المجتمع الحضرى فانه يستدعي بذل مجهود كبير ، خاصة في حال كهذه ، حيث المصادر القليلة ، والمادة الشحيحة والفقيرة .

اذن فمجال التأمل ينحصر في أثر العصبية في المجتمع البدوى الذى يجهل ثمرات الحضارة واسبابها . وذلك لان العصبية وان كانت تظهر

---

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج :2، ص: 407 .

احيانا في المدن والامصار (1) . الا أنها تأخذ شكلا أقل حدة وأضعف صورة مما هي عليه في الباديـــــة .

وهكذا فان العصبية في المجتمعات البدوية بارزة وقوية الظهور. فالبوادي - بأريافها وصحاريها - عبارة عن مرتع خصب ترتع فيه العصبية بكل حرية وانطلاق . ويبدو أن تأثير العصبية في هذا المجال يأخذ صورة أكثر وضوحا وجلاء من مجال المدن والامصار .

فالبدو - كما هو معلوم - اناس بسطاء يكتفون بالضروري من وسائل الحياة وشروطها . وبالمقابل فان الحضر لا يكتفون بالضروري . بـــل الضروري لديهم يعتبر من الكماليات لدى البدو . وثمة اختلاف بيـــن الفئتين ايضا ، وهو الاسلوب العام للحياة ، ذلك الاسلوب الذي يفرضه السلوك الاجتماعي لكلتا الفئتين ، فالاستقرار في مكان ما دون تنقـــل ولا ترحال ينجر عنه ظهور اسلوب معين للحياة يختلف بالطبع عـــن السلوك الذي يجعل جماعة ما تتنقل وترحل باستمرار من مكان الى آخر .

وهكذا فبعد هذا يستحسن التأمل جيدا في هاتين الفئتيـــن : البدو ، والحضر . فالبدو وطباعهم وعاداتهم يغلب عليها طابع التقشف ، واحتقـــار الحضارة ولذاتها العابرة ، والدعة القاتلة ، والسكـــون المجلب للخمول . وبالمقابل فان الحضر يشمئزون من الطبائع البدويـــة المتسمة بالوحشيـــة ، والغلظة ، والتخلف المزمن . وتلك كلها - فـــي رأى الحضر - تجر خلفها باستمرار الفساد ، والدمار للمعالم الحضاريـــة والموارد الاقتصاديـــة .

فكيف تكون الحال اذن عندما تلتقي هاتان الفئتان ، ويتحتم عليهما العيش معا داخل اطار واحد ؟ سواء أكان هذا الاطار مدينة أو قريـــة

---

(1) - ابن خلدون : المقدمة ، ج : 3 ، ص : 1022/1019 .

أو مسكنا ما ضدها سيكون اللقاء كالتقاء النار بالماء ، حيث تكون النتيجة هي افساد أحد العنصرين للآخر . وينتهي الامر حتما باطفاء الماء للنار . ولما كان البدوي متقشفا في حياته ميالا الى البساطة والسذاجة في مأكله ، وملبسه ، وفرشه ، ومسكنه ، كارها للنعومة ، والرقة ، والدعة . فانه — في بداية احتكاكه بالحضارة — يصب جام سخطه وغضبه على العلة التي اصابت الحضري ، فافقدته — كما يتصور — شجاعته ، وقوته ، وصلابته . وهكذا يشرع في افساد المعالم الحضرية وآثار التمدن ، بحكم عدائه لكل ما يجهله ويحتقره . فينقلب المجتمع الحضري بذلك الفساد والتخريب انقلابا عظيما . فيختلط عندئذ الامر وتنقلب القيم (1) . وربما تزوقت طويل قبل أن يتأقلم ذلك البدوي ويتذوق طراوة الحضارة وحلاوتها .

وهذا ما حدث بالفعل مرارا بالمدن والامصار في المغرب الاسلامي ، كلما اجتاحتها القبائل البدوية واطاحت بامارتها ودولها . وبالطبع فان هذه الظاهرة قد استرعت انتباه ابن خلدون ، فأخذ يتأمل فيها ، حيث استنتج نظريته بخصوص

(1) — كتب الدكتور جواد علي بعض الفقرات بخصوص عادات البدو في جزيرة العرب ، ودوافع عدائهم للحضر واباحة النهب بينهم فقال : ((ثم هي (أي القبائل والعشائر البدوية) توجه كل انظارها نحو المستوطنات ومواضع الحضر ، لتجد فيها غفلة أو موضع ضعف تدخل منه الى ديارهم لتأخذ منها كل ما يمكن أخذه ، وكل شيء يقع في ايديهم هو ثمين بالنسبة لهم . لانهم لا يملكون شيئا ... وهكذا صارت البوادي والاعرابية من عوامل القلق وعدم الاستقرار في جزيرة العرب ، ومن عوامل التحاسد والتباغض والتناحر فيما بين سكانهم لاتفه الاسباب ، حتى صارت من الامراض المستعصية عند العرب ، التي لاتزال باقية حية . وفي ظروف من هذا النوع ولا يمكن أن يظهر فيها اقتصاد متطور وانتاج كبير ، وأن يترفع مستوى حياة الناس ، فتأخر اقتصاد سكان جزيرة العرب ، وغلب على سواد الناس وهبط بينهم مستوى المعيشة ... وقد وجدت هذه الروح الاعرابية بين الحضر ، كذلك تجسمت في العصبية للحي والقرية ، وفي تناحر الزعماء والملوك على الملكية ...))
(المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج : 4 ، ص ص : 18 / 19) .

خراب الاوطان التي يتغلب عليها البدو (الاعراب) (1) .

ويعلل هذه الظاهرة بتمكن عوائد التوحش في البدو ، الامر الذى جعلهم ينفرون من السياسة واحكامها ، وينبذون الانقياد اليها ، ولا يكترثون "لمبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر" ويأبون كل زجر عن المفاسد والتخريب . وهذا بالطبع أمر يتنافى مع روح العمران والحضارة .

كما أن تمسك البدو بنزعات النهب ، وسلب الآخرين متاعهم يتناقض مع شروط العمران ، ويسرع بخرابه وزواله . هذا بالاضافة الى تلك النظرة

(1) ــ استعمل ابن خلدون هنا اسم ((العرب)) ، ويقصد بهذه التسمية الاعراب وهم البدو ، بل يشمل من في معناهم كالامازيغ والتركمان والترك ، وقد ذكر ابن خلدون هذا بنفسه حينما كتب ((فصل في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي)) (المقدمة ، ج : 2 ، ص: 583/579) . ومما يدل على انه لايقصد بهذا العنوان العرب من أهل الحضر بل البدو وحدهم انه كان يستعمل عبارة أهل المدن والامصار للدلالة على العرب والامازيغ المتحضرين وبالمقابل فانه حين يتكلم عن البادية وسكانها يستعمل عبارة العرب . ثم يذكر صفاتهم التي ينسبها ايضا الى فئات اخرى كقوله : ((وهؤلاء هم العرب ومن في معناهم كظعون البربر وزناتة بالمغرب والاكراد والتركمان والترك بالمشرق ، الا أن العرب ابعد نجعة وأشد بداوة ، لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط . وهؤلاء (البربر والتركمان والاكراد والترك) يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها)) (المقدمة ، ج : 2 ، 583) ورفعا للالتباس عن مقصد ابن خلدون بخصوص كلمة ((عرب)) يستحسن الرجوع الى كتاب الاستاذ الحصرى دراسات عن مقدمة ابن خلدون (ص: 167/151) . ثم الى الدراسة التي ضمها الدكتور عبد الواحد وافي لمقدمة ابن خلدون التي قام بتحقيقها (ج : 1 ، ص: 304/297) ثم التعليق الذى كتبه لشرح مقصد ابن خلدون ضمن ((فصل في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي)) (ج : 2 ، ص: 581/579) . ثم كتاب الدكتور علي الوردى (منطق ابن خلدون ص: 90/87) ثم كتاب الاستاذ ابي القاسم محمد كروه (العرب وابن خلدون) الذى توسع فيه لتبرير مقصد ابن خلدون .

التي تعبر عن احتقار البدو لتعاطي الحرف والصنائع، وعدائهم لكـــل مبادرة قد تدفعهم الى احترافها . وهذا الامر يفسد - بدون شك - النشاط في هذه الميادين ،بل يضعف حالها ،ويبخس قيمتها الاجتماعية ، فينجـــر عن ذلك كله انقراض في الحرف والصنائع وبالتالي خراب للعمران .

وخراب العمران معناه خراب النظام الاجتماعي القائم ايضا . فاذا ما تغلبت العصبية القبلية والروح البدوية على النزعة الحضارية ونماذجهـــا الاجتماعية ، اقتصادية وثقافية ، وسياسية ... الخ فان رد الفعل سيكـــون سلبيا وخطيرا . ذلك أن الحضرى عندما يرى اعماله تذهب ادراج الرياح ويرى أن جهوده في ميادين : الحرف ، والفن ، والنظم تتعرض يوميا الى الفساد والدمار بواسطة اناس يحبون المشاغبة ،ويفضلون الفساد ، دون رادع يردعهم ولا وازع يزعهم ، عندئذ يفقد ذلك الحضرى حماسه وامله في التطور والكسب المتنامي . وهنا تتسرب اليه روح الكسل ، ويعتريه الفشل فيتخلى عن نشاطه ويترك ابداعه . وبهذا تقل مكاسبه ، وتتلاشى فوائده ، فينقـــرض بهذه العلة العمران الذى كان قائما .

وربما صح ما قاله ابن خلدون بخصوص المغلوب الذى يقتـــدى بالغالب (1) . حيث يحاول الحضرى المغلوب تغيير عاداته وتقاليـــده ، والاتجاه الى تقاليد البداوة وعاداتها ، على الرغم من اشمئزازه السابق لها وذلك تبعا لأزمة القيم التي يمر بها . وهكذا يصبح على غير عادته ، فـــيرى بأن البداوة لها فعالية ونجاعة ، والا فكيف تحققت لها الغلبة؟ يرى كـــل ذلك متناسيا أمر العصبية التي حققت لاولائك البدو والغلبة والسلطان .

وبذلك تتجلى - بعض الشيء - صورتان للكيفية التي يمكن للعصبية أن تؤثر بها على النظم . فالاولى حسب النمط البدوى للعصبية ، والثانية حسب النمط المدني (داخل المـــدن) .

---

(1) - المقدمة ، ج : 2، ص: 620/621 .

يمكن حصر النشاط الاقتصادى فى مجتمع المغرب الاسلامى ضمن الاشكال الشائعة فى البلاد الاسلامية كافة آنئذ . واذا كان ثمة اختلاف فانه حتما لا يكون سوى فى درجة التطور الذى يتميز به بلد عن الآخر فى هذا المجال ،بالاضافة الى احتمال تغلب نموذج ما على غيره من نماذج النشاط الاقتصادى .

وفى هذه الحال لا يمكن تصنيف هذا الشكل الاقتصادى ضمن ما هو معروف الآن من الاشكال : كالاقتصاد الرأسمالى ،والاقتصاد الأشتراكى .لأن الطابع الاقتصادى المعمول به فى البلاد الاسلامية استمد اصوله فى الحقيقة - من حقائق اجتماعية ونفسية سادت المجتمعات القبلية التى عرفها المجتمع العربى قبل ظهور الاسلام وبعده .

لقد سبقت الاشارة الى أن المجتمع المغربى ينسقم الى قسمين عظيمين : البدو ، والحضر . وهذا التقسيم - فى الحقيقة - نشأ من جراء عوامل اقتصادية بالدرجة الاولى ، حيث اكتفى البدو بالضرورى فى معاشهم بينما انغمس الحضر فى الكمالى . ومع هذا فانه يمكن تقسيم البدو بدورهم الى فئتين : الاولى انتقلت من حدود الضرورى الى مرحلة الحاجى - حسب تعبير ابن خلدون - وهى مرحلة أعلى فى تطور الحياة الاقتصادية ولكنها أدنى من المرحلة التى تتميز بالكماليات . أما الثانية فظلت على حالها الأول الذى يقتصر على الضرورى .

وعليه فان الحضر هم سكان المدن - كما سبق - والبدو هم سكان :الارياف، والقفار،فاما أهل القفار فهم المتوغلون فى طلب النجعة فى اعماق الصحراء والمفاوز الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد المغرب . أما أهل الارياف فهم الفئة المتوسطة التى تعتبر بمثابة همزة الوصل بين البدو الاقحاح والحضر . وبذلك يمكن تمييز شكل المعاش واسلوب الحياة التى تطبع أهل الريف ،فهى متطورة عن حياة البدو الاقحاح ،من حيث النشاط الاقتصادى ومستوى المعيشة،وبالمقابل فهي متأخرة عن مستوى الحضر من أهل المدن .

وهكذا يسهل تصنيف النشاط الاقتصادى حسب نوعية الفئة الاجتماعية . لأن مستوى معيشة كل فئة مرتبط بشكل النشاط الاقتصادى الذى تتعاطاه الفئة المعينة . ومع هذا يمكن فى بداية الامر

حصر النشاطات الاقتصادية التي يقوم بها المجتمع المغربي بصورة عامة بجميع فئاته ضمن : الزراعة ، وتربية الحيوانات، والصيد ، والتجارة ، والصناعة .

(1)ـ الزراعـــــــة :

يعتبر هذا النشاط الاقتصادي هو النشاط الاكثر انتشارا في ربوع المغرب الاسلامي لأن جل السكان في هذه الديار متمركزون بالارياف والتلول ،حيث الظروف الاجتماعيـــــة والطبيعية مساعدة لازدهار الزراعة .

وربما عادت التقاليد الفلاحية هنا الى عهود قديمة جدا ،لأن القرطاجيين كانوا روادا في المعارف الفلاحية (1) ، كما أن ماسينيسا قد اهتم هو الآخر بهذا الجانب،حيث قـــام بتشجيع القبائل الامازيغية على الاستقرار واحتراف الفلاحة (2) . وهذا الامر بالطبع انحصـــر في المناطق الشمالية ، بخلاف الصحراء النائية عن سلطانه المطلق، فتعذر على الانسان المغربي أن ينشر فيها الزراعة أو يوسع نطاقها ضمنها . والعلة في هذا لاترجع الى الظروف الطبيعيـة فقط، بل تعود ايضا الى عوامل اجتماعية : كروح البداوة ، والنظام القبلي المتحجر .

أـ الـــــزراعـــــة فـــي الصحراء :

يعتقد بعضهم بأن الظروف الطبيعية القاسية هي السبب الاول والاخير في قصور النشاط الفلاحي وضعفه بالصحراء متناسين بذلك دور الانسان في تكييف نفسه واصلاح محيطه. حقيقة أن الشرط الاول في بعث أى عمل زراعي هو الماء . ومن هنا يجب الاعتراف بأن الصحراء لاتتوافر بها المياه السطحية بالشكل المعروف في شمال البلاد ، اذ توجد بعض المناطق الصحراوية التي لامـــاء فيها بتاتا . الامر الذى يستحيل معه ظهور أى نشاط زراعي .

ومع هذا لثمة مناطق صحراوية أخرى حظيت بمصادر للميـــــاه فـــي منتهـــــى

---

(1)ـ شارل اندرى جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية : ج :1، ص،ص:112/113.

(2)ـ جوليان : نفسه، ص،ص:134/135.

الأهمية . وتلك المياه في الغالب تكون جوفية ،تستنبط وتستخرج بوسائل عديدة منها : الدلو (1) . والناعورة (2) ،والخطارة (3) ،والسانية (4) ،أو بطرق هندسية أخرى كنظام القفارات (5) هذا. بالاضافة الى الري التلقائي الذي يتم دون جهد يبذله الانسان،ويتم هذا النوع من الري بعد الفيضان الذي تعرفه الوديان الصحراوية ،حيث تغمر مياهها الاراضي المحيطة بالاودية ،فينمو زرعها (6) .

بالطبع فان توافر المياه ،مع الجهود التي يبذلها الانسان ،كل ذلك حقق نجاحات هامة في ميدان الزراعة ببعض المناطق الصحراوية ، حيث ظهر بأن الفلاح في تلك الديار ،يمكن أن تضاهي أرياف الشمال أحيانا . وكتب الرحلات الجغرافية والتاريخ آنئذ مليئة بالأمثلة والشواهد الحية التي تصف النشاط الفلاحي بالقصور والواحات الصحراوية ، فتضفي عليه شكلا مزدهرا نوعا ما .

فهذا الادريسي في كتابه نزهة المشتاق (7) يتكلم عن الفلاحة واساليب الري بسجلماسة ،حيث يبدي اعجابه ،ويشبه اسلوب الري فيها بالاسلوب الذي يتبعه الفلاحون المصريون على ضفاف نهر النيل ،ويذكر بأن نهر سجلماسة كثير الماء، ويقول بأن النهر يتضاعف ماؤه ويفيض في فصل

(1) ـ وعاء من الجلد وغيره ،يستعمل لسحب الماء من داخل البئر ،فاذا كان الدلو صغيرا يسحبه الانسان بنفسه ،اما اذا كان كبيرا فيستعين ببعض الحيوانات، وهذا الاسلوب هو الشائع في الصحراء .

(2) ـ عبارة عن عجلة كبيرة يثبت عليها عدد من الدلاء بشكل متلاحق ،وعندما تدور العجلة من الاعلى الى الاسفل تغمر الدلاء في ماء النهر فترفع الماء، حيث ينسكب في الاعلى عندما تنقلب الدلاء بفضل الدوران (الوزان : وصف افريقيا ،ج :1 ،ص: 284 ـ 294 ،ج :2 ،ص: 75 ـ 127) .

(3) ـ عبارة عن رافعة بدائية تصنع من جذع شجرة طويل يثقل في نهايته الخلفية ببعض الاثقال وفي الامام يثبت الحبل الموصول بالدلو ،على أن يتخذ محور في منتصف الجذع تقريبا ،ترتكز عليه الرافعة ، وهكذا عندما يمتلئ الدلو بالماء يسهل رفعه بمساعدة الثقل الموضوع خلف الرافعة ،وتسمى هذه الرافعة ايضا أنجفة . (انظر الادريسي : نزهة المشتاق ،ص: 93) .

(4) ـ عبارة عن عجلة تركب بشكل افقي ويقوم بادارتها بعض الحيوانات، وعندما تدور ترفع الماء من البئر بواسطة أسطوانات تعمل ميكانيكيا ، وتطلق هذه التسمية أيضا على الابار التي تستخرج منها المياه بواسطة الحيوانات (انظر الادريسي : نفسه :154)) .

(5) ـ الادريسي :نفسه ،ص: 136/137 ،ابن خلدون :العبر ،ج :7 ،ص: 119 ، وهي عبارة عن آبار تحفر متقاربة من بعضها، ثم توصل فيما بينها بواسطة فتحات فتصبح كالنهر الجاري .

(6) ـ الادريسي :نفسه ،ص: 128 .

(7) ـ ص: 128/129 .

الصيف، واذا ماتكرر فيضانه بشكل متواتر فان الفلاحين لايعيدون البذر ويكتفون بما بذروه في السنة الاولى . فينبت الزرع من جديد بعد حصاده، بشرط أن تترك الجذور في مكانها دون قلع. وهكذا قد يتجدد نمو الزرع دون بذر لعدة سنوات (1) . ربما وصلت الى سبع سنوات غير أن الحنطة المتجددة دون اعادة البذر يتحول شكلها ، فتصبح بين الحنطة والشعير ، ويسميها سكان سجلماسة ((يردن تيـزواو)) .

ويعدد الادريسي انواع الغلال والثمار التي تنتجها مزارع وبساتين سجلماسة فيقول : ((وبها نخل كثير وانواع من التمر لا يشبه بعضها بعضا . وفيها الرطب المسمى بالبرني ، وهي خضراء جدا ، وحلاوتها تفوق كل حلاوة، ونواها صغار في غاية الصغر . ولأهل هذه المدينة غلات القطن ، وغلات الكمون ، والكرويا ، والحناء)) (2) .

وسبق أن تكلم البكري ايضا بخصوص سجلماسة فذكر أنها تقع على فرعين لنهر واحد ، تزوده بالمياه عيون كثيرة. ويسقي هذا النهر مزارع وبساتين سجلماسة ذات النخيل والاعناب المعرشة ، والفواكه المختلفة ، والزبيب الظلي ، والمشمش(3) .

اما الحسن الوزان ، فيذكر في كتابه وصف افريقيا (4) . بان اقليم سجلماسة يمتد على طول نهر زيز الذى يقطع حوالي عشرين ميلا . ويشمل هذا الاقليم مايقارب الثلاثمائة قصر ، بالاضافة الى بعض المداشر الأخرى . ويذكر ايضا بان هذا النهر يقل ماؤه صيفا أو يجف

---

(1)ـ قد تكون هذه الاقوال صحيحة ، لأن التجارب الحالية أثبتت ذلك. ففي تمنراست يأخذ نبات الطماطم شكل الكروم ، حيث يمتد الى مايقارب المترين ، ويبقى حيا لسنتين أو اكثر ، غير أن منتوجه يقل تباعا كل سنة . وكذلك نبات الفلفل الذى يصبح مع مرور السنوات شجرا بطول متر ونصف ، بل أكثر . والباذنجان أيضا يبقى سنوات ، حيث يصبح شجرا صغيرا أقل من المتر .

(2)ـ مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، ص: 129 .

(3)ـ المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، ص: 148 .

(4)ـ ج : 2 ، ص ص: 125/127 .

وهذا القول بالطبع مخالف لما ذكره الادريسي . ويقول ايضا بان سكان سجلماسة يرفعون مياه النهـــر بواسطة النواعير .

وقد اشار ابن خلدون الى قصور الصحراء ذات العمران الواسع المتميز بالفلاحة والتجارة . وذلك عندما تكلم عن قبيلة ذوي منصور ، فوصف وادي درعة وقصورها (1) ، وعندما ذكر مواطن بني يلدس(من بني وامانوا) فقال انها تسمى توات وبها أكثر من المائتيـــــن من القصور ذات الجنات والنخيل والاعناب والفواكه كافة (2) . كما تكلم ايضا عن قـــرى بني ريغة الممتدة جنوب الزاب على ضفاف واد يتجه من الغرب الى الشرق ، وتقع تلك القصور والقرى مابين الزاب ووارگلا ، ((وقد رف عليها الشجر ، ونضدت حفافيها النخيل ، وانساحت خلالها المياه ، وزهت بنا بعها الصحراء)) (3) .

وذكر الوزان ايضا امثلة أخرى عن الفلاحة في القصور والواحات الصحراوية مثل (4) تبلبلت وتدغة التي تزخر بالتمر والعنب والخوخ والتين ، وفركلة ، وتزرين ، وبني بصرى ، وتيكوارين التي يعتني اهلها بالسماد بغرض استصلاح الاراضي الفلاحية ، وتقرت ، واقليم الزاب ، وبلاد الجريد ، وكل من اطلع على ماكتب حول الفلاحة بالصحراء سيكتشف لامحالة بان السبب المباشر في ضعف هذا القطاع الاقتصادي هو النظام القبلي المتحجر في بداوته . ذلك أن العوامل التي تعطل النشاط الفلاحي بصورة خاصة وكل نشاط عمراني عامة تنحصر بالدرجة الاولى في تلك الظاهرة التي تتناقض مع روح الاستقرار ، الا وهي ظاهرة الظعن والترحال التي تمتلك مشاعر اعضاء القبائل الممعنة في بداوتها .

فالعصبية القبلية وان كانت تحث اعضاءها على الالتحام والتكاثف والتعاون من أجل الوصول الى الملك ، فانها من جهة أخرى لاتلتفت تماما للميادين العمرانية ــ الا في حدود ضيقة تفرضها الحاجة الماسة ــ ولا تحث اعضاءها على التكاثف والتعاون في سبيل تنمية عمران يتجاوز حدود العمران البدوي الضروري . كما أن العصبية القبلية لاتهتم بالمرة بالحرف والصناعات ، بل يقف البدو والمعـــــنـــون في بداوتهـــــــم

(1) ــ العبر ، مج : 6 ، ص: 134 .
(2) ــ نفسه : مج ، 7 ، ص: 117/119 .
(3) ــ نفسه : مج : 7 ، ص: 98/99 .
(4) ــ وصف افريقيا ، ج : 2 ، ص: 129ــ130ــ132ــ133ــ134ــ135ــ138/141ــ 142/147 .

موقفا معاديا لتلك الصنائع والحرف بما فيها الزراعة التي يحتقرها الهد وأهل الظعن ويأبون احترافها .

لذا فان الزراعة بالصحراء يباشرها في الغالب بعض الضعفاء الذين عجزوا عن الظعن ومشاقه، فاستقروا بالقصور والواحات مع عدد من العبيد ، وجماعات قليلة من اليهود ، وجميعهم يتعاطون حرفة الزراعة وتربية الحيوانات (1) .

اما القبائل الموغلة في ظعنها فتعتبر الفلاحة في عرفهم من الاعمال الوضيعة التي لاتليق بالرجال الاحرار الذين خلقوا للقتال وصيد الحيوانات الضارية . ومع هذا فهم محتاجون لبعض الغلال التي لا يمكن توفرها الا بالعمل الفلاحي ، ولكي يوفقوا بين تحقيق حاجاتهم من المنتوج الزراعي وبين اعرافهم فقد اسندوا العمل في الزراعة الى مواليهم وعبيدهم ، وهذا الامر بالطبع كفيل بضمان منتوج فلاحي يتزودون به مرة كل سنة ، حسب الموسم الفلاحي وبعدها يجددون الرحلة عبر البراري والقفار وراء النجعة .

ومن هنا يتجلى الاثر السلبي الذي تتسبب فيه القبلية ، حينما يتعلق الأمر ببعث نشاط فلاحي فعال . فالقبلية في هذه الحال تمنع أي تطور للزراعة في الاراضي الصحراوية ، بحكم عدائها واحتقارها لهذه الحرفة ، وبسبب روح التنقل وعدم الاستقرار . أضف الى ذلك ماتتميز به العصبية القبلية من حب للفساد والتعدي على الغير ، وثمة امثلة كثيرة وردت في كتب التاريخ وكتب الرحلات والجغرافية تشهد على العيث الذي كانت سببه القبائل البدوية ذات النجعة ، خاصة في المناطق الصحراوية التي كانت معرضة اكثر من غيرها لفسادهم وعيثهم .

وكمثال على ذلك يمكن الاستشهاد بما ذكره الادريسي عن الفساد والخراب الذي

---

(1) ـ الوزان : وصف افريقيا : ج ، 2 ، ص: 115/116 ـ 119 ـ 120 ـ 121 ـ 124 ـ 129 ـ 130 ـ 132 ـ 133/134 .

لحق ببعض المناطق بافريقية : ((وذلك أن من مدينة قابس الى الفوارة ثلاثون ميلا . وكانت فيما سلف قرية وهي الآن خراب، ومنها الى آبار خبست الى قصر الدرق ثمانية وعشرون ميلا،ومن قصر الدرق الى بئر الجمالين ثلاثون مرحلة .وكل هذه المنازل التي نذكرها في هذا الطريق خلاء بلقع قد أتت العرب (1) على عمارتها وطمست آثارها وأخربت عمارها وافنت خيراتها ، فليس بها الآن انيس قاطن ولا حليف ساكن .وهي مستباحة بقبيلة من العرب تسمى مرداس)) (2) .وعندما يصف الادريسي مدينة طرابلس ومدينة سرت ومدينة لبدة يشير ايضا للخراب الذى لحق بتلك المدن ومزارعها ومياهها من قبل الاعراب (3) .وكذا الحال بالنسبة للجزء الثالث من الاقليم الثالث الذى قال عنه الادريسي : ((ان الذى تضمنه هذا الجزء من الارضين أكثرها خلاء ، وعامرها قليل ،وأهلها عرب مفسدة في الارض مغيرة على من جاورها .وفيها من البلاد :زويلة ابن الخطاب، ومستيسح، وزالة، وأوجلة، وبرقة)) (4) .

وتكلم الوزان عن الاعراب الذين نقلهم الخليفة المنصور الموحدى الى المغرب الاقصى فأشار الى اضطرارهم لاحتراف حراثة الارض وتربية الماشية متخلين بذلك عن كبريائهم بعد أن سدت في وجوههم سبل الظعن في اعماق الصحراء . وقال عنهم ((الاعراب خارج الصحراء كالسمك خارج الماء)) (5) .

وفي موضع آخر يتكلم الوزان ايضا عن الاساليب المتبعة في تخريب العمران وافساد الانجازات الفلاحية من جراء العصبية القبلية التي تحث مختلف الاطراف على الفتنة والاقتتال،من ذلك قوله بخصوص سكان أحد قصور اقليم سجلماسة واسمه المأمون : ((وكثيرا ما تنشب بين

---

(1) ـ المقصود بالعرب هنا هم الاعراب من سكان البادية .وقد جرت العادة لدى جل أهل المغرب والاندلس تسمية الاعراب باسم العرب،هذا وقد سبق شرح المقصود من هذه الكلمة عند ابن خلدون .أنظر ما قبله .

(2) ـ الادريسي : مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ص:197 .

(3) ـ نفسه ، ص:199/198 ـ 208 .

(4) ـ نفسه ، ص: 211 .

(5) ـ وصف افريقيا ، ج : 1، ص: 47 .

هؤلاء الناس خصومات و شقاقات، وهم في عراك دائم بينهم يسيء بعضهم الى بعض ما استطاع، فيتلفون قنوات السقي المجلوبة من النهر، ويقطعون النخل من أسفل، وينهب بعضهم بعضا مظاهرين على ذلك بالاعراب)) (1) .

وهكذا ترى بأن الصحراء ابتليت بالمظهر الطبيعي القاسي، والمظهر القبلي المخرب والمانع لكل عمل عمراني يمكن له أن يطور الميادين الاجتماعية والاقتصادية في تلك الربوع .

ب - الزراعة في الارياف :

لقد حافظ سكان الارياف بالمغرب الاسلامي على التقاليد الفلاحية الموروثة عن عهد ما سينيسا ،هذا العاهل الذى حث بعض القبائل الامازيغية على الاشتغال بالفلاحة وشجعهم على الاستقرار ،وترك عادة الظعن (2) .

ومع هذا فقد بقيت بشمال البلاد بعض القبائل التي اختارت الزراعة والرحلة معا فاضحوا بذلك نصف مستقرين .وقد فرضت عليهم حيواناتهم (البقر والغنم والخيل) شكلا محدودا في الظعن ،يمنعهم من التوغل بعيدا . (3) .

ولما كان المجتمع المغربي عامة عبارة عن مجتمع تسوده الروح القبلية فانه عجز عن تطوير اساليب حياته ،بحيث ظلت جل القبائل الريفية محتفظة بعاداتها واعرافها البدوية . كما أن وضعها الامني شغلها كثيرا عن التوسع في الزراعة ، لأن القبائل الظاعنة جنوبا لا تدعهم في سلام فاذ تهاجمهم بين الحين والآخر فتقتلهم وتفسد مزارعهم أو تفرض عليهم جبايات واتاوات تنهكهم وتشل نشاطهم الانتاجي (4) .

---

(1) - الوزان : <u>وصف افريقيا</u> ، ج : 2 ،ص: 126 .
(2) - انظر ما قبله .
(3) - الادريسي : <u>مقتبس من كتاب نزهة المشتاق</u> ،ص ص: 158-165-171-185-186-187-190-192-193-194-195-200 . الوزان : <u>وصف افريقيا</u> ، ج : 1 ،ص ص: 47/ 62-63-65-66 .
(4) - الادريسي : <u>مقتبس من كتاب نزهة المشتاق</u> ،ص ص: 185-190-193-197-198-199-208 .

وثمة أمثلة كثيرة (1) تبرز هذا الاثر الهدام الذى تسببه النظم القبلية والروح العصبية في بلاد المغرب، فمثلا يذكر الادريسي بعض الحالات التي قامت فيها بعض القبائل الامازيغية كغمارة ومصمودة بافساد بعض المناطق خاصة في جهات تاودا، وعكاشة (2)، ويذكر ايضا حالات أخرى افسدت خلالها قبائل من الاعراب بساتين وجنات وعمارات كثيرة ببلاد المغرب (3)، مثل: نواحي البيبان، وأطراف باغاية، وفي قرية بلقان بالجنوب الغربي لمدينة قفصة، واطراف مدينة زويلة، والقيروان، والفوارة، وآبار خبست، وقصر الدرق، وبئر الجماليين ومدينة طرابلس، ومدينة سرت، ومدينة لبدة، والجزء الثالث من الاقليم الثالث كله، به زويلة ابن الخطاب ومستيج وزالة، وأوجله، وبرقه.

وجاء في المعجب بان الاقليم الفاصل بين افريقية والاسكندرية بمحاذاة البحر كان معمورا من قبل، حتى أن القوافل كانت تسير فيه ليلا ونهارا مارة بحصون متتالية ومتقاربة فاذا ظهر عدو ما يسارع الحصن القريب الى اشعال نار تضئ بنورها للحصن الموالي الذى يشعل بدوره ناره كاشارة خاصة الى الحصن الآخر. وهكذا تنتقل الاشارة الضوئية من طرابلس الى الاسكندرية أو بالعكس في ثلاث ساعات. ويقول صاحب الكتاب بان الاعراب قد خربت تلك الحصون وشردت أهلها، فانتشر الخراب في تلك الديار نتيجة لذلك (4).

وفي امكان كل دارس للمجتمع المغربي ان يلاحظ بسهولة، الاثر السلبي الذى خلفته القبلية في الفترة الزمنية مابعد الموحدين، حيث استفحل امر القبائل على الدول الوارثة لتراث الموحدين. وكانت الدول المتواجدة آنئذ هي: دولة بني حفص، ودولة بني عبد الواد، ودولة بني مرين، بالاضافة الى بعض الامارات مثل: امارة بني توجين، وامارة بني منديل

---

(1) _ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص اخبار المغرب، ص ص: 224، 271.
والتجاني: الرحلة، ص ص: 16_65_68_132_314.
(2)، مقتبس من نزهة المشتاق: ص 150.
(3) _ نفسه: ص ص: 163_177_179_184_185_197_199_208_211.
(4) _ عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق: ص ص: 347 / 348. وهذا النظام _ في الحقيقة _ كان يمتد الى طنجة.

المغراويين، وامارة بني حفص ببجاية، وامارة بني مزني ببسكرة . . . ونظرا لطمع كل دولة في احتواء الدول الاخرى، فان تلك الدول والامارات وجدت نفسها في حاجة الى المعونة والمساندة من قبل القبائل المجاورة لها، لذا فقد اضطرت الدول آنـذاك لاغراء القبائل بالاقطاعات في مقابل وقوفها الى جانب الدولة في حروبها ضد الدول الاخرى.

وهكـذا تغيرت الخارطة الفلاحية في بلاد المغرب، حيث امتلكت القبائـل التي لاتعرف حرفة الفلاحة اراضي شاسعة في السهول الخصبة. وبالطبع فان ذلك يؤثر حتما في نوعية وكمية الانتاج الفلاحي، وبذلك انتشر الخراب والفساد الذى انتاب المزارع والبساتين. وبالطبع لم تكن القبائل تقصد الخراب حبا في الخراب لذاته. بل تسببت في خراب العمران الفلاحي لجهلها بفنون الزراعة (1) واحتقارها لهذه الحرفة. وعليه فقد اكتفت تلك القبائـل بجعل البساتين والمزارع مسارح جيدة لرعي الحيوانات. وهذا بالنسبة اليهم يعتبر من اهم المكـــاسب، ومنتهى العمران عندهـــم.

وحتى اذا ترك شيوخ القبائل المزارعين الاوائل في بساتينهم فانه يحصر كـل همـــه في الاتاوات التي يتقاضاها من اولائك المزارعين، وعليه فانه يثقل عليهم بالجبايات، دون حساب لمستوى الانتاج، أو للحوافز التي تشجع الفلاحين على تطوير فلاحتهم لتعم الفائدة الناس جميعا (2).

اما الدولة فعائداتها ــ طبعا ــ تقل بسبب شراهة القبائل وسوء سياستهم التي تجبر ــ حتما ــ الفلاحين على النزوح والهروب الى المدن. وقد انجر على ذلك كله انتشار الفقر والبطالة في ربوع المغرب كافة، وكل من درس كتب الرحلات التي سبقت العهد الموحدى أوخلال ذلك العهد، ثم تأمل في كتب أخرى كتبت بعد قيام الدول الثلاث الوريثة لممتلكات الموحدين سيلاحظ بدون شك مستوى المعيشة الذى تدنى بشكل رهيب لدى المجتمع المغربي. انظر على سبيل المثال كتاب الادريسي نزهة المشتاق، وبالمقابل أقرأ ما جاء في كتاب الوزان وصف افريقيا، فالكتاب الاول يقدم للقارئ صورة زاهية ومزدهرة للاقتصاد الفلاحي ببلاد المغرب كلها، اما الكتاب الثاني فيجسم الكارثة التي وصلت اليها بلاد المغرب كافة في الميادين جميعها، وخاصة الميدان الفلاحي الذى يشكل العمود الفقري في الاقتصاد المغربي.

(1) ــ كمثال على افساد الاعمال الفلاحية بسبب الجهل ان التجاني خلال رحلته سجل بعض الملاحظات التي تؤيد هذا الرأى. وفي ذلك يقول واصفا بعض المزارع التي تحاذى الساحل بالقرب من حصن الجم: ((وكان مسيرنا منذ فارقنا الجم في الزيتون القديم المتصل المعروف بزيتون الساحل وقد أذهب افساد العرب اكثره، وَغَيَّرَ بُعْدَ الاستواء اسطره، فكأنه كان مغروسا على حالة معلومة واسطر متناسبة منظومة، فابطل الافساد اكثر ذلك، وعلى هذا الزيتون كان مدار غلات افريقية في القديم))
(الرحلة، ص: 65).

(2) ــ التجاني: الرحلة، ص ص: 216 / 218.

يبدو أن النشاط الفلاحي بربوع المغرب كان يتم ضمن ثلاثة اشكال من الملكيــة للاراضي الزراعية . فالاول هو نظام الملكية الخاصة ، حيث تكون الارض في هذه الحال داخلة في سنة البيع والشراء بحرية مطلقة . والشكل الثاني تكون فيه الارض موقوفة اما على أفراد أو على مؤسسات . اما الشكل الثالث فهو نظام الاقطاع . وهذا الاخير ينقسم بدوره الى نوعين : الاول هو الاقطاع الفردي أو الخاص ، يستفيد منه شخص معين دون الجماعة ، والثاني هو الاقطاع الجماعي الذي يمنح للقبيلة كلها .

فاما الملكية الخاصة فتكون في الغالب حول المدن وفي اطراف القرى والمداشر ، حيث يمتلك بعض الخواص من الفلاحين والتجار والاعيان ، كالشيوخ والقادة والامراء والسلاطين (1) ، بعض البساتين والجنائن التي تحظى بعناية خاصة ، حيث يتفنن اصحابها في الاعمال الفلاحية ، فيغرسون مختلف الانواع من الاشجار المثمرة المخصصة للاستهلاك الشخصي أو للبيع في الاسواق .

وقد ذكرت كتب الجغرافية والرحلات والتاريخ امثلة عديدة عن هذه الاشكال من الملكية وعلى سبيل المثال يمكن ادراج قائمة باسماء المدن والقرى والمناطق التي ازدهرت فيها زراعة البقول وغراسة الاشجار . ويجدر التنبيه في هذا المجال الى ان هذا الشكل من الفلاحة يتم غالبا ضمن الاملاك الخاصة أو الاقطاعات الفردية أو الاملاك المــوقــوفــة

(1) - كمثال عن البساتين التي يمتلكها السلاطين : بستان عبد المؤمن بن علي (انظر عبد الواحد المراكشي : في كتاب المعجب ، ص: 201) ، وبستان السلطان الحفصي ابي عبد الله المستنصر (انظر ابن خلدون : في كتاب العبر ، 6 ، ص: 630) . كما يفهم من سيـــاق حديث ابن الاحمر في كتاب روضة النسرين في دولة بني مرين أن اباتا شفين بن ابي حمو الاول ، وابا حمو موسى الثاني من سلاطين بني عبد الواد كانا يمتلكان بساتيــن فاكهة وخضار (انظر روضة النسرين تحقيق : الغوثي بوعلي وجورج مارسي ، ص ص: 120/121 121 - 128)

فكتاب نزهة المشتاق للادريسي يشتمل على عينات هامة يمكنها اعطاء صورة مقبولة لما كانت عليه الحال في هذا الميدان .

فحول قرى درعة يزرع الفلاحون ضمن املاكهم الخاصة على مايبدو : النيلج ، والكمون ، والكروياء ، والحناء التي يكبر نباتها حتى يصير شجرا يتسلقه الفلاحون لجني بذره الفريد من نوعه في كافة الاقطار (1) .

وتنتج درعة وبلاد السوس الاقصى : الرمان الحلو ، والاترج ذا الحجم الكبير والمشمش والتفاح وقصب السكر الذى يستخرج منه اجود انواع السكر . والحنطة ، والشعير والارز (2) .

- وفي نفيس ببلاد المصامدة يزرعون اشجار الفواكه المختلفة ، والحنطة ، والعنب الذى يعد منه اجود انواع الزبيب من حيث الحلاوة ، والكبر (3) .

- ويزرع الفلاحون بجبل درن : التين ذا الحجم الكبير البالغ الحلاوة ، والعنب المستطيل الشكل والخالي من النوى وذا القشرة الرقيقة الذى يتخذ منه افضل انواع الزبيب المحبوب لدى ملوك المغرب ، والجوز ، واللوز ، والسفرجل ، والرمان ، والأجاص ، والكمثرى والمشمش ، والاترج ، وقصب السكر ، والزيتون ، والخرنوب (4) .

- وعلى ضفاف نهر أم الربيع يقوم الفلاحون بزراعة : القطن ، والحنطة ، والكمون ومختلف البقول (5) .

وتنتج سلا ومرسى فضالة انواعا كثيرة من الحبوب : كالحنطة ، والشعير ، والفول والحمص بالاضافة الى انواع عديدة من الفواكـــه (6) .

---

(1)- الادريسي : مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، ص: 130 .

(2)- الادريسي : نفسه ، ص ص: 130/131 .

(3)- نفسه ، ص: 132 .
(4)- نفسه ، ص ص: 132/136 .
(5)- نفسه ، ص ص : 140/141 .
(6)- نفسه ، ص ص : 141/142 .

ومن المدن والقرى التي خصها الادريسي ايضا بالشرح : المسيلة التي قال أنها تتميز بسعة ارضها وغزرة ثمارها وامتداد مزارعها وبساتينها ، ومن خلالها القطن ، والقمح والشعير ، وفواكه أخرى (1) .

وبسر شك، وشرشال، حيث المزارع العديدة التي تنتج مختلف الفواكه مثل : العنب، والتين ، والسفرجل، الذى له اعناق كاعناق القرع ويعتبر من طرائف شرشال ، بالاضافة الى الحبوب كالحنطة والشعير (2) . ثم الجزائر ، ومرسى الدجاج ، وتدلس، وبجاية ، وسطيف ومقرة ونقاوس وبغاية ، وطبنة، وجميعها تنتج مختلف الغلال من فواكه وحنطة وشعير ، يضاف الى ذلك المدن التي تنتج الفواكه والحبوب والتمر مثل : بسكرة وقفصة وقابس (3) .

اما الاراضي الموقوفة فهي اما لصالح بعض الاشخاص، والهدف من ايقافها في الغالب يكون لمنع بيعها مستقبلا . أو توقف لصالح مؤسسات دينية وثقافية ، لتصرف مداخيلها على المساجد، والزوايا، والمدارس، والمارستانات . . الخ . وثمة امثلة عديدة على انتشار هذا الشكل من الوقف ببلاد المغرب (4) .

بقي الان . . الحديث عن الاراضي المستغلة في اطار الاقطاعات التي استفادت بها القبائل بالمغرب الاسلامي ، ان الادريسي اضحى يعمم في وصفه للنشاط الفلاحي كلما اتجه نحو الشرق من بلاد المغرب ، بل أصبح يصف بايجاز الاضرار التي لحقت بالفلاحة في تلك الديار من قبل الاعراب ، حتى أن هذا النشاط أفل نجمه بعض الشيء شرق افريقية ، حيث غلب الطابع الصحراوى على تلك المناطق . ومن سياق حديثه يفهم بأن جل الاراضي اضحت اقطاعا وملكا لبعض القبائل . وهنا يمكن اعتبارها اقطاعات جماعية ، وان كانت قد امتلكت بالغلبة .

والتجاني في رحلته يقدم صورة محزنة لما اصبحت عليه الزراعة في افريقية

---

(1) ـ مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، ص ص: 155/156 .
(2) ـ نفســـه ، ص: 158/159 .
(3) ـ نفســـه ، ص: 159/217 .
(4) ـ انظر على سبيل المثال يحي بن خلدون : في بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج : 2 ، ص: 104 . و زهر البستان في دولة بني زيان لكاتب ،

وطرابلس بعد ان اقطعت الاراضي للقبائل أو بعد أن تغلبوا عليها (1) .كما أورد خبرا هاما عن قصور بجانب طرابلس تسمى زنزور كثيرة الاشجار عذبة الماء ،ومن ثمارها :التمور اللذيذة ،والزيتون ،والتفاح ،والرمان ،والعنب ،والتين . وكان بها عدد وافر من القصور ،ووصل طولها خمسة اميال .وكانت سابقا من املاك أهل طرابلس ولكنهم اجبروا على تركها بسبب الفتنة الى احدثها ابن غانية ،وباعوها الى عشيرة من هوارة يسمون بالمجريسيين فقاموا بها احسن قيام ،ومنعوها من عبث الاعراب. ولما استفحلت القبائل على الدولة الحفصية اقطع السلطان تلك القصور ببساتينها وفلاحيها الى شيخ من مشائخ الاعراب وهو مرغم بن صابر ،وهو سيد عشيرة الجوارى من بني سليم ،ثم يسترسل التجاني في شرح الكيفية التي طبق الاقطاع بها في تلك الديار فيقول : ((ثم أخذ في اضعافهم (أى اخذ مرغم بن صابر في اضعاف الفلاحين من المجريسيين) والسعي في اتلافهم ، الى أن كاد يفنيهم ،وفي وقتنا هذا متفرقون الى جماعات كثيرة ،واظهر فرقهم فرقة تعرف بالقياد . . . وتناظر هذه الفرقة فرقة أخرى تعرف ببني سلام . . .ويضاف اليهما باقي الفرق كالخطابيين وبني مزيلة ، والابراهيميين ،وبني رزق ، وبني مدنين ،وغيرهم . . . وجميعهم منقسمون بين المراغمة من الجوارى على رتبهم،لكل واحد منهم جماعة يجبيها ويحميها ،وربما تبايعوهم فيشتري أحدهم ونساءه ،وولده، للجباية بما يتراضى مع صاحبه عليه ،ويجعل اداء في كل عام على حسب شجره ،وسعة ارضه ،وليس أهلها ملاكا في الحقيقة لشيء منها وانما هم اجراء للعرب ناصحون . واسم الملكية لهم هو النصح في الخدمة)) (2) .

ان هذا الشكل من الاقطاع غريب كل الغرابة عما عرف عن الاقطاع في الاسلام ، حيث كان الاقطاع يسمى بالالتزام ،وكان بعيدا كل البعد عن الطابع الاستبدادى . اما هذا الشكل الذى وصفه التجاني فهو أقرب الى نظام الاقطاع باوروبا منه الى نظام الاقطاع كما سمح به الاسلام .

ويبدو أن هذا الشكل من الاقطاع كان معمولا به في ربوع المغرب

= مجهول ،ورقة :84 ،والتنسي :مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان ، تحقيق :محمود ابو عياد ص:180 ،والوزان :وصف افريقيا ج :1 ص ص:223-225-227-230-233-262-292 ، ج :2 ص ص:70 - 76 .

(1) - اشار التجاني في رحلته لتملك الأعراب للأراضي بافريقيا وما يليها ص ص:15-55-65-85-86-118-134-141-206-217.

(2) - التجاني :الرحلة ص ص:217/218 ما شار ابن خلدون للعبودية التي لحقت بعشائر هوارة ومنهم مجريس هؤلاء (انظر العبر ج :6 ص ص:289/290-292) .

تكسبها ، ويؤيد هذا تلك الاشارات التي ذكرها ابن خلدون بخصوص بيع الاقطاع واستعباد الفلاحين ، من ذلك قوله : ((واما الزاب فالجانب الغربي منه ، وقاعدته طولقة ، لاولاد محمد ، ولا سباع بن يحي ، وكانت لابي بكر بن مسعود ، فلما ضعف بنوه وذثروا اشتراها منهم علي بن احمد شيخ أولاد محمد ، وسليمان بن علي شيخ اولاد سباع)) (1) .

وثمة امثلة عديدة من الاقطاع في بلاد المغرب ذكرها ابن خلدون ، بدءا بالعهد الموحدي الذي اقطع بعض القبائل الموالية للدولة اقطاعات شاسعة ببلاد المغرب ، منها على سبيل المثال الاقطاع الذي منح لقبيلة بني عبد الواد في المغرب الاوسط (2) . ومع هذا فان الدولة الموحدية لم تلجأ الى اسلوب الاقطاع الا في حالات خاصة ، حيث لم ينتشر الاقطاع في ذلك العهد كما ظهر فيما بعد عندما اقتسمت البلاد بين دول : الحفصيين ، والعبد الواديين ، والمرينيين .

وحتى في خلال فترة العنفوان والقوة لهذه الدول الثلاث فانها تجنبت بقدر الامكان اللجوء الى اسلوب اقطاع البلاد للقبائل ، حيث لم ينتشر ذلك الا بعد تسرب الضعف لهذه الدول . فبعد اعتزاز القبائل البدوية عليها اضطرت تلك الدول الى ارضائها ، بمنحها اقطاعات في التلول والمناطق الزراعية ذات الثروة والغنى ، فانجر عن ذلك تراجع خطير في النمو الزراعي واضعف اقتصاديات الدول آنئذ . ويصف ابن خلدون بعض الحالات التي انتابت الدولة الحفصية فيقول : ((كان للدواودة بقسنطينة عطاء معلوم مرتب على مراتبهم ، زيادة لما بايديهم من البلاد في التلول والزاب باقطاع السلطان ، وضاق نطاق الدولة لهذه العصور ، فضاقت الجباية وصار العرب يزدرعون الاراضي في بلادهم ، ولا يحتسبون بمغارمها فيضيق الدخل ، ويمنعهم السلطان العطاء ، ذلك ، فتفسد طاعتهم وتنطلق بالعيث والنهب ايديهم . . . وانطلقت ايدي قومه (رياح) على تلول قسنطينة بالنهب وانتساف الزروع حتى اكتسحوا عامتها . . .)) (3) .

---

(1) _ العبر : مج : 6 ، ص : 75 .
(2) _ العبر : مج : 6 ، ص ص : 129 _ 150 .
(3) _ العبر ، مج : 6 ، ص ص : 900 / 901 .

ويبدو أن أول من سن الاقطاع للقبائل في الدولة الحفصية هو السلطان أبو حفص عمر بن أبي زكرياء مكافأة منه على خدماتهم التي انجر عنها عودة الحكم في الدولـــة الى العائلة الحفصية بعد الاطاحة بحكم الدعي ابي عمارة . وهكذا اقطع السلطان ابو حفص قسما كبيرا من البلاد الى الاعراب. وفي ذلك يقول ابن خلدون : ((واقطع البلاد والمغارم للعرب رعيا لذمة قيامهم بأمره ، ولم يكن لهم قبلها اقطاع. وكان الخلفاء قبله يتحامون عـــن ذلك ولا يفتحون فيه على انفسهـــــم بابا)) (1) .

كما يشير ابن خلدون ايضا الى تراجع الدولة العبد الوادية امام هجمة القبائـــل من الاعراب حينما ضعفت الدولة في اواخر عهد ابي حمو موسى الثاني فيقول : ((والحال بالمغرب الاوسط لهذا العهد على ماشرحناه مرارا ، من تغلب العرب على الضــواحـــي والكثير من الامصار . وتقلص ظل الدولة عن القاصية وارتدادها على عقبها الى مراكزهـــا بسيف البحر ، وتضاؤل قدرتها عن قدرتهم ، واعطاء اليد في مغالبتهم ببذل رغائب الامـــوال واقطاع البلاد ، والنزول عن الكثير من الامصار ، والقنوع بالتضريب بينهم ، والاغراء بعضهـــم ببعض)) (2) .

أن الامثلـة التي تخص اقطاعات القبائل ببلاد المغرب كافة كثيرة ، ولايمكن حصرها في هذا المجال الضيق. وكل مايمكن استخلاصه هنا هو أن سياسة اقطاع الاراضي الخصبـة للقبائل الظواعن الذين يجهلون العمل الفلاحي وفوائده ، أدى الى انتكاسة في الانشاء الزراعي وبالتالي أثر ذلك على النمو الاقتصادي بصورة عامة ، حتى أن كتب الرحلات والجغرافية التـي ظهرت بعد هذه الفترة اعطت صورة محزنة للمستوى المعاشي الذي اضحى عليه ابناء الريـف بهذه الديار ، حيث انتشر الفقر بين الفلاحين ، بسبب الضرائب الثقيلة التي وضعت عليهم من قبل القبائل القوية والدولة على السواء . وعلى سبيل المثال فان الوزان في كتابه وصف افريقيا قدم للقارئ لوحات كئيبـة عن المجتمع المغربي ، حيث كان يصف فـــــــئــــات كـــثيرة جـــدا بالفقـــر المـــدقـــع ، على الـرغـم مـــن عملهـــــم

---

(1) ـ العبر ، مج : 6 ، ص ص : 696/697 .

(2) ـ العبر ، مج : 6 ، ج : 7 ، ص ص : 290 . انظر ايضا مج : 6 ، ص ص : 92/93 .

على ارض صالحة للفلاحة (1) . منها على سبيل المثال الحال التي اضحت عليها المسيلة حيث يقول : ((والسكان كلهم صناع وفلاحون ، يرتدون لباسا رديئا لفقرهم بسبب جيرانهم الاعراب الذين يسلبون مداخيلهم ، وملك بجاية الذي أثقل كاهلهم بالضرائب . وقد اندهشت للفقر السائد بمسيلة عند مروري بها ، فلم أجد الشعير لفرسي ولليلة واحدة الا بمشقة . ولو أقمت بها ليلة أخرى لما تمكنت من الحصول على مثل ذلك لكثرة البؤس والفاقة السائدين في المدينة)) (2) .

فالذي يقرأ ما كتبه الادريسي مثلا عن المسيلة وخيراتها سيندهش حتما لما كتبه الوزان . وتكمن العلة هنا بالطبع في روح البداوة والعصبية القبلية .

وكمثال على المظهر السلبي الذي يصدر عن الاعراب في مجال الفلاحة وتنميتها يمكن الاستشهاد بنصين في غاية الاهمية وردا في كتاب وصف افريقيا . علما بان هذا الكتاب يحتوي على نصوص اخرى تؤدي الى الفائدة نفسها . فالنص الاول جاء فيه : ((ولا يزرع الاعراب من ارضها (المقصود هنا هو سهل مدينة الجمعة بالمغرب الاقصى) الا الجزء الذي ينتج كفاية قوتهم ويتركون سائرها بورا)) (3) . اما النص الثاني فذكر سهول مدينة تيفزا بجبهات كميوة حيث جاء فيه ((وتوجد تحت هذه المدينة سهول واسعة صالحة كلها لزراعة الحبوب غير أن السكان لا يستطيعون حرثها بسبب ازعاج الاعراب . وانما يزرعون منحدر الجبل الواقع بين النهر والمدينة ، وحتى هذا الجزء يؤدون ثلث المحصول كاملا للاعراب)) (4) .

وهكذا يكون حال الفلاحة ، فاذا زرعت القبيلة ارضا استولت عليها أو اقطعت لها فانها لا تتجاوز — عند استغلالها — حدود الحاجة الضرورية . والحاجة الضرورية لدى القبائل البدوية محدودة جدا من حيث الكيف والكم . وعليه فان المساحات الزراعية تتقلص حتما .

(1) — انظر وصف افريقيا : ج 1 ، ص ص 46—112—116—118—122—123—124—125—126—135—154—167—175—350 ج 2 ، 12—13—36—52—66—67—68—91—106—140 .

(2) — الوزان : نفسه ، ج 2 ، ص 52 .

(3) — الوزان : نفسه ، ج 1 ، ص 123 .

(4) — الوزان : نفسه ، 1 ص ص 123/124 .

كما أن أنواع الثمار تقل ، وربما اقتصرت على نوع أو نوعين فقط دون النظر الى شرط الجـــودة .

اما الحال الاخرى التي تكتفي القبيلة فيها بأخذ اتاوة وضريبة على الارض المقطوعة اليها أو المتغلبة عليها ، تاركة أمر فلاحتها لفلاحين ضعفاء ، فان هذا الشكل مـــن الاستغلال يعرقل تطوير الفلاحة نظرا لثقل الضرائب المفروضة على الفلاحين من قبـــل القبائل من جهة ، ومن طرف الدولة من جهة أخرى ، وهذا ما تتصف بطبيعة الحال يزهد الناس في احـــتراف الفلاحـــة .

اذن فنظام الاقطاع الذى كان يسود ربوع المغرب الاسلامي في العصـــر الوسيط لعب دورا خطيرا في جمود النظام الاقتصادى بتلك الديار ، خاصـــة وأن المستفيدين من هذا الاقطاع هم قبائل بدوية مغالية في بداوتهـــا ، ولا تعطي أى وزن للمصلحة العامة التي تخرج عن نطاق القبيلة أو العشـــيرة ، ذلك النطاق الذى تحدده العصبيـــة .

(2) ــ الرعـــي وتربيـــة الحيوانـــات :

يدخل النشاط المخصص لتربية الحيوانات ضمن النشاط الفلاحي في حقيقة الامر وتخصيص فقرات مستقلة في هذا المجال للعمل في تربية الحيوانات ورعيها يهدف الى ابراز هذا الدور الاقتصادى الهام وشرحه بكيفية أوضـــح .

يبدو أن نوع الحيوانات التي يرعاها الانسان تفرض عليه شكل الحياة التي يجب أن يعيشها . لذا فقد تنبه ابن خلدون الى هذه الظاهرة وفسرها بتصنيف اهل البادية الى : جمالة ، وشاوية ، فالجمالة هم الذين يمتلكون الجمال ويعتمدون عليها في معاشهم أما الشاوية فهم الذين يرعون الشاء والمعز ويلتحق بهم البقارة اصحاب البقر (1) .

وهنا يتحدد شكل الرحلة ومدى الظعن ، فالجمالة هم ابعد نجعة ، وبالتالي أشد بداوة من غيرهم . والبعد في نجعتهم ربما عاد الى سببين رئيسيين : الاول هو مسايرة طبيعة الجمال التي لا تتحمل طقس التلول في فصل الشتاء ، بالاضافة الى شكل المراعي في التلول التي لاتسد حاجة الجمال . ويفسر ابن خلدون ذلك بكون الابل لا تستغني عن المياه المالحة في المناطق الصحراوية كما تحب مراعي القفار حيث الدفء ولأن ولادتها تتطلب ذلك الدفء اذ يضر بها ويصغارها الطقس البارد (2) .

(1) ــ ابن خلدون : المقدمة ج : 2 ص : 582 .
(2) ــ نفسه ج : 2 ص : 583/582 .

اما السبب الثاني فهو وقوف حامية الدولة كحاجز دفاعي ضدهم، لمنعهم من الدخول الى التلول الخصبة، وقاية من عيثهم وفسادهم ((وبمحاذاتهم الحامية عن التلول ايضا، فاوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم. فكانوا لذلك اشد الناس توحشا))(1).

وبالمقابل فان الشاء والمعز والخيل والبقر تتطلب نجعة قريبة غير بعيدة، لعدم احتمالها الرحلة الطويلة من جهة، ولقدرتها على طقس التلول من جهة اخرى، بالاضافة الى مراعي التلول التي تناسبها اكثر مما تناسبها مراعي الصحراء.

لذا فقد انقسم البدو تبعا لنوعية الحيوانات التي يمتلكونها. فبدو الارياف والسباسب يختلفون في معاشهم عن بدو القفار والصحارى القاحلة وشبه القاحلة.

فالبدو بالارياف يقومون بتربية الحيوانات المختلفة وتدجينها بواسطة : الرعي في المسارح الخصبة وذلك بالرحلة من مكان الى آخر دون الاعتماد كثيرا عن مراكزهم الاصلية. وربما اكتفوا بالقيام بتغذية حيواناتهم تغذية مركزة تغنيهم عن الرحلة فيما كانت وذلك بخزن العلف الضروري، واعطائه للحيوانات عند الحاجة.

والفئة الاولى هم البدو والراحلون في السباسب والسهوب وبعض السهول التي تترع فصليا. ومن حيواناتهم : الشاء، والمعز، والخيل، والحمير، والابل في بعض الاحيان.

اما الفئة الثانية فهم سكان الارياف الذين يتعاطون الفلاحة وتربية الحيوانات، دون اللجوء الى الرحلة، ومع هذا فعمرانهم يدخل ضمن العمران البدوي. ومن حيواناتهم : البقر، والشاء، والمعز والخيل، والحمير، وبعض الطيور الداجنة، والحشرات المفيدة :

---

(1) — ابن خلدون : المقدمة، ج :2، ص : 582.

كالنحل ، ودود القـــــــز .

وهكـــــذا يمكـن حصر الثروة الحيوانية في بلاد المغرب ضمن الحيوانات التالية :

أ - الابـــــل أو الجمـــــال : وتتـواجد في الغالب في السباسب وداخل الصحراء . وربما وجد منها اكثر من صنف . لأن جمال اعماق الصحراء تختلف عن جمال السهوب في كونها اكثـــر رشاقة وخفة من هذه الاخيرة . وتسمى تلك الجمال السريعة ((المهارى)) ومفردها ((مهرى)) (1) . وقد تكون هذه التسمية نسبة الى مهرة في بلاد حضرموت ، حيث اشتهرت بنوع سريع ورشيق من الجمال العربية .

وقد اشار الادريسي الى هذه الابل السريعة حينما تكلم عن قبيلة امازيغية تسمـــى رهانة في جبل نفوسة ، فذكر أنهم كانوا يغيرون على الاعراب ممتطين ابلهم التي لا مثيل لهـــا في السرعة (2) .

وذكر الادريسي ايضا أن بعض عشائر زناتة في اعماق الصحراء كانت لهم ابل ((كثيرة اللقاح حسنة النتاج ، وهم ينسجون المســـوح من اوبارها . والبيوت التي يعمرونها ويأوون اليها ، ويتصرفون في البانها واقطانها ، ويتعيشون من لحومها)) (3) .

أما الوزان فيقدم وصفاً رائعا للطريقة التي يمتطي بها امازيغ الصحراء ابلهم ويكاد هذا الوصف ينطبق تماما على ما هو عليه الحال في هذه الايام لدى قبائل الطوارق ((ولا يركبون غير الابل ، يتخذون لها سروجا خاصة ، يضعونها بين اسنمتها واعناقها . ومنظر هؤلاء القوم على ظهور ابلهم جميل ، يضعون احيانا رجلا على رجل فوق عنق الجمل . ويجعلون ارجلهم في سير بلا ركاب تارة اخرى ، ويتخذون مِهْمَازاً على رأس قضيب طوله ذراع ، لكنهم لا يخزون به غير كتفي الدابة . وانوف الجمال المعدة للركوب كلها مثقوبة على نحو بعض الجواميس بايطاليا ، فيدخل في الثقب سير يقاد به الجمل كما يقاد الفرس باللجام)) (4) .

(1) - انظر ابن ابي زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص : 64 .
(2) - الادريسي : مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، ص : 200 .
(3) - نفسه : ص : 93 .
(4) - الوزان : وصف أفريقيا ، ج : 1 ، ص : 58 .

ويرجع ظهور الابل في بلاد المغرب الى عصور سبقت الفتح الاسلامي، حيث ذكرت النصوص التاريخية بأنها استعملت في حروب الامازيغ البتر ضد كل من الوندال ، والبيزنطيين . ويرجع بعضهم ظهورها لأول مرة في شمال افريقيا خلال القرن الأول للميلاد ، حيث برز الجمل كوسيلة للحرب في عهد يوبا الثاني ، غير أن عدد الجمال في الجيش الروماني آنئذ لم يتجاوز اثنين وعشرين جملا كما ذكرت النصوص (1) . ولكن ذلك العدد تضاعف فيما بعد حتى اضحت له فعالية كبيرة في العهدين الوندالي والبيزنطي .

ب - <u>الخيـــــــل</u> : ظهرت الخيل في بلاد المغرب (شمال افريقيا) قبل ظهور الجمال بكثير . وثمة من يرى انها دخلت هذه البلاد من مصر التي عرفت الخيول لأول مرة في عهد الهكسوس (2) .

ولما كانت سلالات الخيل عديدة في بلدان العالم كافة ، فان بلاد المغرب اختصت في بداية الامر بسلالة خاصة عرفت بسلالة ((بارب)) ويعتقد بعضهم بأنها انبثقت من تهجين سلالة ما من سلالات الخيل بالحمار الوحشي الافريقي . وربما يكون قد تم ذلك في عهود قديمة ببلاد النوبة بمصر العليا (الصعيد) . (2) .

هذا وقد لعب الحصان ادوارا هامة في حياة القبائل الامازيغية ، حيث كان الى جانب الفيل وسيلة حرب خطيرة ، كانت من اسباب شهرة الفرسان الامازيغ آنئذ .

وبعد الفتح الاسلامي دخل الى المغرب نوع آخر من الخيل ويتمثل في السلالة العربية التي تميزت بصفاء دمائها ، ورشاقة اجسامها ، وجمال تكوينها ، وسرعة عدوها . وقد أورد البكري نصا يفيد بأن بلاد المغرب كافة بها سلالة جيدة من الخيل قبل الفتح ، وذلك عندما غنم عقبة بن نافع عددا منها في غزوته لباغاية اذ قال : ((وغنم منهم خيلا لم يروا في مغازيهم أصلب ولاأسرع منها من نتاج خيل اوراس)) (3) .

وهكذا اضحى ببلاد المغرب نوعان من الخيل تتشكل منها ثروة البلاد التي ظلت لسنوات طويلة مصدرا هاما للاندلس (4) .

---

(1) M.F GAUTIER, LE PASSE DE L'AFRIQUE, PP193 /201 DU NORD

(2) GAUTIER , IBID P : 189

(3) - <u>المغرب</u> ص: 145 .

(4) - كمثال ذكر ابن عذارى ان المعز بن زيرى المغراوى اهدى الى الخليفة الاموى هشام بقرطبة سبعمئة من الخيل (انظر <u>البيان المغرب</u> ج: 1 ص: 253 . وابن ابي زرع ، <u>روض القرطاس</u> ص: 68 . وابن الخطيب ، <u>أعمال الاعلام</u> ، القسم : 3 ، ص: 160 .

ومصر (1) .

ففي العهد الموحدي اهتم ولاة امور الدولة بالخيل اهتماما كبيرا ، وخاصة الخيل ذات السلالة العربية، حيث استجلب منها خلفاء الموحدين عددا كبيرا من المغرب الادنى أين تنتشر القبائل العربية بكثرة (2) . وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة :
((ووصل ايضا المال والاسناء بافريقية ... بهؤلاء العرب، والاموال ، والخيل العراب، العتاق الاحساب، المدربة عند الاعراب ... وكان عدد الخيل الواصلة من افريقية أربعة آلاف فرس، .. وكان الذى وصل من تلمسان ونظرها ألف فرس، ..)) (3) .

وبعد الموحدين وفي ظل دول : الحفصيين ، والعبد الواديين ، والمرينيين اشتهرت خيول المغرب في المشرق، ومصر بالذات ، حيث تهافت عليها السلاطين والامراء المماليك، فيرسلون من يبتاعها ويجلبها اليهم، وكانت هذه الخيول خير الهدايا التي تقدم من قبل سلاطين : تونس، وتلمسان ، وفاس الى ملوك مصر . وقد ذكر محمد بن مرزوق التلمساني بان السلطان ابا الحسن المريني قد اهدى الى الملك الناصر محمد بن قلاوون ثلاثمائة وخمسة وثلاثين من الخيل ذكور واناث (4) .

اما ابن خلدون فقال بان الملك الظاهر برقوق قد كلفه بالسعي لدى سلطان تونس لكي يزود ملك مصر بجياد المغرب فقال : ((كاتبت السلطان بتونس يومئذ واخبرته بما عند الملك الظاهر من التشوف الى جياد الخيل ، وخصوصا من المغرب، لما فيها من الشدة والصبر على المتاعب، وكان يقول لي مثل ذلك، وان خيل مصر قصرت بها الراحة والتنعم، عن الصبر على التعب)) (5) .

---

* وابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق ابن تاويت الطنجي ، ص: 55، حيث وردت اشارة الى اهداء سلطان تونس الى ابن الاحمر بغرناطة بعض الخيل .

(1) ـ كان سلاطين الحفصيين والعبد الواديين والمرينيين يهدون الى ملوك مصر خيول المغرب، نظرا لرغبتهم فيها ، حيث كانوا يطلبونها منهم (انظر ابن مرزوق التلمساني : المسند الصحيح الحسن في آثار ومحاسن مولانا أبي الحسن ، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا ، ص: 453، وابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص: 552 ، التعريف بابن خلدون ، ص ص: 337/341 ـ 345 . ومصطفى ابو ضيف : القبائل العربية في المغرب، ص ص: 312/313) .

(2) ـ ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ، ج : 2 ، ص ص: 215 ـ 234 ـ 418/419 .

(3) ـ نفسه : ج : 2 ، ص ص: 418/419 .

(4) ـ المسند الصحيح الحسن ، ص: 453 . اما ابن خلدون ، في كتاب التعريف فيقول بأن عدد الخيول خمسمئة من عتاق الخيل ، (ص: 338) .

(5) ـ التعريف بابن خلدون ، ص: 339 .

ويشير أيضا ابن خلدون الى هدايا سلاطين فاس وتلمسان وتونس للملك برقوق حيث اهداه السلطان المريني خمسة وثلاثين من عتاق الخيل وسلطان تلمسان ثلاثين وسلطان تونس ثلاثين . كما ارفق هؤلاء السلاطين تلك الجياد بهدايا أخرى من نفائس المغرب وطرائفه (1) .

وكل هذا يدل على عناية أهل المغرب بتربية الخيول وتكثيف انتاجها . ومن القبائل التي اشتهرت بتربية الخيل في بلاد المغرب قبائل زناتة والقبائل العربية : هلال واحلافها وسليم (2) . وهذا الادريسي يشير الى القبائل التي لها عناية خاصة بتربية الخيول ، الامر الذي جعلهم مولعين بالفروسية ، ومنهم قبائل تامسنا بالمغرب الاقصى (3) وقبائل زناتة بالمغرب الاوسط ما بين تيهرت والمسيلة حيث يقول : ((وكل هذه القبائل بطون زناتة وهم أصحاب هذه الفحوص وهم قوم رحالة ظواعن ينتجعون من مكان الى مكان غيره لكنهم متحضرون وأكثر زناتة فرسان يركبون الخيل ولهم عادية لا تؤمن)) (4) . كما يشير الادريسي في موضع آخر الى تربية الخيول الجيدة في كل من تيهرت والمسيلة (5) .

ويذكر علي بن موسى بن سعيد المغربي في كتابه ((الجغرافيا)) عمل قبائل زناتة في تربية الخيول وانتاجها : ((وهم زناتة ولهم نتاج في الخيل معروف)) (6) .

اما الوزان فقد اشار عرضا للقبائل التي تملك الخيول في بلاد المغرب كلها (7) وذكر بأن القبائل العربية فيها اسماء ليبيا ونوميديا يملكون عددا وافرا من الخيول التي تسمى

(1) ـ ابن خلدون : التعريف ص ص: 335/346 .
(2) ـ مصطفى ابو ضيف : القبائل العربية في المغرب ص ص: 309/310 .
(3) ـ مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ص ص: 140/141 .
(4) ـ الادريسي : نفسه ص: 158 .
(5) ـ نفسه : ص ص: 155 ـ 157 .
(6) ـ ص : 145 .
(7) ـ وصف افريقيا ج : 1 ص ص: 96ـ97ـ101ـ104ـ110ـ111ـ142 ـ 153ـ 161ـ170ـ347ـ358ـ368ـ369ـ ج : 2 ص ص: 26ـ28 ـ 46 ـ 120 .

في اوروبا بالخيول المغربية (1) .وقد تكثر الخيل وتقل من منطقة الى أخرى حسب اهتمام القبائل بها .ومن الجهات التي تتوافر بها الخيول بكثرة: أديكيس باقليم حاحا ، وتسكذلت بحاحا ، وجبل دمنسرة بحاحا ، وجبل همفتاتة ، ودكالة ، والجبل الاخضر,ما بين دكالة وتادلا ،وجبل آيت واوزكيت، وصحراء كرط ، وجبل بني مراسن ، وجبل مسطاسة ، وجبال زيز ، واقليم بني راشد بالمغرب الاوسط ، وسهل مدينة الجزائر وجبالها .

هذا وقد اشار الى وجود سلالة من الخيل باقليم حاحا بالمغرب الاقصى قصيرة القامة خفيفة الحركة قال عنها : ((وهناك بعض الخيول الا انها قصيرة ، لا تصفح حوافرها ،وهي في غاية الخفة ،بحيث تقفز كالقطط من أعلى الى اسفل)) (2) .

ولعل لهذه السلالة من الخيول روابط ما مع الخيول التي ذكر ابن سعيد بأنها موجودة في الجزء الثاني من الاقليم الاول ببلاد التكرور بافريقيا السوداء . اذ قال عنها أنها خيول قصيرة وغير سابقة (3) .

هـ ـ البقر : تتميز الثروة الحقيقية من الابقار في شمال البلاد، حيث السهول والجبال الخصبة ذات الطقس المعتدل الذى يميل الى البرودة نوعا ما . ومع هذا فلا تخلو المناطق الجنوبية من الابقار أيضا ،الا أن سلالة الابقار في الصحراء، حيث الواحات، تختلف عن سلالة الابقار في الشمال ،وربما استوردت ابقار الصحراء من افريقيا السوداء ،خاصة وان هذه الابقار ما زالت الى الآن تجلب من مالي والنيجر ، فيستفيد منها سكان ادرار ، وتمنراست، وبقية المدن بأقصى الجنوب،ومن العلامات المميزة لابقار الجنوب انها اضعف وأرشق من ابقار الشمال ،كما أن لها قرونا أطول، ولكنها تدر كمية قليلة من الحليب .

فالادريسي أشار الى وجود الابقار بجنوب البلاد ،حين ذكر بأن سكان مدينة نول لمطة وهم من قبائل لمتونة ولمطة يمتلكون البقر والغنم (4) .

---

(1) ـ الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1، ص: 62 .
(2) ـ نفسه :ج : 1، ص: 110 . وذكرها ايضا في الجزء : 1 ،ص: 97 .
(3) ـ ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ص: 91 .
(4) ـ مقتبس من كتاب نزهة المشتاق . ، ص: 127 .

غير أن الوزان يصمت عن ذكر البقر في بلاد الجنوب، بل أنه نفى وجودها في مدينة تشيت الصحراوية، وقال : ((المناشية قليلة، تتكون من الدمان (1) فقط، دون بقر ولاغنم (2) .

ك ـ الشياه والمعز : ربما كانت كثرة الشياه وانتشار تربيتها في المغرب من بين الاسباب التي اضحت قبائل عديدة ببلاد المغرب تنتسب اليها ، اذ تسمى قبائل كثيرة بهذه الديار بالشاوية، لكونهم يرعون الشاء ، فعرفوا بها .

واوطان الشياه في الغالب هي الاقاليم الشمالية غي الريف والجبال ، وكذلك السهوب واطراف الصحراء . وتمتلك القبائل ببلاد المغرب سلالات جيدة من الشياه التي تتميز بجودة صوفها ، وطيب لحومها (3) . فهذا البكري يقول على سبيل المثال عن سلالة غنم سجلماسة بأنها من ارض فارس ، وصوفها في منتهى الجودة وتصنع منه الثياب الرفيعة (4) .

اما اقاصي الصحراء فيها نوع من الشياه يدعى ((دمان)) وهو نوع ما بين الشاء والمعزة فوبره قصيره ويشبه وبر المعز . اما الشكل العام فيقارب شكل الشاء ، وحجمه كبير جدا ، ويقتات بكل شيئ يعترضه ، كان ذلك عشبا ، أو اوراقا ، أو قماشا ، وله قدره وتحمل تام على العطش، وهو صبور على الطقس الحار . ولكن لحمه لا يصل في الطيبة الى ماهو عليه لحوم شياه الشمال ، هذا وقد اشار الوزان الى وجود الدمان بجنوب المغرب (5) .

ويبدو أن الدمان هذا من سلالات الاغنام التي وردت من افريقيا السوداء لأن تلك البلاد مازالت مصدرا رئيسيا لهذه السلالة حتى الآن

(1) ـ انظر ما بعده .
(2) ـ وصف افريقيا ،ج : 2 ، ص: 116 .
(3) ـ ابو ضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص: 315 .
(4) ـ البكري : المغرب ، ص: 147 .
(5) ـ انظر ماقبله .

اما المَعز فاعداده كبيرة ببلاد المغرب شمالا وجنوبا ، وربما فضله سكان هذه الديار لتحمله وعدم تكلفه غذائه ، لانّه يقتات من العشب ، ومن الاشجار بانواعها المختلفة . ومن انواع العلف المفضلة للمعز نوى التمر المكسر الذى يزيدها سمنة ويضاعف من ألبانها (1) . وخلافا للشياء التي لا تتكل روابط شبهيتها الا اذ كان الغذاء جيدا وطريا بالنسبة اليها .

هـ ـ الحميـــــــــر والبغـــــــال : تنتج القبائل المغربية عددا كبيرا من البغال والحمير (2) التي تتميز بصبرها على الاعمال الشاقة . ويقوم الفلاحون من سكان الجبال والمناطق السهبية باستغلال هذه الدواب في الاعمال الفلاحية ، كالحرث ، والسقي ، ونقل المزروعات ، .الخ وعليه فلهذه الحيوانات اهمية اقتصادية معتبرة .

و ـ الطيـــــــــور الداجنـــــــة : واهمها جميعا الدجاج ، والحمام ، والبط ، والاوز وتكثر هذه الانواع في شمال البلاد ، وان وجدت ايضا بجنوبها (3) . ولتقريب الصورة وبلورتها نستعين بما ذكره الوزان بخصوص تربية هذه الطيور وبيعها في اسواق فاس ، حيث يقول : ((لان كل واحد من سكان المدينة يقتني عددا كبيرا من الدجاج يسمنه)) (4) . ثم يقول في موضع آخر ((وبالقرب منهم تجار آخرون يبيعون الطيور التي تؤكل ، والعصافير التي تغنى)) (5) .
ويقول أيضا : ((يهتم كثير من الناس في فاس بالحمام ، ويجدون في العناية به متعة كبيرة ، فيقتنون منه أعدادا كثيرة جميلة الشكل مختلفة الالوان . يعيش هذا الحمام في سطوح المنازل داخل اقفاص تشبه خزائن العطارين . ويفتح هواة الحمام هذه الاقفاص مرتين في اليوم مرة في الصباح ، واخرى في المساء ، ويشعرون بسرور لا حصر له وهم ينظرون الى الحمام يطير ، والذى يستمر طيرانه مدة أطول تكون قيمته عندهم أكثر . وقد يحدث اختلاط حمام قفص مع حمام قفص آخر فيؤدى ذلك أحيانا كثيرة الى خصام بين الهواة وعراك بالايدي . ومن الناس من يقتنون شراكا صغيرا في رأس عصا طويلة يمسكونها بايديهم على سطوحهم فيتصيدون بشراكهم كل ما مر بهم من حمام . وهناك في وسط سوق

(1) ـ الوزان : وصف افريقيا ، ج : 2 ، ص : 120 .
(2) ـ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج : 5 ، ص ص : 113 ـ 176 .
(3) ـ القلقشندى : نفسه ، ج : 5 ، ص ص : 113 ـ 177 .
(4) ـ الوزان : المصدر السابق ، ج : 1 ، ص : 238 .
(5) ـ نفسه ، ج : 1 ، ص : 243 .

الفحامين سبعة دكاكين أو ثمانية يباع فيها هذا الحمام)) . (1)

ز - **الحشرات المفيدة** : من الحشرات التي يعتني بتربيتها سكان المغرب عناية كبيرة النحل، ودود القز. وتكاد المصادر التاريخية والجغرافية تجمع على انتشار تربية النحل في ربوع المغرب كافة (2) ، وخاصة شمال البلاد ، حيث كان منتوجها من العسل بمثابة غذاء أساسي لدى سكان هذه البلاد. كما أن شمعها يعتبر مادة تجارية مربحة. وهذا بالطبع يدل على العناية الكبيرة التي يوليها أهل المغرب لحشرة النحل . وذكر الوزان بأن العسل في بلاد المغرب متنوع منه : الاصفر الذهبي ، ومنه الابيض الفضي (3) .

أما دود القز فيستخرج منه الحرير الذى تصنع منه الاقمشة الرفيعة ذات الاسعار الثمينة . وهكذا فقد انتشرت تربية دود القز في شمال البلاد ، حيث تتواجد أشجار التوت. وقد أشار الى ذلك عدد من المؤرخين والجغرافيين العرب. ومن أهم المناطق التي اشتهرت بتربية دود القز : قابس (4) بافريقية ، وشرشال بالمغرب الاوسط ، وخميس مطغرة بالمغرب الاقصى ، ويذكر الوزان في سياق كلامه عن انتاج دود القز بخميس مطغرة، بأن سبب انتشار هذه الحرفة هو استيطان عدد من أهل غرناطة بتلك الجهات، فنقلوا معهم حرفتهم هذه التي اشتهروا بها ، حيث زرعوا اشجار التوت الابيض التي خصصت لتربية دود القز (5) .

---

(1) الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص: 259 .

(2) - انظر البكرى : المغرب ، ص ص: 5-32-55-158-162 . والادريسي : مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، ص ص: 159-166-169-172-192 . والوزان : المصدر السابق ، ج : 1 ، ص ص: 96-110-112-121-138-140-154-167-205-217-320-341-344 ، ج : 2 ، ص ص: 14-15-26-36-54-104 .

(3) - الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص: 167 .

(4) - البكرى : المغرب ، ج ص: 17 .

(5) - الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص: 217 .

وجملة القول فان موضوع تربية الحيوانات بالمغرب الاسلامي يختلف عن فلاحة الارض وزراعتها في المنظور القبلـــــي .

ففيما يخص تربية الحيوانات ورعيها .. فان العصبية القبلية تظهر بمظهر ايجابي خلافا للنشاط الفلاحي . أن قبائل البادية تخص حيواناتها بعناية كبيرة . كما أن رعي الحيوانات لا يضير البدوي في شيء لأنه لا يرى في السهر على الحيوانات ورعيها منقصة كما هي الحال في الاعمال الزراعية .

لذا فقد عرفت بوادي المغرب الاسلامي (ريفا وصحراء) ازدهارا ملحوظا من حيث الثروة الحيوانية التي كانت مصدر عيش لا ينضب لسكان هذه البلاد . كما كانت الحيوانات في هذه الديار سلعة رائجة تصدر نحو بـــلاد أخرى كالاندلس ومصر وغيرها .

ومن علامات نمو الثروة الحيوانية ببلاد المغرب وكثرة انتاجهـــا ان المؤرخين والجغرافيين كانوا يشيدون برخاء اللحوم وتوافرها بكثرة فـــي هذه الربوع . فهذا الادريسي على سبيل المثال ينوه برخص أثمان اللحوم وكثرتها في عدد كبير من البقاع ببلاد المغرب (1) . وكذا الحال بالنسبة للوزان الذي يعترف مرارا بتوافر اللحوم والحيوانات باماكن عديدة بهذه الديار ايضا (2) . وان كان يشير أيضا للفقر الذي يسود بقاعا أخرى من تلك الربوع . (3) .

وجملة القول هنا أن أثر القبلية على الثروة الحيوانية والنشاط الاقتصادي من خلالها كان ايجابيا ويستحق التنويه . خاصة عندما يتضح بأن تربيـــة الحيوانات كانت متمركزة بالارياف والقفار . فالبدو هنا شاركوا في التميـــز الاقتصادية لبلاد المغرب تبعا لحبهم للحيوانات وارتباط معاشهم بها (4) .

---

(1) ــ الوزان : وصف افريقيا ص ص: 142ـ148ـ150ـ153ـ156ـ157ـ 159ـ160ـ162ـ163ـ184ـ195 .

(2) نفسه ج : 1 ص ص: 62ـ77ـ120ـ122ـ143ـ155ـ163ـ168ـ 200ـ207ـ308ـ339ـ344ـ347ـ356ـ360 . ج : 2 ص ص: 26ـ 29ـ46ـ62ـ101 .

(3) ــ نفسه ج : 1 ص ص: 58ـ63ـ65ـ88ـ175ـ188ـ196ـ277ـ 298ـ329ـ330ـ331ـ337ـ338ـ359ـ370 . ج : 2 ص ص: 15ـ 32ـ43ـ52ـ66ـ67ـ70ـ78ـ83ـ84ـ91ـ92ـ96ـ98ـ108ـ 112ـ116ـ122ـ130ـ131ـ133ـ140ـ144ـ145 .

(4) ــ مصطفى ابو ضيف : القبائل العربية في المغرب : ص ص: 309/316 .

بل كانت للحيوانات تأثيرات كبيرة على سلوك أعضاء القبائل ،حيث رسمت تلك الحيوانات شكل حياتهم فتبعًا لتعلق فئة منهم بالجمال سايروها في طبيعتها التي تأبى الطقس البارد ،وتبحث عن الدفء والمياه المالحة ،وأشواك الصحراء .

كما أن رعاة الشياه تتبعوها ،فاختاروا الانتقال والرحلة خلفها منتجعين السهوب واطراف الصحراء . اما الذين اختاروا الابقار فقد كانوا أقل نجعة من غيرهم ، تبعا لطبيعة الابقار التي تتطلب مراع خصبة ومياها غزيرة ،فكان أفضل مراعيها هي السهول والجبال حيث العشب الكثيف ذو الطراوة والنماء .

وبالطبع فان الاشتغال في تربية النحل ودود القز يستلزم استقرارا وثباتا شبيها بالاستقرار الذى يتطلبه العمل الفلاحي بشكل عام ،وعليه فقد اختلف شكل حياة البدو ،وتبعا لاختلاف النشاط الاقتصادى المعتمد من قبلهم . ذلك النشاط الذى يبرز أكثر من خلال نوع الحيوان الذى تمتلكه كل فئة من الفئات البدوية .

(3) - الصيد :

المقصود هنا هو الصيد الذى له طابع اقتصادى ،حيث يستثنى في هذا المجال النشاط الذى يهدف الى اشباع بعض الرغبات الترفيهية التي ينزع اليها السلاطين والاعيان الذين يخرجون الى الصيد والقنص مستعينين في ذلك ببعض الطيور الجارحة والكلاب وغيرها ...

أما الصيد الذى يستهدف تحقيق حاجات اقتصادية فيقوم به أعضاء القبائل المنتشرة في ربوع المغرب كلها ، جنوبا وشمالا . ويستغل انتاج هذا النشاط في التجارة ، وفي اشباع الحاجة للطعام . وعليه فان نشاط الصيد يتفرع الى نوعين: صيد البر ، وصيد البحر .

فصيد البر تتعاطاه قبائل المغرب كلها تقريبا ،حيث يلجأ عدد كبير منهم الى اصطياد ما في الطبيعة من طير ، وحيوان ، وحشرات ، تؤكل لحومها وتستغل جلودها وريشها في أغراض مختلفة من ذلك - وكمثال - الاسود التي يصطادها

سكان قرية الكسيس بالمغرب الاقصى. وفي ذلك يقول الادريسي : ((وبهذه القرية المسماة أكسيس بيت متخذ لصيد الاسود ، حتى أنه ربما صيد منها في الجمعة الثلاثة والاربعة ، والاكثر من ذلك والاقل . والاسود تفر من النار اذا رأتها ، ولا سبيل لها على صاحب نار)) (1) . وبالطبع فحيث توجد الاسود يوجد صائدوها ، وثمة أمثلة عديدة عن هذا النشاط الذى يتعاطاه عدد لا بأس به من سكان المغرب كافة (2) .

ويقوم أهل المغرب أيضا ـ وخاصة سكان السهوب ـ باصطياد طير النعام الذى يقول الادريسي بأنهم يصطادونه بواسطة الخيل (3) . حيث يأكلون لحومها على الرغم من رداءة طعمها ، خاصة لحم الفخذ اللزج (4) . هذا بالاضافة الى الفائدة التي تأتيهم من بيع بيضها وريشها . لأن بيضها وشحمها ، ونخاع عظامها تستعمل في علاج أمراض عديدة (5) ويسمى نتاج بيضها ، وعظامها ، وشحمها ((بزهم النعام (6))) أما ريشها فيستعمل في صنع الافرشة ، والوسائد الوشيرة .

ومن الحيوانات التي يهتم الناس باصطيادها في بعض الجهات من بلاد المغرب السلاحف البرية ، ومنها السلاحف ذات الحجم الكبير التي ذكرها الادريسي عند تعرضه لقبائل كزولة ولمطة وصدارته التي تسكن الفحص الممتد ما بين مراكش وسلا ، حيث قال عنه : ((وفيه السلاحف البرية التي تفوق السلاحف البحرية كبرا وعظما ، و أهل تلك النواحي يتخذون من جلودها دساتي للغسل ، ومعاجن لدقيق الحنطة وغيره)) (7) .

---

(1) ـ نزهة المشتاق ، ص: 141 .

(2) ـ أنظر الادريسي : نزهة المشتاق ، ص: 140 ـ 141 . والوزان : وصف افريقيا ، ج 1 ، ص: 103 ـ 186 ـ 204 ـ 210 ـ 213 ـ 290 ـ 300 ـ 302 ـ 309 ـ 363 ـ 365 ـ 367 .

(3) ـ نزهة المشتاق ، ص: 141 .

(4) ـ الوزان : وصف افريقيا ، ج : 2 ، ص: 116 ـ 120 ـ 129 ـ 136 .

(5) ـ الادريسي : نزهة المشتاق ، ص: 141 .

(6) ـ جاء في لسان العرب : ((زهم : الزهومة : ريح لحم سمين منتن ، . . . والزهيم : السمين . . . والشحم يسمى زهما اذا كان فيه زهومة مثل لحم الوحش . . . وخص بعضهم به شحم النعام والخيل)) (ج : 2 ، ص: 58) .

(7) ـ الادريسي : نفسه ، ص: 139 .

وقد ذكر البكري في كتابه بأن قبائل الصحراء تقوم باصطياد ((الفنك الجيد)) (1) كما أشار الى تواجد طائر الكيكل المعروف في مصر بالحسواس ، وذلك في بحيرة بالقرب من مدينة بونة ، وهذا الطائر كما قال تصنع ((من جلده الفراء ، ويباع بالاثمان الغالية)) (2) .

وضمن الفقرات التي درس فيها الوزان عادات القبائل الصحراوية قال عنهم : ((يقضي هؤلاء الرحالة حياتهم كلها حتى الموت في الصيد واختطاف جمال اعدائهم)) (3) . ثم يقول عن الاعراب في بلاد المغرب : ((ويخرج هؤلاء العرب دائما لصيد الغزال ، وحمار الوحش ، والنعام ، واللمط (4) ، والمها ، وغيرها من الوحش)) (5) . ثم يتحدث عن عملية صيدٍ وقنصٍ شارَكَ فيها ، رفقة السلطان محمد الشيخ الوطاسي سنة 921 هـ/1515 م في الجبل الاخضر ما بين دكالة وتادلا فقال : ((وفي غداة الغد قرر الملك أن يصطاد في الغابة المحيطة بالبحيرة ، فاستعمل في ذلك الكلاب والصقور التي يملك عددا كبيرا منها ، وقد أصطيد الاوز الوحشي ، والبط ، وطير الماء ، والحمام . وفي اليوم التالي كان صيد آخر بالكلاب السلوقية والصقور ، والبيزان ، فاصطيد كميات هائلة من الارانب ، والايول ، والضربان ، واليحمور (6) ، والذئاب ، والحجل)) (7) .

==============================

(1) ـ المغرب ، ص: 21 . والفنك حيوان من فصيلة الكلبيات اذناه طويلتان ، ولا يتجاوز طوله 40 سم ، وفراء ذنبه ثمين للغاية .

(2) ـ نفسه ، ص: 58 .

(3) ـ الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص: 58/69 .

(4) ـ حيوان شبيه بالغزال وان كان اغلظ منه ، وله قدرة كبيرة على تحمل العطش ، يصنعون من جلوده الدرق اللمطية ذات الشهرة الواسعة (انظر البكري : المغرب ، ص: 159 . وابن سعيد : الجغرافيا ، ص: 112/113) .

(5) ـ وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص: 62 . وفي موضع آخر يقول : ((وفي الربيع يتسلون بالصيد بالكلاب . والصقور ، يصيدون جميع انواع الحيوانات ذات الشعر أو الريش)) . (نفسه ، ج : 1 ، ص: 63) .

(6) ـ الوزان : نفسه ، ج : 1 ، ص: 162 . ثم يصف مشهد الحمام في البحيرة فيقول : ((ويوجد على ضفاف هذه البحيرة كمية كبيرة من اشجار تشبه الصنوبر ، يعيش بين أغصانها عدد لا يحصى من الحمام . . . كانت تباع ست حمامات منها بأبخس الاثمان)) (نفسه ، ج : 1 ، ص: 161) .

(7) ـ اليحمور حيوان بري يشبه العنزة أو طائر ، أو حمار الوحش (انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج : 1 ، ص: 716) .

وفي موضع آخر يشير الى عملية صيد الطيور بواسطة الفخاخ ،حيث يتم اصطياد عدد كبير من اليمام (1) .

وهكذا تساعد هذه النصوص على معرفة الحيوانات التي كانت تستعمل في عملية الصيد ،كما تعرف ايضا ببعض الحيوانات التي يتم اصطيادها آنئذ في بلاد المغرب .

والى جانب عمليات الصيد البرى يقوم اعضاء القبائل في المغرب الاسلامي باحتراف الصيد البحرى ايضا . والامثلة على هذا كثيرة ، منها ما ذكره البكرى الذى تعرض لاسماء بعض انواع السمك المصطاد في ساحل مدينة تونس/من ذلك : المبائق ، والاكتوبرى ، والاشبارس والمنكوس، والبقونس(2) . كما يشيد البكرى ايضا بسمك درنة/من نوع البورى الذى قال بأنه كان يحمل الى عبيد الله الشيعي محفوظا في العسل (3) . وعند حديثه عن مدينة بنزرت يذكر بانها كثيرة السمك ، ويقول ان بحيرتها التي تتصل بالبحر من جهة واحدة يتواجد بها في كل شهر نوع معين من انواع السمك ولايكون الا في الشهر المخصص له ثم يقول : ((وهوان الصياد فيه اذا اتاه التجار لشراء الحوت يقول لهم على أى شيء ارسل شبكتي فيتفق معهم على عدة معلومة ، فيأتي الصياد بحوت يقال أنه أنثى الصنف المعروف بالبورى فيرسلها في البحيرة ثم يتبعها بشبكته ،فيخرج العدة التي اتفقوا عليها)) (4) . ثم يشير ايضا الى السمك الجيد والوفير في ساحل بونة والبحيرة القريبة منها (5) . بالاضافة الى المرجان الذى يصطادونه في مرسى الخرز (6) . وفي موضع آخر يصف السمك

---

(1) ــ الوزان : وصف افريقيا ،ج :1ص:305 .
(2) ــ البكرى : المغرب ،ص: 41 .
(3) ــ نفسه ، ص:57 .
(4) ــ نفسه ، ص:58 .
(5) ــ نفسه ، ص:55ــ58 .
(6) ــ نفسه ، ص:55 .

المعروف بسمك موسى فيقول : ((وفي ذلك الموضع خاصة (مرسى بليونش قرب طنجة) دون غيره حوت ينتسب الى موسى عرضه مقدار ثلثي شبر ، وطوله اكثر من شبر ، لحمه في احد جانبيه ، والجانب الآخر لا لحم فيه انما جلدته على الشوك ، ولحمه طيب نافع من الحصاة)) (1) .

اما الادريسي فيشير الى سمك مدينة سلا المتنوع الجيد الطعم والذى يباع بابخس الاثمان (2) . وكذا سمك النهر الذى يخترق مدينة المسيلة الذى يصطادون منه الشيء الكثير، وينقل الى قلعة بني حماد (3) ثم يذكر سمك مدينة جيجل الوافر العدد ، والمتناهي في الطيبة(4) . ويشير ايضا الى قرية جون هوز بالقرب من شرشال التي يعمل سكانها في الصيد (5) . ثم مدينة قابس التي يصطاد سكانها السمك بواسطة الزروب المنصوبة في مياه البحر الضحلة مستعملين في ذلك حيلا عديدة (6) . ثم يسهب في شرح طرق صيد السمك ببنزرت حيث يقول : ((وذلك ان بها اثنى عشر نوعا من السمك ، يوجد منها في كل شهر نوع واحد ، لا يمتزج بغيره من اصناف السمك . فاذا تم الشهر لم يوجد شيء من ذلك النوع في الشهر الآتي .... لكل شهر نوع من السمك لا يمتزج بسمك غيره الى كمال السنة ... وهذه الاثناعشر نوعا من الحوت التي ذكرناها هي : البورى ، والقاجوج ، والمحل ، والطلنط ، والاشبليناليات ، والشلبة ، والقاروض ، واللاج ، والجوجة ، والكحلا ، والطنفلو ، والقلا)) (7) . وفي برساحل مدينة مرسى الخرز يتواجد المرجان ذو الجودة العالية بكثرة ويسر (8) .

(1) ـ البكرى : المغرب ، ص: 106 .
(2) ـ الادريسي : نزهة المشتاق ، ص: 142 .
(3) ـ نفسه ، ص: 156 .
(4) ـ نفسه : ص: 169 .
(5) ـ نفسه : ص: 173 .
(6) ـ نفسه : ص: 181 .
(7) ـ نفسه :ص : 189 .
(8) ـ نفسه : ص : 190 .

اما ابن سعيد فيتكلم عن اسراب سمك التن الذى يصطاده سكان السواحل من بر العدوة والاندلس،حيث يجففونه ثم يصدر لكي يباع باغلى الاثمان (1) . ويذكر أن مصب نهر المعمورة بالمغرب الاقصى يحتوى على نوع من السمك ينتج عن اختلاط الماء المالح بالحلو – في غاية الطيبة يعرف بالسائل ، حيث يسوق الى اقطار أخرى (2) . ثم يشير الى سمك بنزرت (3) . كما جاء في كتاب البكرى .

أما الحسن الوزان فهو الآخر قد تكلم عن صيد البحر،والصيادين في البحار المغربية بدقة واسهاب،حيث يقول عندما تكلم عن مدينة أزمور ونهر أم الربيع: ((ويدر النهر على هذه المدينة سنويا كرسوم على صيد سمك الشابل من ستة آلاف الى سبعة آلاف مثقال . ويبتدئ موسم الصيد في اكتوبر،وينتهي في آخر أبريل . والشابل هنا كثير جدا ،وهو يحوى من الشحم اكثر مما يحويه من اللحم ، حتى أنه يكفي لقليه اليسير جدا من الزيت،لأن السمكة لا تكاد تحس بحرارة النار حتى يخرج منها اكثر من رطل ونصف رطل من الدهن الذى يشبه الزيت، وهم يستصبحون به لأنه لا يوجد زيت في هذه البلاد)) (4) . ويذكر بعض انواع السمك المتواجد في بحيرة بالجبل الاخضر بالمغرب الاقصى ، من ذلك : سمك النون (الانقليس) والبرغان الاحمر،والبورى (الزنجور) (5) .

---

(1) – ابن سعيد : الجغرافيا ، ص: 111.
(2) – نفسه : ص: 138.
(3) – نفسه : ص: 143.
(4) – الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص: 157.
(5) – نفسه : ج : 1 ، ص: 160 . ثم يصف احدى الطرق الصيد في بحيرة الجبل الاخضر بالمغرب الاقصى بقوله : ((وهي أنهم خاطوا اعناق واكمام بعض القمصان ،وتروا أسفلها بقضبان ثم أنزلوها الى اسفل البحيرة . وبهذه الطريقة أخذوا كثيرا من السمك، ولا تسأل عما يحصل عليه ذوو الشباك من كميات عظيمة من الحيتان)) (نفسه ، ج : 1 ، ص: 161) .

كما ذكر بأن المستنقعات والبحيرات المتواجدة في نواحي العرائش والقصر الكبير تحتوي على اعداد كبيرة من سمك النون (الانقليس) (1). وذكر بأن سكان ترغة بالمغرب الاقصى يحترفون مهنة صيد السمك، حيث يملحونه ويبيعونه للتجار (2). كما وصف سكان ساحل بادس بأنهم اما صيادون أو قراصنة، وقال بأن قوتهم وطعامهم لا يكون الا خبز الشعير والاسماك، وخاصة السردين (3). وفي المغرب الاوسط اشار الوزان الى دلس كمركز لاصطياد السمك بواسطة الشباك، غير أنه ذكر بأن الكميات الهائلة التي يصطادها الناس هناك لا تباع ولا تشترى (4). وقال عن ساحل بنزرت وبحيرتها بأنها تنتج كميات كبيرة من السمك، ويخص منها بالذكر: سمك المرجان الذي يتراوح وزن الواحدة بين خمسة وستة أرطال، وكذلك السمك الذي يسمى في تلك الديار بالزرافة (الشابل). ثم يقدم تفسيرا معقولا بخصوص بحيرة بنزرت اذ يقول: ((وذلك لأن ماء البحيرة يعود أكثر عذوبة عند ما ينزل المطر، فيدخل اذ ذاك السمك اليها، بالاضافة الى أن البحيرة قليلة العمق. ويستمر الصيد حتى أوائل ماي، ثم يهاجر السمك، كما يهاجر السمك الذي يصاد في النهر الجاري بقرب فاس)) (5).

هذا ويشير الوزان الى مناطق عديدة يحترف سكانها حرفة صيد الاسماك، لا داعي لذكرها كلها في هذا المجال. غير أن الاشارة لما جاء به بخصوص ساحل ماسة له أهمية خاصة. وذلك أنه ذكر بأن ذلك الساحل يحتوي على انواع من الحوت الكبير جدا المسمى بالبلين. ويقول بأن سقف

(1) ـ الوزان: وصف افريقيا، ص ص: 302/303.
(2) ـ نفسه: ج: 1، ص: 325.
(3) ـ نفسه: ج: 1، ص ص: 325/326.
(4) ـ نفسه: ج: 2، ص: 42.
(5) ـ نفسه: ج: 2، ص: 68.

أحد المساجد بتلك الجهات مقام على عوارض من عظام ذلك الحوت. وقال بأنه شاهد بنفسه عددا من هذا الحوت المفزع يقذف به البحر الى البر بعد موته، وربما يكون سبب موته الصخور البحرية التي يصطدم بها بفعل الامواج . كما قال بأنه مر تحت عظم من عظامه ـ وكان آنئذ راكبا جملا ـ دون أن يمس العظم رأسه، وكان على شكل قوس . وذكر الوزان بأن شواطئ تلك الديار تحتوي على العنبر الجيد ، ولكنه يباع بابخس الاثمان، ويعتقد بعضهم بأنه ذلك الحوت الضخم هو مصدر هذا العنبر فقد يكون مما يفرزه (1) .

اذن فحرفة الصيد البري والبحري كانت منتشرة في المجتمعات الريفية والصحراوية، بل وتعتبر هذه الحرفة موردا هاما من موارد الرزق والاقتصاد . وكان العمل بحرفتي : الرعي والصيد مقبولا لدى الاوساط القبلية، على خلاف العمل في الفلاحة المنبوذ لديهم .

وهكذا يتضح بأن الاثر هنا ايجابي ، فالقبلية ساعدت على ازدهار تربية الحيوانات ، كما ساعدت على تنشيط عمليات الصيد واستمارها وتسويق منتوجاتها . حتى ان كل ما دب في الصحراء يدخل في عداد الثروة الحيوانية التي تخضع لقانون الصيد ، من ذلك الجراد (2) . والافاعي (3) . والجرذان (4) . الخ .

---

(1) ـ الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص ص: 114/115 .
(2) ـ الادريسي : نزهة المشتاق ص ص: 131 ـ 138 . الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ص: 105 .
(3) ـ ابن سعيد : الجغرافيا ، ص: 112 . الادريسي : نزهة المشتاق ص ص : 92 ـ 93 .
(4) ـ الادريسي : نزهة المشتاق ، ص: 129 .

وعليه فمن الواجب التنويه - هنا - بالثروة الحيوانية الزاخرة بها بلاد المغرب كافة، سواء منها الداجنة أو المتوحشة، لذا فان هذه البلاد كانت مسرحا هاما للصيد والقنص طوال العصور التاريخية ، بحكم أن الصيد يعتبر كمورد من الموارد الاقتصادية الهامة آنئذ ، خاصة في الاوساط القبلية ،لأن النظام القبلي ظل سائدا في تلك الربوع ، والقبلية - بالطبع - مرحلة من مراحل المسيرة الحضارية الانسانية . وهي بذلك لا تخرج عن كونها مرحلة مازالت تعتمد على حياة الصيد والقنص ، الى جانب جمع الثمار ،ورعي الحيوانات الاليفة .

(4) - التجارة :

لا سبيل الى نكران ما للعامل التجارى من أهمية ضمن المنظومة الاقتصادية ببلاد المغرب الاسلامي . وقد زاد من أهمية النشاط التجارى بهذه الديار أنها كانت همزة وصل بين بلاد السودان واوروبا ،تساعد على تبادل السلع بين الطرفين ، بالاضافة الى ترويج وتسويق السلع المحلية المنتجة ببلاد المغرب ، وبيع السلع الواردة من الخارج في الاسواق المغربية .

والعاملون في الحقل التجارى بهذه الديار ينتمون الى فئات اجتماعية متباينة ، منهم : المسلمون ، وأهل الذمة ، ومنهم أهل الحضر وأهل البادية (ريف وصحراء) . والذى

يدخل في اختصاص هذا البحث هم اعضاء القبائل من أهل الريف والصحراء . ودورهم هنـــا اما أن يكون انتاجيا ، وذلك بانتاج سلع معينة ونقلها الى المدينة ، أو امنيا ، وذلك بواسطة حماية القوافل المارة في المفازات ، والمناطق غير الآمنة .

وعليه فان الاثر الذى تخلفه العصبية القبلية على النشاط التجارى ذو حدين أثنيــن : الحد الاول ايجابي ، حيث كانت القبائل ــ من خلاله ــ احدى وسائل الاتصال والحماية بين طرفين : البائع والمشترى . اذ كانت تلك القبائل تزود القوافل التجارية بما يلزمها من رجال وجمال يسيرون ضمن القوافل ، حيث الاسواق المصدرة والمستوردة . وبذلك اضحت القبائل بمثابة القوة الحامية للقوافل التجارية ضد اطماع الاخرين .

اما الحد الثاني فهو سلبي . وذلك عندما تصبح القبائل مصدر فساد ونهب ، اما بواسطة السرقة والاغتصاب ، او بواسطة الابتزاز وفرض ضرائب قاسية على القوافل التجارية . عندها ستكسد الاسواق وتضعف الحركة التجارية بتوقف القوافل عن تنقلاتها عبر الاسواق .

ويمكن من خلال هذا البحث ــ الاكتفاء بدراسة ثلاثة نقاط بارزة توضح الصورة العامــة للحركة التجارية ببلاد المغرب ، والاثر الذى يتركه المجتمع القبلي في هذا النشاط الاقتصادى . وتلك النقاط هي : الاسواق والسلع ، والمسالك .

(1) ــ الاسواق والمعـــــامـــلات :

لكل مدينة ببلاد المغرب سوق تعقد يوميا ، وتختلف أهمية الاسواق حسب أهمية المدن واتساع النشاط الاقتصادى بها . والى جانب الاسواق التي تزخر بها المدن ثمة اسواق تقام بالقرى والارياف واسواق اخرى تعقد في المناطق الصحراوية . ومنها مايقام مرة في الاسبوع ، ومنها ما يعقد مرة كل فصل ، أو مرة كل سنة ، تبعا لتقارب المسافات ، وبعدها عن المتسوقين والبائعين . اذ كلمـــا توغل الانسان في اعماق الصحراء كلما ندرت الاسواق الاسبوعية وقلت ، وظهرت بدلا منها الاسواق السنوية أو الفصلية لان القبائل في تلك الديار تبتعد في رحلتها بحيث يتعذر عليها العودة الـــى السوق ، وعليه فقد اكتفوا بزيارة كل سوق مرة في السنة . وهنا يظهر الاثر الذى تخلفه القبليـــة برحلتها وسذاجتها على الاسواق . فالاسواق بالمدن تكون يومية وتزخر بالسلع على اختلافها وانواعها .

وكلما صغرت المدينة وقلت حضارتها كلما هزلت سوقها وبعدت مدة قيامها . فبحكم اكتفاء أهل البادية بالضروري، اكتفوا بالاسواق التي تعقد اسبوعيا. والتي يعرض بها الضروري من السلع فقط وكلما اشتدت البداوة قلت الحاجة الى الاسواق ، حتى أضحت تعقد سنويا . والمصادر التاريخية تذكر في طيا تها الاسواق على اختلاف اشكالها ببلاد المغرب. فهذا البكري لا يترك فرصة الا ويتكلم عن الحركة التجارية والاسواق التي تعقد بالمدن والقرى التي يصفها (1) .

وكمثال عن الاسواق الاسبوعية ذكر البكري سوق بني مغراوة ببلاد غمارة التي تعقد يوم الثلاثاء (2) ، وسوق قرية نصر بن جرير بالقرب من سبتة التي تعقد يوم الجمعة (3) . وكذلك سوق اغمات وريكة التي تقام يوم الاحد من كل اسبوع (4). اما الاسواق السنوية فقد اشار الى احداها ، وهي السوق التي كانت تعقد في الموضع الذى بنيت فيه سجلماسة (5) هذا بالاضافة الى ذلك تكلم ايضا على الاسواق التي تقام فصليا (6) . وقد تعرضه لوادى درعة قال بان ذلك الوادى تمتد عمارته سبعة ايام . وفي كل يوم تقام سوق بموضع ما على طول الوادى ، وربما عقدت سوقان في اليوم الواحد في موضعين مختلفين (7) .

---

(1)ـ انظر كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص: 6ـ7ـ9ـ11ـ12ـ14ـ17ـ20ـ29ـ34ـ47ـ49ـ54ـ55ـ56ـ59ـ60ـ61ـ63ـ64ـ65ـ66ـ68ـ69ـ71ـ72ـ74ـ75ـ76ـ77ـ80ـ83ـ87ـ92ـ107ـ108ـ109ـ110ـ111ـ112ـ114ـ142ـ143ـ145ـ147ـ149ـ152ـ153ـ155ـ158ـ159ـ160ـ161ـ162ـ163ـ

(2)ـ المغرب، ص: 107 .

(3)ـ نفسه ، ص: 108 .

(4)ـ نفسه، ص: 153 .

(5)ـ وفي ذلك يقول البكري ، ((وموضع سجلماسة اذ ذاك براح، يجتمع فيه البربر وقتا ما من السنة يتسوقون)) . (المغرب، ص: 149) .

(6)ـ قال البكري في ذلك: ((فاتخذ الناس موضع اصيلة رباطا ، فانتابوه من جميع الامصار . وكانت تقوم فيه سوق جامعة ثلاث مرات في السنة ، وهو وقت اجتماعهم ، وذلك في شهر رمضان،وفي عشر ذى الحجة ، وفي عاشوراء ، وكان الموضع ملكا للواتة)) (المغرب، ص: 112) .

(7)ـ المغرب، ص: 152 .

وتعرض الادريسى أيضا للاسواق ببلاد المغرب والحركة التجارية التى تقوم بها القبائل بفضل تلك الاسواق من ذلك السوق القديمة (1) بديار مكناسة ، وسوق ريغة التى تعقد كل جمعة . وسوق بنى زندوى التى تقام يوم الجمعة أيضا (2).

أما الحسن الوزان فكان أكثر دقة وأوسع فكرة ، حيث عالج موضوع الاسواق ببلاد المغرب بوضوح وتفصيل . فالى جانب الاسواق اليومية المقامة فى المدن والامصار بدكاكينها ومتاجرها تعقد فى البوادى والقرى اسواق اسبوعية (3) ، وسنوية . وعن هذه الاخيرة يقول الوزان عندما تكلم عن اديسكيس فى ناحية حاحا : ((ويقيمون كل سنة سوقا يجتمع فيها جميع سكان الجبال المجاورة الذين هم اشبه بالوحوش منهم بالبشر ... وتستمر خمسة عشرة يوما)) (4) وفى موضع آخر عن السوق التى تعقد فى النخيلة بجهات تامسنا ((وتقام بها كل سنة سوق يشد اليها الرحال جميع أهل تامسنا)) (5) . كما ذكر الوزان أيضا بأن بعض الاسواق تعقد مرتين فى الاسبوع . واورد أيضا خبرا عن سوق تعقد لمدة شهرين دون انقطاع فى ظل قبيلة كزولة ، حيث تسهر هذه القبيلة على أمن وضيافة التجار الغرباء . وتذكر هذه السوق بالاسواق التى كانت تعقد فى الجزيرة العربية كعكاظ وغيره (7) .

---

(1) ـ وعن السوق القديمة التابعة لبعض أحياء مكناسة يقول : ((وفى شمال قصر أبى موسى سوق يقصد اليها فى كل يوم خميس ، يجتمع اليه جميع قبائل بنى مكناس ، وهى سوق نافقة لما جلب اليها ويقصد اليها من بعيد وقريب ، وتسمى السوق القديمة)) (الادريسى : نزهة المشتاق ، ص : 147) .

(2) ـ الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ص : 147ـ155ـ168 .

(3) ـ الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص ص : 119ـ215ـ305ـ320ـ330ـ331ـ332 . ج : 2 ، ص ص : 46ـ62ـ103ـ117 .

(4) ـ نفسه ، ج : 1 ، ص : 101 .

(5) ـ نفسه ، ج : 1 ، ص ص : 198/199 .

(6) ـ نفسه ، ج : 1 ، ص ص : 120 .

(7) ـ تقام هذه السوق فى اقليم كزولة ، ويصفها الوزان بقوله : ((وتقام فى بلادهم سوق تستمر شهرين يقدم فيهما الطعام لجميع الغرباء الذين =

وطبعا . . . فهذه الاسواق المذكورة لاتدخل في عداد الاسواق القائمة يوميا ضمن المدن والامصار . وحتى لو كانت اسواق المدن تخضع هي الأخرى للمعاملات التجارية مع القبائل بالارياف ،الا أن اسواق البادية تبدو أكثر التصاقا بحياة السكان في تلك الربوع ،وهي أكثر خضوعا من اسواق المدن للعادات القبلية وأعراب البادية. وهكذا تعبر الأسواق المقامة في البوادي ضمن اوساط قبلية ساذجة، على تلك الروح البسيطة المتميزة بها القبلية . فالاسواق في هذه الحال تختلف عما هي عليه فـــي المدن ،حيث الحركة التجارية الواسعة ،وحيث اصناف السلع المتنوعة الاثمـــان والمختلفة الاشكال. واسواق البادية الخاضعة للقبائل تكون اقل تنظيما،وابعد عـن الاختصاص الذي تتميز به اسواق المدن التي تصنف الى اقسام حسب السلع والاعمال .

أما المعاملات التجارية في اسواق البادية فلا يمكن أن تصل الى المستوى الجيد الذي تعرفه المعاملات في المدن ،لأن الحضارة تضفي طابعها على اسواق وتجـار المدن ،من حنكة ، وكياسة ،ولباقة ، وخبرة واسعة لدى تجار المدن ، وسعـــة وتفنن وتنويع في السلع باسواقها .

= يوجدون هناك ولوبلغ عددهم عشرة آلاف . وعندما يقترب يوم السوق تعقد هدنة ، ويختار رئيس كل جماعة قائدا ومائة من الرجالة للقيام بالحراسة والمحافظة على الامن في السوق،يقوم هذا الجيش الوقتي بالحراسة ،ويعاقب الجناة بحسب أهمية جرائمهم. يقتل السارقون على الفور فيطعنون برمح قصير ،وتترك أشلائهم للكلاب. تعقد هذه السوق في سهل يكتنفه جبلان ،ويضع التجار بضائعهم في خيام أو أكواخ صغيرة مـن أغصان الاشجار،ويجتمعون بحسب اصناف بضائعهم ،كل صنف على حدة ، بحيـث تجد هنا تجار النسيج ،وهناك تجار الاقمشة والخردوات وهكذا . أما تجـــار الماشية فيكونون خارج الخيام . وبجانب كل خيمة كوخ من أغصان الشجر،وفي هذه الاكواخ يقيم الاعيان ،ويقدم الطعام للغرباء . ورغم النفقات الكثيرة التي ينفقها أهل السوق فان بيع البضائع يدر عليهم مبالغ النفقات مضاعفة مرتين ،لأن سكان الناحيـة كلها يأتون الى هذه السوق بل وحتى سكان بلاد السودان ، فيقومون باعمـــال تجارية مهمة،واخيرا فان الكزوليين ذوي العقول البدائية عرفوا بحق كيف ينظمـون بطريقة عجيبة سوقهم من ناحية الطمأنينة والأمن . يبتدئ السوق يوم المولد النبوي . . . وقد ذهبت الى هذه مع الامير الشريف((السعدي) واقمت فيه خمسة عشـر يوما للنزهة سنة 920هـ)) (وصف افريقيا ، ج :1 ،ص : 146/145) .

أما فى اسواق الريف و الصحراء فيكون التاجر فيها أقل كياسة وتملقا (1) ،عما هو عليه تاجر المدينة . ويكون تاجر البادية أيضا أقل خبرة عن تاجر المدينة . وتكون اثمان السلع فى اسواق البادية ارخص من اثمان الاسواق بالمدن ،بسبب انعدام المكوس فى هذه الاسواق (2) ، وبسبب اقتصارها على الضرورى من السلع التى تتوافر اغلبها فى تلك الربوع كالمواد الغذائية (3) والملابس ،وبعض التجهيزات المنزلية البسيطة التى لاتستدعى مجهودا كبيرا فى نقلها من جهات بعيدة . كما أن المبايعة بواسطة المقايضة (4) فى اسواق البادية أعم وأشمل منها فى اسواق المدن التى يفضل اصحابها الدينار والدرهم .

وقد تؤثر العصبية حتى على روح التعامل التجارى ،حيث يتكاتف التجار المنتمون لقبيلة ما فيتفقون على اسلوب معين يجبرون به المتعاملين معهم على

---

(1) ــ خصص ابن خلدون فى مقدمته بعض الفصول، درس فيها اخلاق التجار التى تغلب عليها روح المكايسة واللجاج ،والتملق . وكل ذلك طبعا من الاعراض التى تكسبها الحضارة للانسان .ونظرا لضعف التيار الحضارى فى البادية فان أهلها ظلوا بعيدين عن التملق والمكايسة (أنظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 3 ،ص: 1042/1047ــ1050/1051ــ1056/1057) .

(2) ــ أنظر ابن خلدون :المقدمة ،ج : 3 ،فصل فى اسعار المدن (ص: 997 / 1000 ،وفصل فى قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران (ص : 1000/1001) .

(3) ــ قد تقتصر بعض الاسواق على سلع بسيطة جدا ، من ذلك السوق الذى يقام فى جبل بنى منصور بالمغرب الاقصى حيث قال الوزان : ((ويقيمون مرة فى الاسبوع سوقا لم أر فيه غير البصل والثوم والزبيب والسردين والملح ،وقليل من الشعير والدخن يصنعون منه الخبز)) (وصف افريقيا ، ج : 1 ،ص: 330)
وقال أيضا عن سوق بنى زرويل : ((يقيمون مرة فى الاسبوع سوقا، لا يعرض فيه غير التين المجفف والزبيب والزيت ، ويذبحون عادة كثيرا من التيوس والعنزات المسنة التى لم تعد صالحة للنتاج)) (وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص: 331) .
ويتكلم الوزان أيضا عن اسواق جبال مدينة الجزائر فيقول : ((ويقيم هؤلاء الجبليون فيما بينهم معارض واسواقا لايوجد فيها غير البهائم و الحبوب والصوف وقليل من الاقمشة المجلوبة من المدن المجاورة)) . (وصف افريقيا ،ج : 2 ،ص : 46) .

(4) ــ الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص : 65ــ109ــ144ــ163ــ169 =

الخضوع لرغباتهم ،وهذا الامر قل أن يحدث بين تجار المدن المتحضرة بسبب ضعف العصبية ،واستحالة الاتفاق بينهم أمام الاغراءات المادية ،والفوائد المنتظرة .وكمثال لهذه الظاهرة نسجل هنا ما ذكره البكرى بخصوص أهل سرت واسلوبهم فى التعامل مع التجار القادمين اليهم بسلعهم حيث يقول : ((لا يبيعون ولا يبتاعون الا بسعر قد اتفق جميعهم عليه . وربما نزل المركب بساحلهم مسوقا بالزيت ،وهم احوج الناس اليه ، فيعمدون الى الزقاق الفارغة فينفخونها ويوكونها (1) . ثم يصفونها فى حوانيتهم وامنيتهم ليرى أهل المركب أن الزيت عندهم كثير بائر ،فلو أقام أهل المركب ما شاء الله أن يقيموا ما باعوا منهم الا على حكمهم)) (2) . وهكذا فان النص يعبر عن التحالف القوى الذى يستوحى من العصبية . وعلى الرغم من أن سرت احدى مدن ليبيا الا أنها تتميز بالطابع القبلى على خلاف فاس والقاهرة مثلا .

وقد اشار الادريسى الى اسواق وتجار زويلة (ربض المهدية) ،حيث اشاد بها فقال عن اهلها : ((ولهم معرفة زائدة فى التجارات ،وطريقتهم حميدة فى المعاملات)) (3).أما برقة التى تقع فى الاقليم المعروف بها ، ذلك الاقليم الذى قال عنه الادريسى بأنه قليل العمران ،وسكانه من الاعراب المفسدين . فان برقة هنا كما قال لها اسواق كاسدة ،بينما كانت فى السابق على خلاف ذلك (4) .وقد يكون هذا بأثر سلبى من طرف العصبية القبلية (5) . وفى المغرب الاقصى أشار

= 177-327-346 ،ج : 2 ،ص : 9 . كما لجأ بعض التجار الى البيع بالتقسيط فى جبال القل (الوزان : وصف افريقيا ،ج : 2 ،ص : 54-55-111-120 - 126-136 .

(1) - وكى وكنا الرجل جلس،توكن الرجل : احسن الاتكاء فى المجلس،والمقصود بها يسندوها جيدا .

(2) - البكرى : المغرب ، ص : 6 .

(3) - نزهة المشتاق ، ص : 134 .

(4) - نفسه ، ص : 211/212 .

(5) - اشار الوزان الى عامل الأمن الذى كان مفقودا فى الساحل الليبى، مما أدى الى انقطاع القوافل التجارية واضطرارها الى المرور جنوب الساحل بحوالى خمسمئة ميل .وقال الوزان بأنه اضطر عند قدومه من مصر الى ركوب سفينة خوفا =

الوزان الى جهل نفيفة فى جهات مراكش حيث قال : ((لأن التجار لا يأتون أبدا الى هذه المنطقة بسبب مايقع فيها من اغتيالات))(1) وعن أهل الجبال فى نواحي قسنطينة قال : ((يقيمون سوقا كل اسبوع فى أيام مختلفة ،يقصده عدد كبير من تجار قسنطينة والقالة ،الا أن على هؤلاء التجار أن يتخذوا صديقا لهم فى كل جبل كضامن ،اذ بدونه لا يمكن أن ينصفهم أحد اذا خدعوا))(2) . وهكذا لا منصف فى هذه الاوساط القبلية الا ما تُقِرّه الاعراف القبلية .وكل ماتوحى به النصوص السابقة يدل على العراقيل التى تقف امام الحركة التجارية ،وتمنعها من النشاط والازدهار ،اذ لا يمكن أن تعرف التجارة فى الاوساط كهذه ازدهاراً يذكر . فحيث الخوف وانعدام الأمن والاطمئنان تنعدم الحركة التجارية وتذوب .ومع هذا فقد استطاعت بعض القبائل بذكائها الفطرى عقد اسواق تتمتع بالامن التام،مما ادى الى بعث حركة تجارية مزهرة .من ذلك قبيلة كزولة التى ورد ذكر سوقها من قبل .

(2) ـ السلع :

السلع التى تزخر بها اسواق البوادى فى المغرب الاسلامى متنوعة ، منها ما يسوق داخليا تلبية لحاجات القبائل وسكان المدن ،ومنها مايصدر الى خارج ديار المغرب ،كبلاد السودان جنوبا ،وبلدان اوربا شمالا ،وبلدان المشرق: كمصر ،والجزيرة العربية ،وبلاد فارس ،والهند ، وآسيا الصغرى (3) . كما تستورد بلدان المغرب أيضا سلعا عديدة من الاسواق الخارجية التى تصدر اليها سلعها .

= من الاعراب ،ولما قاربت السفينة شواطئ أولئك القوم قال ((ولما يبصرنا الاعراب سارعوا الى المرسى ،مدعين أنهم يرغبون فى التعامل معنا بتجارة رابحة ،ولكن أحدا لم يقبل النزول الى البر خوفا منهم قبل أن يسلموا الينا بعض أولادهم على سبيل الاحتياط .وقد اشترينا قليلا من غنمهم وسمنهم ،ثم ولينا مسرعين)) . (وصف افريقيا ، ج :1،ص: 66. أنظر أيضا :ج 2،ص : 112) .

(1) ـ وصف افريقيا ،ج :1، ص: 138 . وفى موضع آخر يقول عن تينملل : ((وهم يرتدون ثيابا رديئة لعدم وجود أى تاجر أجنبى فى هذه البلاد ،ويعيشون عيشة وحشية فيما يخص طريقتهم فى الحكم)) . (نفسه ،ج :1،ص: 141) .

(2) ـ نفسه ، ج :2، ص: 103 .

(3) ـ أنظر الوزان : وصف افريقيا ،ج :1،ص: 86 ،ج :2 ،ص: 83ـ94ـ95 ـ 106ـ111ـ117 ـكما يحتوى هذا المصدر على شواهد كثيرة =

فاما السلع المتداولة في الداخل فهي عديدة ولا يمكن احصاؤها في هـــذا المجال . ومع هذا يمكن اجمال الامر في المواد الغذائية من : حبوب وفواكـــه ولحوم وسمن وعسل وسكر ، وتمر ، وزيتون ، والحيوانات ، والادوات المصنعة والالات : كالاسلحة ، والاواني المنزلية، والاثاث، والادوات التي تستخدم في الفلاحة ، والبناء ، والصنائع المختلفة ، ومنتوجات فلاحية أخرى : كالقطن ، والكتان ، والقنب، والنيلة ، والحناء، ومنتوجات منجمية ، كخام النحاس ، وخام الحديد ، والملح ، والشب .

أما السلع التي تصدر الى خارج البلاد فمنها ما ينتج في ديار المغـــرب ، ومنها مايجلب من الخارج ويعاد تصديره الى جهة أخرى لغرض الكسب الوفيـــر . فالسلع المستوردة من بلاد السودان تسوق الى بلدان اوربا ، والسلع المجلوبة من اوربا يعاد تصديرها الى بلاد السودان (1) . وهكذا تكون بلاد المغـرب بمثابة همزة وصل بين شعوب وأمم عديدة . ومن السلع التي تصدر الى بلاد السودان : النحاس الاحمر والملون ، والالبسة المختلفة الاشكال ، الصوفية وغير الصوفية ، والعمائم ، والمآزر، ومختلف انواع الاكسية والمصنوعات الزجاجية بانواعها ، وبعض الاصــــداف والاحجار المطلوبة ، والعطور ، والالات الحديدية بانواعها، والملح، والسكـــر، والتمر، والجلود ، والزيت، والاغطية (2) . وأهم ما يستورد من السودان ، الذهـــب، والرقيق ، وقطط الزباد ، والمسك (3) .

= لايتسع المجال لذكرها كلها . وتلك الشواهد تؤكد بأن تجارة بلاد المغـــرب كانت متصلة باقطار كثيرة في المشرق، وبلاد السودان، واوربا .

(1) ـ الوزان : وصف أفريقيا، ج 2 ، ص ص : 21ـ23ـ111 .

(2) ـ أنظر الادريسي : نزهة المشتاق ، ص : 135 . والوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص ص : 115ـ120ـ169، ج : 2 ، ص ص : 108ـ111 .

(3) ـ الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص ص : 62ـ76 . ج : 2 ، ص ص : 111 ـ 126 .

أما السلع التي تصدر الى بلدان اوربا فهي الحبوب : كالحنطة ،والشعير والحمص ،والفول ،ثم الخضار ،فالفواكه ، فالحيوانات . وجلود الحيوانات ، والعسل ، والشمع ،والعنبر ،والسمك ،والمرجان (1) ...الخ . وبالمقابل تستورد البلاد من بلدان اوربا : كالبرتغال ،وجنوة ،والبندقية ،وانجلترا ...الخ بضائع عديدة منها : بعض المصنوعات الزجاجية ،والالبسة ،والاسلحة (2) .

ومجمل القول أن القبائل في هذه الديار تلعب دورا هاما في انتاج تلك السلع وتسويقها في اسواق المغرب كافة ،كما تستقبل المدن المغربية ،والتجار الاجانب ضمن الاسواق الخاصة بها بغرض بيع منتوجاتها . وبالتالي تساعد القبائل المغربية في نقل البضائع عبر الاسواق الداخلية والخارجية ،حيث كانت عامل اتصال بين السودان واوربا .

(ج) _ المسالك والمراكز التجارية :

كانت بلاد المغرب الاسلامي تتمتع بشبكة واسعة من المسالك والطرق الداخلية والخارجية ،وذلك منذ حقبة زمنية بعيدة .كما كانت تحتوي على مراكز تجارية برية وبحرية في غاية الأهمية .

فأما المسالك فيمكن تصنيفها الى صنفين : الصنف الاول تمثله المسالك الداخلية التي تربط بين الاسواق والمدن المغربية . أما الصنف الثاني فتمثله المسالك الرابطة بين المدن الكبرى بالمغرب الاسلامي وبلاد السودان ،وبين المغرب والمشرق ،بالاضافة الى المسالك البحرية الرابطة بين هذه الديار

(1) _ الوزان : وصف افريقيا ،ج :1، ص: 100_109_115/114 _ 157_320 ، ج :2 ،ص: 45_ 54_55_62_110_111 .

(2) _ نفسه ، ج :1، ص: 98_100_152_111 .

وبلدان أوروبا والاندلس وبلدان المشرق أيضا .

أ ـ المسالك الداخلية :

لايدخل في هذا الاعتبار الا المسالك الكبرى ذات الحركة الواسعة . أما الطرق الفرعية الاخرى فيمكن مراجعتها في كتب المسالك والممالك مثل كتاب البكري الذي يذكر فيه الطرق الواصلة بين مدن المغرب وافريقية كلها تقريبا .

وبقى بعد هذا ذكر المسالك الرئيسية . فأهم الطرق الرابطة بين أسواق ومدن المغرب من الشرق الى الغرب طريقان : طريق في شمال البلاد ،وطريق يمتد عبر السهوب الجنوبية المحاذية للصحراء . فالمسلك الاول هو الذي ذكره كل من العبدري وابن بطوطة في رحلتيهما (1) . ويمر هذا الطريق بالمدن التالية : طنجة ،تلمسان ،مليانة ، الجزائر ، بجاية ،ميلة ،قسنطينة ،بونة ، تونس ، قابس ،طرابلس ،فاقليم برقة . أما الطريق الثاني فيمر جنوب الاول ،وقد اشار العبدري اليه حين ذكر بأنه تجنب طريقا كان يتجه نحو المدية ، وسار الى اليسار منه حتى وصل مليانة (2) .

وقد ذكر الادريسي طرق القوافل التي تربط المدن المغربية ببعضها ،وقال عن تلمسان بأنها قفل بلاد المغرب ،فلا بد للداخل أو الخارج من المرور بها (3) . فالطريق من فاس الى تلمسان تسع مراحل ويمر بنهر سبو ،وقرية تمالتة ،

---

(1) ـ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ص: 22ـ23ـ28ـ29ـ33ـ35ـ 68ـ79 . ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ج :1، ص ص : 30/34.

(2) ـ العبدري : الرحلة المغربية ، ص : 22.

(3) ـ الادريسي : نزهة المشتاق ، ص : 151.

وكرناطة ، وبساب زناتة وقلعة كومطة ، ووادى مسون ، ووادى ملوية ، وصاع ، وجراوة ، وبرقانة ، والعلويين ، فتلمسان (1) . أما من تلمسان الى تنس فسبع مراحل هي بقرية العلويين ، وببلوت ، وقرية سنى الرابطة على ضفاف نهر مرغيت ، وافكان ، ومعسكر ومدينة يلل ، سوق ابراهيم (2) فمليانة ، وحصن كزناتة ، وقرية ريغة ، وأشير ، وتمزكيدة ، فالمسيلة (3) . وثمة طريق آخر تنطلق القوافل عبره ، من تلمسان الى تيهرت ، فالمسيلة ، مرورا بقرية تادرة ، فقرية بداى ، فتيهرت ، ومنها الى قرية أغُمُر ، فمدينة ماما ، فأشير ، فقرية سطيت فالمسيلة (4) . ويمر الطريق الواصل بين المسيلة والقيروان بمقرة ، وطبنة ، وبادس ، وباغاية ، وتوزر ، وقفصة فالقيروان (5) . وهكذا فان الطرق كثيرة ، والمسالك متشعبة بين مدن المغرب كافة .

المهم هنا أن هذه الطرق كلها تمر بديار قبائل عديدة ، وتخضع لاعراف تلك القبائل . والقوافل المارة بهذه الطرق تحتاج الى حماية لكى لا تتعرض الى النهب ، لذا فأنها تقدم فى غالب الاحيان هدايا أو أتاوة لشيوخ القبائل حتى تضمن سلامتها . كما أن التجار لا يجرؤون على الانتقال عبر الاسواق منفردين ، أو فى مجموعات صغيرة ، الا اذا ضمن لهم شيوخ القبائل ذلك . وعليه فهذه الطرق

---

(1) ـ الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ص : 148/149 .

(2) ـ نفسه ، ص ص : 151/152 .

(3) ـ نفسه ، ص ص : 154/155 .

(4) ـ نفسه ، ص ص : 156/157 .

(5) ـ نفسه ، ص ص : 164ـ165ـ178ـ179 .

والمسالك جميعها تقع تحت رحمة القبائل ،حيث تتسامح القبائل تنشط حركة القوافل ،وحينما تشدد القبائل الخناق تتقلص الحركة التجارية . وعلى سبيل المثال يقول الوزان : ((والتجار الذين يريدون الذهاب من عاصمة تونس الى مدينة أخرى لقضاء بعض الحاجات يصحبون معهم خفيرا من اصحاب البنادق الا أنهم يتعرضون لاحداث خطيرة اولها اداء مبلغ ضخم من المال للعرب المأجورين من قبل الملك ليسمحوا لهم بالمرور ، وثانيهما التعرض في كثير من الاحيان لهجوم الاعراب الآخرين ، فلا يغني عنهم خفير النجاة المصاحب لهم ، ويفقدون اموالهم وارواحهم معا)) (1) .واشار الوزان ايضا الى سكان جبال زيز متهما اياهم باللصوصية والنهب والقتل والشرانية ثم قال : انهم لا يستطيعون نقل سلعهم الى اسواق سجلماسة الا عندما يرحل الاعراب الى الصحراء . لاستحكام العداوة بينهم ، وخوفا من استلابهم (2) غير أن بعض القبائل بهذه الجبال تلجأ الى المبادلة برخص المرور بينهم وبين الاعراب ، لكي يتسنى للطرفين نقل السلع والاتجار في امان (3) . وعند التعرض لصحراء انكاد اشار أيضا الوزان الى الاخطار التي تعترض القوافل التجارية بتلك

---

(1) ـ وصف افريقيا ، ج : 1 ،ص: 48 . وفي موضع آخر يتكلم عن الطريق المحاذى لساحل البحر في الديار الليبية فيقول : ((وهذا ما جعل هؤلاء العرب (الاعراب) اقبح الفاتكين على وجه الارض، يجرد كل غريب وقع بين ايديهم من جميع ما عنده ، ثم يباع للصقليين ،حتى أنه منذ مائة سنة لم تمر أية قافلة بالساحل المحاذى للصحراء التي يعيش فيها هؤلاء القوم . واذا أرادت القافلة أن تخترق البلاد ، مرت من الداخل على بعد نحو خمسمئة ميل من البحر)) (نفسه ،ج : 1 ،ص: 65) . أنظر أيضا ،ص: 138 .

(2) ـ نفسه ،ج : 1 ، ص: 369 .

(3) ـ نفسه ،ج : 1 ، ص : 370 .

الصحراء حيث قال : ((وهي مأوى لعصابة لصوص من الاعراب على استعداد دائم للفتك بالمارين من هناك ، حيث الطريق المؤدية من فاس الى تلمسان .وقلما ينجـو التجار من شرهم ، ولا سيما في فصل الشتاء لأن الاعراب المستأجرين للحفـاظ على الامن في البلاد يكونون قد رحلوا عنها آنذاك الى نوميديا ، ويبقى منهم الغير المستأجرين وحدهم ليتعيشوا من اللصوصية))(1).

وقد اشار العبدرى في رحلته الى هذه الطريق التي سماها المفازة ، فعلـى الرغم من قربها من تلمسان وفاس الأنها كما قال : ((من اضر بقاع الارض علـى المسافر))(2). ونسب ذلك الى السكان المجاورين لها والذين تخصصوا فـي أذية الخلق . وذكر الوزان أيضا بأن تجار قسنطينة يجهزون قافلة كل سنة تذهـب الى نوميديا (بلاد النخيل) محملة بالاقمشة الصوفية والمادة المخدرة التي تدعـى الحشيش . وذكر بأن هذه القافلة تكون تحت حماية بنادق بعض الخفراء من الاتراك مسلحين بالاسلحة النارية يستأجرون باغلى الاثمان وذلك خوفا من مهاجمة الاعراب(3) وعن أهل الجبال المتاخمة لقسنطينة قال بأنهم لا يستطيعون تعاطي التجارة فـي السهول،لأنهم يخافون أن ينهبهم الاعراب ، وهم بدورهم يخافهم تجار قسنطينـة فلا يذهبون لاسواقهم الا في حماية واحد منهم . وهكذا يمكن أن يطول الحديـث في هذا الامر كثيرا ، لأن الامثلة والشواهد عديدة وكل ما يمكن استخلاصه هنا هـو أن غياب سلطة الدولة العادلة يترك المجال واسعا أمام الاعراب والقبلية التي تكايـن من جهة الى أخرى . مع أن القبلية في الغالب تخضع للانانية وحب المصلحة الظرفية ، ونظرة القبلية عادة لا تكون عميقة ولا بعيدة ، بل تكون في حدود ضيقة ، بحيث لا ترى سوى الفوائد القريبة بدون حساب للعواقب ، وعليه فلا يمكن أن تزدهر تجارة في ظل العصبية القبلية الشرهة ، وبغياب الامن وسلطة الدولة تتلاشى الحركة التجاريـة وتذوب .

(1) ـ وصف افريقيا ، ج :2 ، ص : 11 .

(2) ـ العبدرى : الرحلة المغربية ، ص: 8 . وفي موضع آخر تكلم أيضا عن تلك المفازة فقال : ((وهي منقطعة موحشة ، لا تخلو من قطاع الطريق البتة ، وهم بها أشد خلق الله ضررا)) (ص:132) .

(3) ـ الوزان : وصف افريقيا ، ج :2 ، ص : 59 .

أما الحديث عن المسالك والمراكز التجارية المؤدية الى بلاد السودان فيختلف بعض الشيء عما هو عليه الامر في شمال البلاد . حيث تظهر القبلية في مسالك السودان بمظهر ايجابي له الفضل في الازدهار التجاري الناتج عن النشاط التبادلي الذي تحميه القبائل المنتشرة عبر الصحراء والقفار .

فبدءا من الديار الليبية تظهر مدينة زويلة ابن خطاب وغدامس كمركزين تجاريين هامين تجتمع فيهما الطرق المؤدية الى بلاد السودان (1) . وتأتي بعد زويلة مراكز المغرب الاوسط واهمها : ورقلة (2) ، وميزاب (3) ، وتيكوراين (4) وتوات (5) ، وفي المغرب الاقصى سجلماسة (6) . وبالطبع فهذه المراكز كلها ترتبط بشبكة من الطرق التي تصلها بشمال البلاد . أما في اتجاه الجنوب فان المسالك تقل نظرا لصعوبة الطريق واخطارها بسبب قلة المياه والعواصف الرملية من جهة ، ومن جهة أخرى فان ندرة التجمعات السكانية بتلك القفار يحدد المسالك ويقلص عددها . ومن هنا اشتهر أمر ثلاث طرق تقريبا

---

(1) ــ البكري : المغرب ، ص : 10/11 . الادريسي : نزهة المشتاق ، ص : 214 . ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص : 122 .

(2) ــ قال ابن خلدون عن ورقلة : ((وهذا البلد لهذا العهد باب لولوج السفر من الزاب الى المفازة الصحراوية المفضية الى بلاد السودان ، يسلكها التجار الداخلون اليها بالبضائع)) (العبر ، مج : 7 ، ص : 107) . أنظر أيضا الوزان : وصف افريقيا ، ج : 2 ، ص : 136/137 .

(3) ــ الوزان : وصف افريقيا ، ج : 2 ، ص : 134/135 .

(4) ــ ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص : 118/119 . الوزان : وصف افريقيا ، ج : 2 ، ص : 133 .

(5) ــ يقول ابن خلدون عن توات : ((وهو بلد مستبحر في العمران ، وهو ركاب التجار المترددين من المغرب الى بلد مالي من السودان لهذا العهد ، وبينه وبين ثغر بلد مالي المسمى غار المفازة المجهولة لا يهتدى فيها للسبيل ، ولا يمر الوارد الا بالدليل الخريت من الملثمين الظواعن بذلك القفر ، يستأجره التجار على البذرقة بهم باوفى الشروط . ولقد كان بلد بودا وهي أعلى تلك القصور بناحية الغرب من ناحية السوس هي الركاب الى والاتن ، الثغر الاخير من أعمال مالي)) . (العبر ، مج : 7 ، ص : 118) .

(6) ــ البكري : المغرب ، ص : 156/159 . الادريسي : نزهة المشتاق ، ص : 86 .

الأولى تنطلق من سجلماسة مخترقة صحراء موريطانيا الحالية (1) . في اتجـاه حوض السينغال . وقد اشار البكري لهذا الطريق حين وصف تلك الديار مسميـا نقاط المياه التي تمر بها القوافل التجارية (2) . فبعد سجلماسة يأتي موضع يقال له تندفس وهي عبارة عن آبار تحفر عند الحاجة ولكنها سرعان ماتدفنها الرمال ، وبعدها بئر تدعى وين هيلون ، ثم ماء يدعى تارفى ، ثم بئر يطوناك ، ثم اوكازنت ثم وانزمين، وفي هذا الموضع تلتقي طرق بلاد السودان كلها . ويقول البكري بـأن هذا المكان خطير جدا لأنه معرض للاغارة من قبل لمطة وكزولة . ثم تأتي بلـد واران ، ثم بئر بني وارث وهم من صنهاجة ، ثم آبار أغرف ، ثم أفرتندى ، ثم جبـل ازجونان ، ثم بئر واران ، ثم اودغست . وتأتي بعد أودغست ارض غانة . ويرى البكرى بأن المسافة بين سجلماسة واودغست تقدر باحدى وخمسين مرحلة . وقد تكلم الادريسي أيضا عن هذه الطريق وقال أن المياه بها قليلة لذا كان المارين بها قليلون . وهذه الطريق هي التي مر بها ابن بطوطة عند ذهابه لبلاد السودان . بينما كانـت عودته على الطريق الثالث (3) . وهذا الطريق الثالث يمر بتوات ، فعين صالـح

---

(1) ـ يصف الادريسي مسير القوافل في هذه الصحراء بقوله : ((وهذه الصحراء يسلكها المسافرون في زمان الخريف . وصفة المسير بها ، أنهم يوقرون جمالهـم في السحر الاخير ، ويمشون الى أن تطلع الشمس ، ويكثر نورها في الجـو ، ويشتد الحر على الارض ، فيحطون احمالهم ، ويقيدون جمالهم ، ويفرشـون أمتعتهم ، ويخيمون على انفسهم ظلالاً تسكنهم من حر الهجير وسموم القائلة ، ويقيمون كذلك الى أول وقت العصر . وحينئذ تأخذ الشمس في الميل والانحطاط في جهة الغرب يرحلون من هناك ويمشون بقية يومهم ، ويصلون المشي الـى وقت العتمة . ويفرسون ايضا حيث وصلوا ، ويبيتون ليلهم الى وقت الفجر الاخيـر ، ثم يرحلون . وهكذا سفر التجار الداخلين الى بلاد السودان ، على هـذا الترتيب لا يفارقونه ، لأن الشمس تقتل بحرها من تعرض للمشي في القائلة)) (نزهة المشتاق ، ص : 88) .

(2) ـ المغرب ، ص ص : 156/159 .

(3) ـ ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ج : 2 ، ص ص : 772/802 .

الحالية ،فالهقار ،فبلاد السودان (بورنووكانم) أما الطريق الثاني فيتفرع عن الثالث عند عين صالح ويتجه نحو الجنوب الغربي الى تمبكتو (١) . على أن عين صالح تربطها مع مزاب وورقلة طريق لا تمربتوات .

وهكذا يتضح بأن المسالك والطرق البرية عبر المغرب كله جنوبا وشمالا تخضع للقبائل على اختلاف انتماءاتها . وبالتالي فان الاثر الذى تخلفه القبلية على سير القوافل في تلك المسالك يتباين من جهة الى أخرى)نظرا للتقاليد القبلية الخاصة ،ونظرا للمصلحة التي تتعلق بها القبائل . وجملة القول أن الاثر الذى تتركه القبلية في جنوب البلاد حيث القفار والمفازة الخطيرة أفضل من الاثر الذى تخلفه القبلية في الشمال . ففي الجنوب تسهر القبائل على حماية القوافل وتزويدها بالجمال والادلاء ولو كان ذلك بالثمن . أما في الشمال فالضغوط القبلية أقوى وجشع القبائل أكبر .

هذا ما سمح به المجال للحديث عن اثر العصبية القبلية على النظم الاقتصادية ،وفيما يلي فصلا آخر عن اثر العصبية القبلية على النظم الثقافية والمعتقد الديني ببلاد المغرب .

---

(١) ـ أنظر اطروحة فرج محمود فرج : اقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، ص : 82/77 . فهذه الاطروحة تضم فصلا يدرس طرق القوافل في الصحراء بدقة وافاضة .

أثر العصبية القبلية على النظم الثقافية
والمعتقد الديني بالمغرب الاسلامي

لاتخلو المجتمعات القبلية كافة من مظهر ثقافي معين أو معتقد ديني كيفما كان . وللمظهر الثقافي صلات متينة بالمعتقد الديني . وعليه فان الكلام عنهما في هذا السياق جاء نتيجة للانسجام الحاصل بينهما .

أولا : المظهر الثقافي : يتميز المظهر الثقافي في المجتمعات القبلية بالسذاجة والبساطة ، الامر الذى جعل بعضهم يعترض على استعمال عبارة ((ثقافة)) في مجتمعات بدائية كهذه (1) . ومع هذا فلا سبيل الى نكران المظهر الثقافي السائد في القبائل الريفية المستقرة ، وحتى في القبائل البدوية الراحلة والمنتجعة .

فعلى الرغم من صعوبة الحديث عن النظم الثقافية في المجتمع القبلي بالمغرب الاسلامي فان ذلك لا يمنع من التعرض للموضوع ولو باشارة خاطفة ، تبعا لما احتوت عليه المصادر الفقيرة ، هذا ولايوجد ما هو غامض كغموض هذا الموضوع بالذات ، لأن النشاط الثقافي في المجتمع المغربي عامة وفي الاوساط القبلية بصورة خاصة كاد أن يهمل تماما ، من طرف المؤلفين والكتاب والمؤرخين . ومع هذا فلا تخلو المصادر

---

(1) ـ أنظر ريجيس بلاشير : تاريخ الادب العربي ، ص: 48 .

من بعض الاشارات هنا وهناك خلال فترات زمنية متباينة . فالمجتمع القبلي بالمغرب الاسلامي عرف بعض المظاهر الثقافية المتواضعة التي تنحصر - في الحقيقة - ضمن النشاطات الترويحية والترفيهية وبعض العادات والتقاليد .

فاذا كانت المدن عرفت شيئا من الازدهار الثقافي في بعض الاوقات فان البوادى (الريف والصحراء) ظلت معزولة عن تلك التيارات الثقافية التي تدور في المدن والامصار . وكل ما يمكن ذكره بخصوص الثقافة في القبيلة هو اقتصارها على حركة تعليم القرآن ، ضمن الكتاتيب والربط والزوايا المنتشرة عبر القرى و " المداشر " بالمغرب الاسلامي ، بالاضافة الى ما يظهر في القبيلة من أشكال فنية ذات طابع شعبي : كالاساطير ، والامثال والمساجلات الشعرية ، والسير الشعبية ، والغناء والطرب ، والرقص... الخ

ويمكن حصر المظهر الثقافي في المجتمعات القبلية ضمن النشاطات التي تأخذ طابعا ترويحيا وترفيهيا ، تلك النشاطات التي لها تأثيرها في النمو العقلي ، والنفسي ، والتربوى بدون شك .

فبخصوص النظم الثقافية ومدى الاثر الذى تتركه العصبية القبلية في هذا المجال ، يمكن النظر اليها من بعض الجوانب التي تساعد على اعطاء صورة واضحة تسهل الموضوع . وعليه يمكن حصر اهتمامات البحث هنا في ثلاث نقاط رئيسية . وهذه النقاط هي : التعليم ، والفنون ، والعادات والتقاليد

1 - __التعليم__ : ليس المقصود هنا هو تتبع الحركة التعليمية تاريخيا . بدءا الى الفترة الزمنية المخصصة للبحث . بل المطلوب هو وصف الحالة التي كان عليها نظام التعليم آنئذ ، واكتشاف الاثر الايجابي أو السلبي

الذى صدر عن القبلية تجاه التعليم في بلاد المغرب الاسلامـــــي .

فمن خلال المقارنة التي عقدها ابن خلدون بخصوص أساليــب التعليم في كل من الاندلس، وبلاد المغرب ، والمشرق يمكن استخلاص أن التعليم صناعة كبقية الصنائع التي يكتسبها الانسان بواسطة الممارسة والتدريب . وبما أن التعليم صناعة فانه يكتسب بالحذق والملكة و الممارسة . ويرى ابن خلدون بأن المفتاح لامتلاك العلم هو ((فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية)) (1) . لا بالحفظ والاستظهار فقــط .

الامر الثاني الذى اشار اليه هو انقراض سند التعليم الذى ازدهـر في القيروان وقرطبة . وهذا أدى الى حدوث فراغ، فصل بين عصـر الازدهار والعصر الذى عاش فيه ابن خلدون . وبالطبع ترجع العلة فـي ذلك الى ذهول العمران وتلاشي المظهر الحضارى ، وضعف الـدول وسقوطها (2) . وكل ذلك بالطبع لا يسمح بالاتصال والتواتر. فنتج عن ذلك انقطاع في سند التعليم ، وطغيان البداوة ، واستفحال أمرها فـي بلاد المغرب ، وحتى الاندلس، مع بعض التفاوت ، لأن أهل الاندلـس احتفظوا بشيء من التعليم الذى ينحصر في فن الادب، واللغة العربيـة . أما الفقه والعلوم العقلية فانقرضت بانقراض سند التعليم ، بسبب انحطـاط

(1) ـ ابن خلدون : **المقدمة**، ج : 3، ص: 1121 .

(2) ـ يقول ابن خلدون في هذا : ((فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهـد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيــه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر . وذلــك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والاندلس، واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة ، وبحور زاخرة ، ورسخ فيهمـا التعليم لامتداد عصورهما ، وما كان فيهما من الحضارة . فلما خربتا انقطـع

مستوى العمران فيها . وبسبب تغلب النصارى على أهلها ودولها ،حيث انشغل الجميع بالبحث عن سبل العيش قرب السواحل .

وبالمقابل فان بلاد المشرق وخاصة مصر تختلف كل الاختلاف . حيث ، أن العمران بها موفور والحضارة مزدهرة ،فبقي السند في التعليم بها متصلا . وهذا هو السر في تطوير الصنائع بها ،وانتشار العلوم فيها ((فاهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم ،بل وفي سائر الصنائع))(1) . وذلك بسبب عائد في الحقيقة الى ما يكتسبه الانسان بفضل الحضارة ،من ممارسات وسلوك ، تنطبع في النفس(2) . وهو ما عبر عنه ابن خلدون برونق الصنائع والتعليم(3) .

اذن فالبداوة لها ضلع في ضعف مستوى التعليم بالمغرب . وبالمقابل تصبح الحضارة بما تمثله من عمران عامل ازدهار للتعليم . وبالطبع اذا ذكرت البداوة ظهرت الى جانبها العصبية القبلية لأن ((البداوة هي شعار العصبية))(4) . والعكس صحيح .

---

* التعليم من المغرب الا قليلا كان في دولة الموحدين بمراكش مستفادا منها ، ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدول الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها . فلم تتصل احوال الحضارة فيها الا في الاقل)) . (المقدمة ج : 3، ص: 1120) .

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ،ج : 3، ص: 1122 .

(2) ـ يشرح ابن خلدون ذلك بقوله : ((وذلك أن الحضر لهم آداب في احوالهم في المعاش ،والمسكن ،والبناء ،وامور الدين والدنيا ،وكذا سائر اعمالهم وعاداتهم ،ومعاملاتهم ،وجميع تصرفاتهم . فلهم في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ،ويتلبسون به من أخذ وترك ،حتى كأنها حدود لا تتعدى ،وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الاول منهم . ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس أثر يكسبها عقلا جديدا ، تستعد به لقبول صناعة اخرى ،وتهيأ بها العقل ،لسرعة الادراك للمعارف)) . (المقدمة ،ج : 3، ص: 1123) .

(3) ـ المقدمة ، ج : 3، ص: 1124 .

(4) ـ ابن خلدون : نفسه ، ج : 2، ص: 857 .

وردت في كتاب سعد الله «تاريخ الجزائر الثقافي ملاحظات هامة تستحق الوقوف عندها . ففي الفصل الذى خصصه للتراث الثقافي خلال القرن التاسع للهجرة،أى الخامس عشر للميلاد ،أشار الى مبدأ ((الرباط)) وفكرة ((الزاوية)) . فذكر بأن ظهور تلك العادة بالمغرب حدث خلال القرن التاسع للهجرة . ثم علل اسباب ظهورها بالضعف الذى انتاب الدولة ، بسبب الانحلال الداخلي من جهة ،والخطر الخارجي من جهة أخرى . ثم توصل الى الاقرار بأن ظاهرة انتشار الاضرحة والزوايا ،والاعتقاد في قدرات الشيخ ،وفي خوارقه أدى الى بروز أمرين خطيرين : أولهما الاتجاه نحو سذاجة المعرفة وتبسيطها ،وثانيهما وضع حد للاجتهاد . ثم يفسر هذا بقوله : ((ذلك أن نقل التعليم الى الزوايا قد أدى الى الاكتفاء بالحد الادنى منه ،بطريقة جافة ريفية ضيقة ، واصبحت الزاوية بذلك تنافس المدرسة والجامع (الجامعة) ،في نشر التعليم وكسب الانصار . وبدل أن يلتف الناس حول العلماء المتنورين في المدارس والمساجد أصبحوا يلتفون في زاوية حول شيخ أو مقدم ، تغلب على عقله الخرافة،وعلى احواله الزهد . هكذا تدهور مستوى التعليم . وهذه المنافسة بين العالم والمرابط ، أو الجامع والزاوية ، قد أجبرت أيضا علماء المساجد والمدارس على تبسيط آرائهم ، وطرقهم في التعليم ، ومحتويات دروسهم حتى لا يفر الطلبة الى الزوايا والمرابطين))(1) .

فعند التأمل فيما ذكره ابن خلدون يتضح بأن جودة التعليم ونجاعته مرتبطة بالازدهار الحضارى الذى يعبر عنه بـ ((العمران الحضرى)) ، وبزوال العمران الحضرى ينحط مستوى التعليم ، لان العلماء في هذه الحال يهاجرون الى المناطق الاخرى ذات العمران والحضارة . وهذا ما حدث بالفعل(2) .

(1) ـ سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي،ج : 1،ص: 37.
(2) ـ أنظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 3، ص: 1120 / 1121.

أما النص الذى كتبه سعد الله فانه يكمل الصورة، و يفسر العلة التي لا يمكن فهمها الا بالفصل بين التعليم في المجتمع البدوى، والتعليم في المجتمع الحضرى . لأن التباين كبير بينهما .

وهكذا يتضح الفارق بين عملية التعليم في البادية، والتعليم في المدينة . وبالتالي ينكشف الاثر السلبي الذى تسببه البداوة المتميزة بالطابع القبلي الساذج . وظهر ذلك من خلال ((الزاوية)) التي تغلبت على الجامع، وقد انجر عن ذلك كله انتصار للسطحية وللبساطة على العمق والاتقان . وهذا عائد - في الحقيقة - الى الصراع الذى نشأ بين القيم الحضارية ، والقيم البدوية . واذا كانت الحضارة تمثلها الدولة ونظمها فان البداوة تمثلها القبيلة واعرافها .

وحتى تسهل دراسة موضوع التعليم في هذا المجال يستحسن معالجته من خلال بعض الجوانب الهامة التي تساعد على بلورة الفكرة، وازالة الغموض . وعليه يمكن حصر تلك الجوانب في : المؤسسات التعليمية، (المسجد والكتاب، والرباط، والزاوية، والمدرسة)، والاشخاص الذين يتعاطون التعليم (اساتذة وطلبة) ، والاساليب المتبعة في التعليم (طرق التعليم)، والمواد العلمية التي تدرس (العلوم) .

أ - مؤسسات التعليم : أولى هذه المؤسسات في الاوساط الاسلامية هو المسجد . وقد ظل المسجد يحتل مكانة كبيرة كملتقى يجتمع فيه طلاب العلم ضمن حلقات تحيط ببعض العلماء الذين يقدمون معارفهم الى الطلاب الملازمين لهم . وأول المساجد بالمغرب الاسلامي هو مسجد القيروان . ثم بنيت - بعد ذلك - مساجد أخرى ، كانت مراكز اشعاع للدين الاسلامي ومدارس لحفظ القرآن .

أما الكتاتيب فيبدو أنها برزت للوجود لأول مرة في القيروان خلال القرن الاول للهجرة (1) . وقد تخصصت في تعليم القرآن للصغار . وربما وجد في كل حي من أحياء القيروان كتاب أو أكثر يقدم العلم للصغار (2) . ومع الوقت انتشرت الكتاتيب في ربوع المغرب كافة ،وانتقلت بعدها الى البوادى حيث ظلت سائدة الى العصر الحديث . وقد عمل الدولة الموحدية على نشرها في أرياف المغرب كلها . وكان التعليم بها مجانيا (3) .

أما المدارس فقد اختصت بها المدن ،نظرا لما تتطلبه من شروط : كالمنشآت والمباني المخصصة لهذه المهمة ،ثم الاساتذة الذين يمتازون بسعة العلم والمعرفة . وهؤلاء بالطبع يتواجدون دوما حيث العمران الزاهر والحضارة الدافقة .

ويبدو أن المدارس لم تكن معروفة بالمغرب الاسلامي في العهد الموحدى (4) . حيث كان التعليم يتم آنئذ في المساجد ،والجوامع والكتاتيب ،والربط ،والزوايا ،ولم تظهر المدارس في هذه الديار الا بعد سقوط الدولة الموحدية ،وقيام دول : الحفصيين ،والعبد الواديين والمرينيين . وقد تكون الدولة الحفصية هي السباقة لبناء المدارس

---

(1) ـ الدباغ: معالم الايمان ،ج :1 ،ص: 120 . الفردبل : الفرق الاسلامية ص: 98 . حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ،ج :1 ،ص: 79 .

(2) ـ حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ،ج :1 ،ص: 79 .

(3) ـ الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ،ج :2 ،ص: 25 . وعبد الله علي علام الدولة الموحدية بالمغرب ،ص: 291 .

(4) ـ ظهرت المدرسة كمؤسسة تعليمية في الدول الاسلامية لأول مرة في نيسابور (المدرسة البيهقية) ،وذلك في أواخر القرن الرابع الهجري ثم تلتها المدرسة النظامية ببغداد ،ثم المدرسة النظامية أيضا بنيسابور =

حيث شيدت أول مدرسة بها بأمر من السلطان ابي زكرياء حوالي 633هـ/1235م (1)، واسمها المدرسة السماعية . وذكر ابن مرزوق بأن أول من بنى مدرسة في المغرب الاقصى هو يعقوب بن عبد الحق (658 هـ/1259م ـ 685 هـ/1286م)، وذلك بفاس، واسمها مدرسة الحلفائيين ، وذكر بأن المدارس لم تكن معروفة في المغرب قبل ذلك العهد (2) . غير أن النصوص تؤكد خلاف ذلك . وسار على سنتـــه بعض السلاطين المرينيين من بعده : كالسلطان أبي سعيد عثمـــان (710هـ/ 1310م ـ 731 هـ/1330م) والسلطان أبي الحسن علي بن عثمان (3)، (731هـ/ 1330م ـ 752 هـ/1351م) . وهذا الاخير شيد المدارس في عدد من مـدن المغرب الاقصى، ومدن المغرب الاوسط . ثم ابنه السلطان ابو عنان (749هـ/ 1345م ـ 759هـ/1357م) .

ويقول الوزان بأن فاسا تحتوى على احدى عشرة مدرسة، قد تصل حجـرات الواحدة منها الى المائة حجرة أو أكثر . وأجمل تلك المدارس وأهمها آنئـــذ

= وذلك عندما أمر ببنائها ((نظام الملك)) وزير السلطان السلجوقي ملـــك شاه (465 هـ/1072م ـ 485هـ/1092م) . وبعدها شيدت مـــدارس أخرى بالشام ، وتلتها مصر . ولم تظهر المدارس ببلاد المغرب الا بعد ثلاثـة قرون من بناء مدرسة نيسابور الاولى . (أنظر ابن خلكان : وفيات الاعيان، ج : 1، ص: 357 . وعبد الله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب، ص: 292) .

(1) ـ أنظر الوزير السراج : الحلل السندسية، ج : 1، قسم : 4، ص: 1026 . ابـن ابي الضياف: اتحاف اهل الزمان، ج : 1، ص: 199 . محمد الهادى العامرى : تاريخ المغرب العربي، ص: 37 .

(2) ـ ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، ص ص: 116ـ405 . أنظر أيضـــا كتاب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، لمجهول . ص: 100 . وكتـاب ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: 119 . وأحمد الناصرى السلاوى: الاستقصا، ج : 3، ص: 65 ـ 111 .

(3) ـ قال ابن مرزوق عن ابي الحسن : ((ثم أنشأ نفعه الله تعالى المدرســة المختلفة بالعدوة ، عدوة الاندلس من فاس، وهي مدرسة الصهريج . ثـــم أنشأ المدرسة الكبرى ، مدرسة الوادى . . ثم المدرسة الكائنة جوفي جامع =

هي المدرسة البوعنانية التي أسسها السلطان أبو عنان المريني ، وقد وصلت تكاليف بنائها الى اربعمائة وثمانين ألف مثقال (1) . وبالمقابل يوجد في فاس ما يقرب مائتي كتاب لتعليم الاطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن (2) .

وكما شيد الحفصيون وبنو مرين المدارس قام بنو عبد الواد ببناء المدارس أيضا ، حيث شيد أبو حمو موسى الاول (707هـ/1307م-718هـ / 1318م) مدرسة بتلمسان خصصها للعالمين الجليلين ابني الامام (3) . وبذلك تكون هذه المدرسة قد بنيت قبل عهد أبي الحسن ، وعليه قد تكون مدرسة ابي حمو هي أول مدرسة بنيت في المغرب الاوسط . وهكذا انتشرت المدارس في بلاد المغرب كافة ، حتى أنهم يقولون بأن عدد المدارس المقامة بمدينة تلمسان حتى القرن التاسع الهجري وصل الى ست مدارس على الاقل ، منها : مدرسة منشار الجلد ، ومدرسة ولدى الامام ، والمدرسة التاشفينية ، والمدرسة اليعقوبية ، ومدرسة أبي حمو الثاني ، ومدرسة أبي الحسن . والتعليم

= القرويين ، وتعرف بمدرسة مصباح ... ثم أنشأ رضي الله عنه . في كل بلد من بلاد المغرب الاقصى والاوساط مدرسة ، فأنشأ في تازى قديما مدرستها الحسنة ، وببلاد مكناسة وسلا ، وطنجة ، وسبتة ، وافني ، وازمور ، واسفي ، واغمات ، ومراكش والقصر الكبير ، وبالعباد ظاهر تلمسان .. وبالجزائر مدارس مختلفة الاوضاع بحسب اختلاف البلدان)) . (المسند الصحيح ، ص: 405/406) .

(1) ـ وصف افريقيا ، ج :1 ، ص: 225/226 .

(2) ـ نفسه ، ج :1 ، ص: 261 .

(3) ـ انظر ابن خلدون : العبر ، مج :7 ، ص: 206 . التعريف ، ابن تاويت ، ص: 30 ، وابن مريم ، البستان ، ص: 126 . ومحمد عبد الله التنسي : نظم الدرر والعقيان تحقيق محمود بوعياد ، ص: 139 . الوزير السراج : الحلل السندسية في الاخبار التونسية ، ج :1 ، قسم 3 ، ص: 832/835 . والجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج :2 ، ص: 164/167 .

في هذه المدارس خلال مراحله الثلاث كان مجانيا (1).

وعندما تكلم الوزان عن مدينة بجاية ذكر بأن بها بعض المدارس دون اى احصاء (2). أما قسنطينة فذكر انها تحتوى على مدرستين (3)، ومدينة نقاوس أيضا بها مدرسة للطلاب يدرسون بالمجان، بل تتحمل المدرسة نفقاتهم في العيش واللبس (4). أما مدينة قرطاج فبها مدرسة ولكنها مهجورة (5). ولم يذكر الوزان عدد المدارس بمدينة تونس، وان كان قد أشار الى وجود بعض المدارس (6). كما ذكر بأن طرابلس كانت بها بعض المدارس في السابق، ويبدو أنه لم يجد أى أثر لتلك المدارس (7).

وهكذا شهدت المدارس بالمدن فقط، بينما اكتفى أهل البادية بالكتاتيب والزوايا. وان كانت الزوايا والكتاتيب أيضا موجودة في المدن. والزاوية في الحقيقة كانت في البداية عبارة عن مكان مخصص للعبادة، حيث يعتكف فيها الزهاد والمتصوفون للانقطاع والعبادة، ولكن التطور فرض عليها وظيفة جديدة، وهي التعليم. فخصصت بعض القاعات فيها لتكون كتابا لتدريس القرآن.

وهذا الامر ينطبق أيضا على الرباط. حيث كان الرباط منذ ظهوره - في بداية عهد الدولة العباسية - عبارة عن ثكنة عسكرية أمامية، مهمتها الجهاد في سبيل الله. وقد حتمت الظروف تطوير هذه المهمة في بلاد المغرب (8)،

---

(1) - الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج: 2، ص: 249. أما الوزان فيقول بأن بها خمس مدارس. (الوزان: وصف افريقيا، ج: 2، ص: 19).

(2) - وصف افريقيا، ج: 2، ص: 50.

(3) - نفسه، ج: 2، ص: 56.

(4) - نفسه، ج: 2، ص: 53.

(5) - نفسه، ج: 2، ص: 70.

(6) - نفسه، ج: 2، ص: 76.

(7) - نفسه، ج: 2، ص: 98.

(8) - أول رباط أسس بالمغرب هو رباط المنستير، وذلك سنة 180هـ/796م.

بحكم عامل الانتظار الذى يبقى عليه المجاهدون ، وطول المقام الـــذى ينجر عنه مرور سنوات دون فائدة تذكر ،ودون استغلال للوقــــت ، لذا فقد توسعت وظيفة الرباط الى مهام أخرى : كالتعليم،والعلاج ...الخ .

والمهم هنا أن الرباط والزاوية مؤسستان تعليميتان انتشرتا فـــي بادية المغرب ،بل اصبحتا تعبران عن الروح البدوية بسذاجتها وبساطتهـا . وكما ذكر سعد الله دخلت الزاوية كمؤسسة تعليمية في صراع مع المسجـــد والجامع والمدرسة ، ولما كان الناس وخاصة في البادية يميلون الى البساطة، فقد انتصرت الزاوية ، أما بانتزاع الطلبة واستقطابهم ،واما باجبار الجامـــع والمدرسة على السير على نفس المنهج الذى تتبعه الزاويـــة .

ب ـ الاساتـــذة والطلبـة :

جودة التعليم متوقفة أولا وقبل كل شيء على الاستاذ القادر على تقديـم العلوم الى تلاميذه .. وقد تنبه ابن خلدون الى هذا الامر ،حين تكلم عـــن ضرورة أخذ العلوم عن المشاهير من المعلمين (1) ،لان عملية التعلـــيم تخضع للاصطلاحات التي اختص بها كل عالم . فالعلم واحد في ذاته ،ولكـن اصطلاحات العلماء مختلفة ،وعليه فلا بد من السند في التعليم . ولن يتحقق السند في التعليم بالشكل المطلوب الا في ظل العمران والحضارة . ويعـلل ابن خلدون أسباب ضعف السند في تعليم العلم بالاندلس والمغرب في وقتـه الى اختلال العمران وتناقص الدول . ثم يعدد اسماء العلماء الذين هاجـروا

= ومن بعده اسس رباط سوسة سنة 821/206 م . وبعدها انتشرت الربـط في المغرب كافـــة . (انظر الفردبل :الفرق الاسلامية،ص: 99/100) .

(1) ـ يقول في ذلك : ((ان الحذق في العلم ،والتفنن فيه ، والاستيلاء عليـه ، انما هو بحصول ملكة في الاحاطة بمبادئه وقواعده ، والوقوف علـــى مسائله ، واستنباط فروعه من اصوله ... وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن والواحد ووعيها مشتركا بيـــن =

من مراكزهم الى جهات أخرى، حيث العمران الدافق والحضارة الزاهـرة (1). وهكذا يتواجد الاساتذة والعلماء الكبار حيث العمران والحضارة وينقرضون ويختفون بانقراض العمران ،والحضارة، وزوال الدولة الضامنة لأمنهم ومعاشهم. فبخراب القيروان في بلاد المغرب على أيدى القبائل البدوية انقرض السند فـي التعليم واضطر العلماء للهجرة (2).

وفي هذا السياق يشير الوزان الى حال المدارس والاساتذة والطلبـة في مدينة مراكش بعد تضعضع العمران بها فيقول: ((وفي القصبة أيضا مدرسة في غاية الحسن ،أو على الاصح مؤسسة معدة للدراسة وسكنى مختلف الطلبـة، تحتوى على ثلاثين حجرة،وقاعة في الطبقة الارضية ،كانت تعطى فيها الدروس فيما سبق. وكان كل طالب مقبول في هذه المدرسة يُنفق عليه ويُكسى مرة فـي السنة ، ويتقاضى الاساتذة مرتبا قدره مائة أو مائتا مثقال،حسب نوع الدروس.. لم يكن يقبل في هذه المدرسة الا من كان يعرف مبادئ العلوم معرفة تامة ... وكان بالمدرسة حسبما سمعت عدد كثير من الطلبة ،ولكنهم اليوم لايتجاوزون

= من شدا في ذلك الفن،وبين من هو مبتدئ فيه،وبين العامي الذى لم يحصل علما ، وبين العالم النحرير. والملكة انما هي للعالم أو الشادى في الفنون دون مـــن سواهما ... ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة الى مشاهـــير المعلمين فيها ، معتبرا عند كل أهل افق وجيل. ويدل ايضا على ان تعليـم العلم صناعة ،اختلاف الاصطلاحات فيه. فلكل امام من الائمة المشاهير اصطـــلاح في التعليم يختص به ،شأن الصنائع كلها ...)) (المقدمة،ج: 3،ص: 1119).

(1) ـ انظر ابن خلدون : المقدمة،ج: 3،ص: 1120/1121.

(2) ـ أنظر ابن خلدون: نفسه،ج: 3،ص: 1120ـ1125. وفي هذا يقول: الوزان: ((وقد ازدهرت العلوم الاسلامية بالقيروان في فترة من تاريخـها ، حتى ان معظم فقهاء افريقيا من المتخرجين منها. وبعد أن خرب الاعراب القيروان ،اخذت في الوقت الحاضر تمتلئ بالسكان ،لكن بكيفية بائسة..)). (وصف افريقيا ،ج: 2،ص: 91).

خمسة طلاب ، مع استاذ جهله بالفقه فاحش،ليس له سوى معرفة سطحية غامضة في الاداب ،وأقل من ذلك بعلوم أخرى))(1) .

وبالمقابل فالاساتذة والطلبة بمدينة فاس حيث العمران الواسع والحضارة الهاملة يتمتعون بظروف أفضل بكثير من الظروف المهيمنة على مراكش . اذ تتمتع كل مدرسة من مدارس فاس باساتذة اكفاء ومتخصصين في علوم شتى ، كما يستفيد الاساتذة باجور لائقة قد تصل الى مائتي مثقال . غير أن الطلبة تغيرت ظروفهم عما كانت عليه من قبل ،اذ كانوا يتلقون اعانة من المدرسة التي كانت تتحمل مصاريف عيشهم ولباسهم ومسكنهم لمدة سبع سنوات . وقد تُرِكَ هذا الامر في عهد الوزان،ولم يبق للطلاب سوى المسكن المجاني . والسبب في ذلك عائد الى الخراب الذى لحق بالبساتين والاملاك الموقوفة على المدارس . وما تبقى من تلك الاملاك لا يكفي سوى ما يقدم للاساتذة من اجور . لذا فان تلك المدارس لا يقيم فيها الا بعض الطلبة الغرباء الآتيين من خارج مدينة فاس ، وقد تكفل بحياتهم المعاشية بعض السكان من أهل فاس وأطرافها ،بما يقدمونه اليهم من صدقات (2) .

ومن هنا يمكن استنباط بعض الحقائق الهامة،منها : أولا : الخراب الذى لحق بالمزارع والاوقاف . وهذا طبعا يقود الى استرجاع ما سبق ذكره ، بخصوص الاثار السلبية التي انجرت عن العصبية القبلية في الميدان الفلاحي خصوصا ،والاقتصادى بصورة عامة . الامر الثاني هو التدهور الذى حدث في النظام الدراسي بمدارس فاس . وذلك أن ابن خلدون ذكر بأن الفترة الزمنية

---

(1) ـ الوزان : وصف افريقيا ،ج : 1 ،ص : 132/131 .

(2) ـ نفسه ،ج : 1 ص : 227 . وعندما تكلم عن طلاب العلم والاساتذة بمدارس تلمسان قال : ((بها كثير من الطلبة والاساتذة في مختلف المواد ، سواء في : الشريعة ،أو العلوم الطبيعية . وتتكفل المدارس الخمس بمعاشهم =

المخصصة لسكنى الطلبة في مدارس فاس كانت : ست عشرة سنة ، في مقابل خمس سنين بتونس (1) . وفي نص الوزان بأن المدة المخصصة أصبحت سبع سنوات ، وحتى هذه السنوات السبع انتهى أمرها ، وتركت نهائيا ، تبعا لقطع الاعانات النادية التي كانت المدارس بفاس تقدمها لطلابها . وبالطبع لا يمكن تبرئة القبلية من هذا التدهور الحاصل في ميدان التعليم ،لأن أثرها في الحقيقة اما يكون بصورة مباشرة أو غير مباشرة . فأثرها على النظام السياسي والاقتصادى سيمس حتما المدرسة وغير المدرسة من المؤسسات الثقافية التي تستند في حياتها على العمران والحضارة .

ومجمل القول ـ هنا ـ أن زوال العمران وضعفه لا يؤثران على الأساتذة والعلماء فحسب ، بل يؤثران أيضا على الطلبة ، حيث يتقلص عددهم ،عندما يزهد الناس في طلب العلم ، وينساقون نحو أسباب العيش لسد الحاجة . لأنه يتعذر عليهم العيش أثناء تعليمهم ، وربما احتقر بعضهم العلم وطلبه حين تطغى البداوة عليهم ، فيفضلون حياة الجهل عن معاناة الدراسة . وهذا ما أشار اليه الوزان حين تكلم عن سكان صحراء ليبيا اذ قال : ((وهذا الجهل (السائد بينهم) ناتج عن كون هؤلاء القوم لا يخصصون أى وقت

= بكيفية منتظمة)) (الوزان : وصف افريقيا ،ج :2، ص: 20/21) . ولكنه أضاف فيما بعد : ((والطلبة أفقر الناس لانهم يعيشون عيشة بئيسة في مدارسهم ،لكن عندما يرتقون الى درجة فقهاء يعين كل واحد منهم : أستاذا ، أوعدلا ، أواماما)) . (نفسه ، ج :1، ص: 21) . وذكر أيضا في موضع آخر بأن مدرسة نقاوس تقدم لطلابها المأوى ،والملبس،والمعاش، (نفسه ،ج :1، ص: 53) .

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج :3، ص: 1121 .

للدراسة، ويمتنعون عن مغادرة صحاريهم في طلب العلم))(1) . ولا داعي لتعداد الامثلة عن هذه الظاهرة المميتة، فهي كثيرة وعديدة في البوادي ببلاد المغرب .

وحتى تكمل الصورة، لا بد من الاشارة الى المعلمين في الكتاتيب، وصبيانهم . ففي مدينة فاس حيث ما يقارب المائتي كتاب يتقاضى المعلمون بها أجورا زهيدة لاتقضي حاجتهم . ومصدر تلك الاجور في الغالب من مداخيل الاوقاف . ولكن المعلم يستفيد ببعض الهدايا التي يقدمها اليه أولياء التلاميذ عندما يختمون بعض السور أو الاحزاب . وعندما يختم الطفل القرآن يقيم ولي أمره وليمة يُدْعَى اليها بقية التلاميذ، حيث تُنْشَد المدائح النبوية . وبعدها يقيم ولي الامر أيضا وليمة أخرى للمعلم، وبعض الاصدقاء . وهنا يقدم أصدقاء صاحب الوليمة هداياهم الى المعلم . ويقوم صبيان الكتاتيب باحياء احتفالات المولد النبوي، حيث يحضر كل واحد منهم شمعة كبيرة قد يصل وزن الواحدة منها الى ثلاثين رطلا . وما يبقى من تلك الشموع يبيعه المعلم، ويستفيد من أثمانها))(2) . وهذه العادة متبعة في بوادي المغرب أيضا، مع شيء من الاختلاف الذي يقتضيه مستوى معيشة السكان .

ج - **العلوم وطرق التعليم** : طرق التعليم المتبعة في المغرب خلال القرون الوسطى كانت طرقا تقليدية بنت عصرها . ومع هذا فثمة بعض التباين بين اساليب التعليم المتبعة في الامصار وبين الاساليب المعمول بها في الارياف . لأن الشكل العمراني ومستوى الحضارة يؤثران - بدون شك - في نوعية الاساليب

---

(1) - الوزان : وصف افريقيا، ج : 1، ص: 59 .

(2) - الوزان : نفسه، ج : 1، ص: 262/261 . وفي موضع آخر أشار الوزان الى تعليم الصبيان في تشيت بنوميديا، حيث قال بأن الذي يقوم بالتعليم هم النسوة وليس الرجال، اذ يقمن بتعليم البنات، والبنين حتى سن البلوغ)) (نفسه، ج : 2، ص: 116) .

التعليمية . وحتى الامصار نفسها فان طرق التعليم بها تختلف طبقا لمستوى حضارة المصر أو المدينة . فمدن الاندلس – على سبيل المثال – تعرف اساليب وطرق في التعليم أنجع وأرقى من الاساليب والطرق المتبعة في مدن المغرب وامصاره . ومدن المغرب بدورها لا تعرف نوعية واحدة في اساليب التعليم . فالاساليب المعمول بها في مدن افريقية افضل من اساليب التعليم في مدن المغرب، وبالطبع فان نوعية العلوم التي تدرس تتحكم في طرق تدريسها .

هذا وقد خصص ابن خلدون فصلا (1) . قارن فيه بين اساليب التعليم المتبعة آنئذ في كل من افريقية ،والمغرب ،والاندلس،والمشرق . اذ تبين له بان المادة الاساسية كانت القرآن الكريم . ولكن الاختلاف بين تلك الاقطار كان في الاكتفاء بالقرآن ،أو اضافة مواد الى جانبه : كالخط ،والاملاء والآداب . الخ

فمذهب أهل المغرب في التعليم يقتصر على تعليم القرآن واجادة رسمه . دون الالتفات الى المواد الاخرى : كالحديث والفقه والآداب ، حتى يصل الصبي الى سن الشباب ،حيث يصبح خلالها الطالب في مستوى يحذق فيه القرآن ورسمه (2) .

أما أهل الاندلس فيضيفون لصبيانهم عند تعليم القرآن وحفظه ، فنونا وعلوما أخرى كالخط ،وأساليب الترسل ،ورواية الشعر،وقواعد اللغة ... الخ .

وقد اقتبس عنهم أهل افريقية بعض اساليبهم في التعليم ، حيث يعلمون صبيانهم الى جانب القرآن الكريم الحديث الشريف ،وقواعد بعض العلوم .

---

(1) – فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه . (المقدمة ،ج :4 ،ص: 1359/1363) .

(2) – يقول ابن خلدون : ((وهذا مذهب أهل الامصار بالمغرب،ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم الى أن يجاوزوا حد البلوغ الى =

غير أن عنايتهم بالقرآن أكـــــثر .

ولما كان القرآن هو المادة الاساسية في التدريس فقد تغلبت طريقـــة الحفظ والاستظهار كاسلوب تعليمي ببلاد المغرب كافة . فاصبح طـــــلاب العلم بها يلجأون الى حفظ واستظهار مختلف العلوم الأخرى كالفقه، وقواعد اللغة ، والمنطق ... الخ . وقد اشار الحسن الوزان الى هذه الظاهـــرة حين لاحظ بأن بعض سكان قرية آية داود باقليم حاحا بالمغرب الاقصـــى يحفظون كتب الفقه والنوازل (1) .

واذا كانت هذه حال الامصار والمدن فان حال الارياف والقفـــار أدنى من هذا . لان العمران البدوى ابسط من العمران الحضرى، لذا فاساليب التعليم وطرقه تكون بدورها بسيطة . وهذا ما جعلها أكثر تزمتا وجفافـــا . وعليه فان اسلوب الاستظهار يكون هو السائد في تلك الربوع . كما أن العلوم المتداولة لا تتجاوز القرآن ورسمه . وهذا ما يمكن أن تقدمه مؤسسة بسيطـــة كالكتاب التي تقتصر عليها البوادى تقريبـــا .

وجملة القول أن بلاد المغرب الاسلامي عانت كثيرا من صبغة البداوة التي ظلت مهيمنة عليها . ولما كانت البداوة مختصة بالنظم القبلية ، فـــان التعليم بها يتميز بعض الشيء عما هي عليه حاله في المدن والامصار، ذات النظم الحضارية . وحتى الامصار والمدن في هذه الديار فقد بقي عمرانهـــا

= الشيبية . وكذا في الكبير اذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره . فهم لذلك اقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم)) . (المقدمة، ج :4، ص: 1360) .

(1) ـ قال في ذلك: ((يكثر فيهم المتضلعون في الفقه ، ويستظهر بعضهـــم النوازل والاحكام . وقد عرفت منهم شيخا يحفظ كتاب المدونة عـــن ظهر قلب ، يعني مجموع القوانين، ويشتمل على ثلاثة أجزاء، تتنـــاول بالدرس اصعب المسائل الفقهية، وتبين رأي الامام مالك فيها)) . (وصـف افريقيا، ج : 1، ص: 106) .

متخلفا بعض الشيء عن عمران الاندلس وبعض بلدان المشرق كمصر والشام مثلا . لذا فقد تأثر التعليم بشكل العمران القاصر في بلاد المغرب .

وما يعزز هذا الرأى هو التباين في مستوى التعليم بين مدينة وأخرى في بلاد المغرب . وتأتي البادية في آخر الركب بحكم النظام القبلي المهيمن عليها ، ذلك النظام الذى لا يعطي قيمة كبيرة للتعليم الا في جانبه الديني ، فكل اهتمام القبلية ينحصر في العامل الاقتصادى ذى الافق الضيق . ويؤيد هذا الرأى ما ذكره الوزان في مواضع عديدة من كتابه بخصوص اهمال التعليم في البادية ، وعدم اهتمام القبائل في تلك الربوع بتعليم صبيانهم ، حيث كانوا يفضلون توجيههم نحو الاعمال اليدوية المختلفة ، كالرعي والفلح وغيرهما . فهو يصف سكان تشيت بتخوم الصحراء بقوله : ((وهم قبيحوا المنظر ، سود البشرة تقريبا ، لاثقافة لهم ، بل النساء هن اللائي يتعلمن ، ويقمن بدور معلمات المدارس (الكتاتيب) للبنات والبنين . وعندما يبلغ الصبيان الثانية عشرة من عمرهم يستخدمهم أباؤهم في ممتلكاتهم ، اما لاستخراج الماء من البئر للسقي ، واما لقلب الارض)) . (1) .

ولما تطرق للقبائل الامازيغية المتواجدة في اعماق الصحراء علل سبب الجهل المنتشر بينهم فقال : ((وهذا الجهل ناتج عن كون هؤلاء القوم لا يخصصون أى وقت للدراسة ، ويمتنعون من مغادرة صحاريهم في طلب العلم)) (2) . وقال أيضا يصف سكان جبل بني يستيتن بالمغرب : ((تسكنه قبيلة من الرعاع ، يمشون حفاة ، ويلبسون اسمالا حقيرة ، ويسكنون أكواخا من قصب .... والتعليم عندهم منعدم فلا أحد يعرف القراءة ، وهم يسرحون كالاغنام بدون تفكير ولا ذكاء)) (3) . وفي هذا السياق أخذ

---

(1) ــ وصف افريقيا ، ج : 2 ، ص : 116 .
(2) ــ نفسه ، ج : 1 ، ص : 59 .
(3) ــ نفسه ، ج : 1 ، ص : 359 .

يصف القبائل المتواجدة في الجبال الرابطة شمال قسنطينة ،حيث قال :
((وليس هناك قاض ولا امام ،ولا أي شخص يعرف القراءة ،واذا احتاج الانسان الى قراءة رسالة فلا بد له من البحث عن يقرأها له على بعد اثني عشر أوخمسة عشرة ميلا من هناك)) (1) .

ومع هذا فثمة بعض الاستثناءات الشاذة التي تظهر فيها بعض القبائل في البوادي بمظهر ثقافي لائق . من ذلك أن بعض القبائل أضحت ربوعها مراكز ذات اشعاع نسبي ،فالقبيلة المتواجدة في جبل بني يرزو باقليم فاس - مثلا - شهدت مدرسة لتدريس علم الكلام ،قال الوزان : ((فيه مدرسة لطلبة علم الكلام ، اعفي السكان بسببها من الضرائب ،الى أن جاء احد الطغاة معانا من قبل ملك فاس ،فخربه (أي الجبل) ،واستحوذ عليه وعلى المدرسة التي وجد فيها كتبا تبلغ قيمتها أربعة آلاف مثقال ،وقتل رجالا محترمين معظمين ، وذلك عام 918 هـ/1512 م)) (2) . ثم يقول عن القبائل المتواجدة في جبل مطاسة باقليم الحوز بالمغرب : ((وينتمي كثير من ادباء فاس الى هذه المنطقة ، ويحسن الكثير من أهل هذا الجبل الكتابة بخط في غاية الاتقان ،ولذلك ينسخون عددا كثيرا من الكتب ،ويبيعون مخطوطاتهم في فاس)) (3) .

وبالمقارنة مع التعليم في المدن المغربية يتضح الفارق الكبير بين مستوى التعليم بالبوادي ومستواه بالمدن والامصار (4) . ومن هنا يتجلى

---

(1) - وصف افريقيا ،ج : 2 ،ص ص: 103/104 .
(2) - نفسه ،ج : 1 ،ص: 332 .
(3) - نفسه ،ج : 1 ،ص: 368 .
(4) - وصف الوزان مستوى التعليم باهم المدن في المغربين : الاقصى والاوسط وبافريقية . فظهر بأن التعليم كان مزدهرا بتلك المدن . بينما أظهر البوادي =

الاثر السلبي للبادية ومجتمعاتها القبلية الغارقة في بحار الجهل والحرمان .

2 ـ الفنون الجميلة والاداب : وتتجلى هذه الانشطة من خلال بعض الانماط الفنية التي تساعد أعضاء القبيلة على حفظ توازنهم النفسي، وتوطيد أواصر والمحبة بينهم ، وتعزيز العامل التربوي في وسطهم .

فعلى الرغم من خشونة العيش ضمن الاوساط القبلية ، وقساوة الحياة فيها ، فانها لا تنعدم من حلقات السمر في الليالي المقمرة، وخاصة في الفصول المعتدلة : كالربيع والصيف .. وفي تلك الحلقات الثقافية والترفيهية يستمتع اعضاء القبيلة بالسماع الى اهازيج المغنيين ،والى قصص الرواة وحكاياتهم المشوقة . بهذا يمكن اجمال تلك النشاطات في فنون الموسيقى والطرب ، والاداب الشعبية .

أ ـ فنون الموسيقى والطرب : تتعاطى المجتمعات الانسانية قاطبة فنون الغناء والموسيقى ،تعبيرا عن الافراح والاتراح ،اذ للحزن أغانيه وموسيقاه أيضا ، ولايقتصر الغناء على اوقات الراحة واوقات الفراغ فحسب ، بل يتغنى العاملون أيضا أثناء اداء عملهم ، فيساعدهم ذلك على اتقانه وانجازه بسهولة ويسر . ومع هذا فالغناء يتم عادة خلال مناسبات عديدة تتميز بالراحة والفراغ . من ذلك : حفلات الزواج ،والختان ، والولادة ، وحفلات السمر الخاصة والجماعية ... الخ .

فالموسيقى والغناء بالمغرب الاسلامي يختلفان باختلاف شكل العمران : فالعمران الحضري تتميز موسيقاه بالجودة والتعقيد ،بينما تتميز موسيقى العمران البدوي بالبساطة والبدائية . ويظهر هذا من خلال بعض الالات الموسيقية المستعملة في البادية أوفي المدينة . وعليه يستحسن معالجة

= بمظهر قاتم غير محمود . (أنظر التعليم بالمدن في كتاب وصف افريقيا ،ج : 1، ص: 85/86ـ106ـ131/132ـ197ـ215ـ224/227ـ261/262ـ 312ـ317 ،ج : 2 ،ص: 19ـ21ـ30ـ40ـ50ـ53ـ56ـ70ـ76ـ91ـ 98) .

الموضوع من جوانب محددة مثل : الآلات الموسيقية المعتمدة ، واساليب الغناء ، والرقص .

(1) ــ **الالات الموسيقية** : يختلف عدد انواع الالات الموسيقية تبعا لما هو موجود في المدن ، وما هو موجود في البادية . وبالطبع يتحكم في هذا الامر مستوى الحضارة والعمران في كلا الوسطين . وتكون المدن والامصار ــ في الغالب ــ مزودة بانواع من الالات تزيد عما هو عليه الحال في البادية . فاهل البادية ــ بحكم العمران البدوى ــ اكتفوا بما هو ضرورى من الالات . ويمكن حصرها ــ حسب طريقة استعمالها ــ ضمن الالات التي يعزف عليها بواسطة النقر (القرع) ، وآلات التي يعزف عليها بواسطة النفخ ، وآلات التي يعزف عليها بواسطة الاحتكاك (1) .

فالآت النقر (القرع) المعروفة في بادية المغرب الاسلامي هي الدف ويسمى أيضا المزهر ، أو الطار . ولدى الملثمين (التيندى) وهو عبارة عن طبل على شكل نصف كرة . اما آلات النفخ فواحدة في البادية وهي عبارة عن عما يسمى بالشبابة (2) . (أى القصبة في الحاضر) . اما الالة التي يعزف عليها البدو بواسطة الاحتكاك فهي الرباب . وربما استعملت أيضا للقرع ، فتغدو بمثابة (قمبرى) . وتوجد لدى الطوارق منذ القديم آلة على شكل نصف كرة يعزف عليها بحك أوتارها . وهي كالرباب ، مع بعض الاختلاف في الشكل .

أما في الامصار والمدن فالامر يختلف بعض الشيء ، حيث تعددت أنواع الالات باختلاف وظائفها واستعمالاتها . فكلما اتسع نطاق الحضارة كلما ظهرت ابتكارات جديدة في الالات الموسيقية . ويمكن هنا ذكر بعض الالات التي ثبت وجودها ببلاد المغرب . منها : القانون ، والبربط (العود) ، والقيثارة . وثمة نص يعدد بعض الآلات الموسيقية التي كانت تباع بدكاكين مدينة فاس ،

(1) ــ ابن خلدون : المقدمة ، ج : 3 ، ص: 1099 .

(2) ــ أشار ابن خلدون الى المزمار (الزلامى) (المقدمة ، ج : 3 ، ص: 1098) . =

أورده البيذق في سياق حديثه عن زيارة ابن تومرت لهذه المدينة في طريقه الى مراكش،حيث قال : ((وكانت الحوانيت مملوءة دفوفا ، وقراقــر(1) ، ومزامير ، وعيدانا ، وروطا (2) ، وأربية ، وكيثارات (3) . وجميع اللهـو، فقال لنا المعصوم : " اكسروا ما وجدتم من اللهو ... "))(4) . يضاف الى ذلك آلة البوق النحاسية التي أشار اليها ابن خلدون (5) .

ولاداعي للاسهاب وتعداد الالات الموسيقية بهذه الديار . وما يهم هنا هو الفارق بين المدينة والبادية في التفنن واستعمال الالات. فبينمـــا يلجأ الحضرى الى تحسين فنه ،واتقان فنون جديدة،يبقى البدوى فـــي تقوقعه وتحجره ضمن الآلة البدائية التي تحدد بدورها ألحانه ،بحكم بساطة تلك الالات ،وعجزها عن اصدار نغمات وترانيم جديدة . ولاغرابة في بقـــاء هذه الآلات حتى الآن سائدة في الاوساط القبلية بالبوادى . بل تشد الناس اليها كما تشد العصبية ابناءها الى حياضها . ولا سبيل الى انكار ذلـــك .

(2) - **الغنـــاء والرقص**: ان مصدر ألحان الاغاني التي كانت سائدة فـــي الفترة الزمنية المخصصة لهذا البحث اما من المشرق العربي (6) ،أو مــــن

= وقد ثبت وجوده في بلاد المغرب من خلال نص للبيذق(أخبار المهدى ابـــن تومرت ، ص:52) .

(1) - قد تكون قراقب وهي القطعتان الحديديتان اللتان تضرب معا لزيادة الايقاع، وهي معروفــة الان (بالقرقابـــو) .

(2) - ربما حرفت عن كلمة بربط أى العـــود .

(3) - من هنا يستدل على وجود القيثارة آنئذ ببلاد المغرب .

(4) - أنظر البيذق : أخبار المهدى بن تومرت،ص:52 .

(5) - المقدمـــة،ج :3، ص: 1099 .

(6) - عرف العرب نوعين من الغناء الاول هو السامر ، أو الهزج ،وهــــو الغناء الذى يستند الى كلمات منظومة وموزونة،فيأتي الغناء تبعا لذلـــك موزونا في ايقاعات معينة ،ويكون مرفوقا بالنقر على الدف،وأحيانا بنغمات=

بلاد الاندلس . لان المجتمع الامازيغي القديم – على ما يبدو – لم يكن يعرف له طابع خاص في الغناء ، سوى ذلك الطابع ذى الاصول الزنجية ذات البساطة والبدائية (1) .

اذن كيف توصل الغناء والطرب ببلاد المغرب الى ذلك المستوى المقبول آنــذاك ؟

فعند التأمل في المقامات الموسيقية المعروفة حتى الان في المجتمع المغربي يتبين بأنها امتدادا لتيارين رئيسيين : المشرق العربي ، والاندلس ، (وذلك بالاضافة الى الطابع الزنجي) . وبالطبع فان المدرستين (المشرقية والاندلسية) تنتمي الى التراث الحضارى العربي الاسلامي ، على الرغم من الاختلاف الظاهر في اسلوبيهما . فأهل الاندلس كانوا – في أول أمرهم –

= من المزمار . ويتم هذا النوع ضمن حلقات سمر بغرض الطرب . وهذا يستدعي – بالطبع – وضعا ثابتا غير متحرك . اما النوع الثاني فهو الحداء الذى يتغنى به الانسان اثناء سفره على راحلته . وهذا النوع لا تدخل عليه الغنيات التي يتميز بها النوع الاول . فالكلمات هنا قد تكون غير موزونة أحيانا ، وبالتالي فهو خال من النغمات التي تبعث على الطرب . (أنظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 3 ، ص ص : 1103/1104) .

(1) – نفى حسن حسني عبد الوهاب أن يكون المجتمع الامازيغي القديم قد عرف الفنون الجميلة بما فيها الموسيقى ويقول بأن سكان شمال افريقيا قديما كانوا يتغنون ببعض الالحان الساذجة التي وصلت اليهم – على ما يبدو – من بلاد السودان ، عبر الصحراء الكبرى . ويعلل ذلك ببقايا الالحان ذات الطابع الزنجي التي مازالت ببعض القبائل الامازيغية تتغنى بها . ثم ان امتزاج السلالتين : السامية والحامية ضمن هذا المجتمع يدعم هذه الفكرة ، كما أن بساطة الالات الموسيقية المستعملة لدى الامازيغ يدل على سذاجة موسيقاهم . (أنظر ورقات ، ج : 2 ، ص ص : 171/172) . وبالمقارنة بين الالحان لدى قدماء العرب ، والالحان =

يتغنون بطريقة الحداء ، كبقية العرب في المغرب(1) . بينما يتغنى نصارى الاندلس بطريقتهم (2) . ولما قدم زرياب (علي بن نافع) الى قرطبة سنة 206 هـ/821م ، نشر مذهب العراق الغنائي في الاندلس مع شيء من التطوير والتحسين . ومذهب زرياب هذا هوالذى دخل فيما بعد الى بلاد المغرب ، وعرف بالغناء الاندلسي (3) . وهكذا فقد تطور الغناء لدى أهل المغرب ، فانتقلوا من الحداء الى الترنم باغاني زرياب ، اذ بقي

* لدى قدماء الامازيغ يتضح بأن الموسيقى لديهما لم تخرج من حدود السذاجة والبساطة .

(1) ـ اورد البكري بيتا شعريا كان أهل المغرب يحدون به أثناء سيرهم ، وهو : (رجز)

لا نوم لا نم ولا قرارا * حتى أرى قابس والمنارا

(المغرب ، ص : 17) .

كما نقل حسن حسني عبد الوهاب بعض الاصوات (الابيات) التي كان أهل افريقية يحدون بها خلال العهدين : الاموى والعباسي ، منها :

(طويل) 1 ـ أشار بتوديع الى بنانها * اشارة محزون ولم تتكلم
2 ـ تجول خلاخيل النساء ولا أرى * لرملة خلخالا يجول ولا قلبا

(كامل) 1 ـ يا أم طلحة والديار بعيدة - * والنجم من غفلات قومك أقرب
2 ـ ولقد أردت الصبر عنك فعاقني * علق بقلبي من هواك قديم

(ورقات ج : 2 ، ص : 174) .

(2) ـ أنظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ج : 2 ص : 179 .

(3) ـ قال في هذا ابن خلدون : ((وكان للموصليين غلام اسمه زرياب ، أخذ عنهم الغناء فاجاد ، فصرفوه الى المغرب غيرة منه ، فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس ، فبالغ في تكرمته ، وركب للقائه ، واسنى له الجوائز ، والاقطاعات والجرايات ، وأحله من دولته وندمائه بمكان ، فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه .

في القيروان ما يقرب السنة قبل ذهابه الى قرطبة ،ثم مؤنس المغني الذى قدم الى افريقية من بغداد ،وظل ينشر معارفه في التلحين والغناء بتلك الديار قرابة ثلاثين حولا (1) .

اذن فاصول الموسيقى والغناء بالاندلس والمغرب عربية ،منها : ما هو عربي أصيل ،نبع في شبه الجزيرة ،ومنها ما هو مولد بفارس والبلاد الاسلامية الاخرى ، وقد انتقلت الطبوع العربية الاصيلة (الحداء والهزج) الى هذه الديار ، في اعقاب الفتح الاسلامي ،ومع النزوح الهلالي . أما الطبوع المولدة فقد وصلت الى المغرب والاندلس خلال العصر العباسي الاول ،بفضل هجرة بعض المطربين الكبار كزرياب ، ومؤنس ... الخ . وهكذا فان الطابع المولد في الغناء استقر حيث الحضارة والعمران . أما الطابع العربي الاصيل فقد انتشر في البوادى . وقد زاد في انتشار هذه الطبوع العربية الاصيلة الهجرة الهلالية (2) .

وبالتأمل والمقارنة يتجلى الفارق بين الغناء في الحواضر والغناء في البادية . فالالحان المولدة اقتضتها ظروف الحضارة والعمران ،فهي أرسخ في ميادين الفن ،وأصعب في الاداء ،كما تتطلب آلات أكثر تعقيدا وتطورا .

= الى أزمان الطوائف ،وطما منها باشبيلية بحر زاخر ،وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب ،وانقسم على امصارها ،وبها الان صبابة ، على تراجع عمرانها ،وتناقص دولتها . وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف ،الا وظيفة الفراغ والفرح ،وهي أيضا اول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه)) . (المقدمة ،ج : 3، ص: 1105) .

(1) — أنظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ،ج : 2،ص ص: 191/199 .

(2) — قام الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب بمعالجة موضوع الغناء البدوى بافريقية والمغرب ،مقارنا اياه بالغناء الحضرى فقال : ((فاذا كان الغناء الحضرى مولدا عن التقاليد الفارسية والتركية والاندلسية ، فان التلحين=

بينما ظلت الالحان البدوية قريبة من القالب الذى جاءت فيه من الجزيرة العربية . والى جانب هذه الطبوع العربية بقيت في الاوساط القبائلية الامازيغية صبابة من الالحان الساذجة ذات الطابع الزنجي .

هذا وقد عرفت هذه الديار فيضا من الالحان وجمعا كبيرا من المطربين الذين ابدعوا في الشدو والغناء ، وذلك في عهد الاغالبة وعهد الفاطميين والصنهاجيين من بعدهم ، ولكن ذلك كله قد انهار وتدهور تحت اقدام بني هلال وأحلافهم (1) . ولكن استعادت من المغرب شيئا مما أضاعته من الطرب والغناء وحب الموسيقى ، وكان أكثر المصدرين للموسيقى والغناء نحو بلاد المغرب هم أهل الاندلس فقد تخصصت بعض المجالس الاندلسيات في تدريس الغناء والعزف على الآلات الموسيقية الى الجواري ، بقصد بيعهن لملوك المغرب وأعيانه ، وقد وصل ثمن الواحدة الى ألف دينار مغربي وربما أكثر ، والذى يحدد قيمة الجارية هي قدرتها على الاداء وبراعتها في العزف وكثرة محفوظاتها

= والاشعار عند أهل باديتنا موروث من الاعراب المجاز وتجدد منذ أجيال وأحقاب خلت .. وليس من شك أن السكان الاصليين من البربر من هوارة وزناتة -في البلاد التونسية اقتبسوا من الهلاليين والسليميين الطارئين طرائق الغناء والانشاد ونسوا بحكم الغلبة والمعاشرات تقاليدهم البربرية القديمة .. بخلاف ما نشاهده عند أجوارنا الجزائريين والمغاربة من بقايا بربرية راسخة في مذاهب أغانيهم ولاسيما في جبال القبائل بالجزائر وما حولها -وفي شاوية بوادي المغرب الاقصى)) (ورقات ، ج 2 ، ص 253/252) .

(1) - كتب حسن حسني عبد الوهاب في ذلك ما يلي : ((... تفرق الادباء وأصحاب الفنون الى الاصقاع البعيدة ، ... أيدي ... فلما حدثت الكارثة الكبرى : هجوم (بني هلال وبني سليم) على افريقية ، فما بقي شاعر ولا فنان الا وقد فارق وطنه ... وان كانت قاصية نائية ... والمغربين الاوسط =

من الاشعار التي تغــــنى (1) .

ومن بين المدن التي اشتهرت بالفن والموسيقى ببلاد المغرب في الفترة المخصصة لهذا البحث : فاس، وتلمسان (2)، ودلس، وبجايـــة ، وتونس . وقد خص الوزان بالذكر منها : فاس، ودلس، وبجايـــة (3) .

أما في البوادي فقد ذكر حسن حسني عبد الوهاب أن العـادة قد جرت بأن يكلف شعراء البادية بعض عبيدهم بانشاد قصائدهم بألحـان وانغام شجية في الاعراس والحفلات المختلفة ، وقد يُتْبعون بعـــزف الشبابات أو الرباب ، وبايقاع الدفوف (4) . كما أورد مثالا لنمط مـــن الغناء البدوي ، في منتهى الاهمية ، ويسمى ((بطرق الصيد)) ، وهـــو عبارة عن ملحمة موسيقية ذات طابع رمزي وتعبيري ، على الرغم من أن العزف يتم بواسطة آلة واحدة فقط وهي الشبابة (أي القصبة) . ويبدو أن هذا النمط من الموسيقى مازال معروفا حتى الآن في باديـــة تبســة .

= والاقصى والاندلس، وقصد البعض الاخر اقطار المشرق ، وأصبحت الحضارة العربية الافريقية كأمس الدابر)) (ورقات ، ج : 2، ص: 226) .

(1) ـ أنظر تفاصيل ذلك في كتاب حسن حسني عبد الوهاب: ورقات، ج : 2 ص ص: 230/235 .

(2) ـ أنظر محمد الطمار : تلمسان عبر العصور، ص ص: 259/262 .

(3) ـ وصف افريقيا ، ج : 1، ص ص: 255ـ257 ، ج : 2، ص ص: 42ـ51 .

(4) ـ للاســــتزادة يستحـــسن الرجـــوع الى كتـــاب ورقـــات عـــن الحضـــارة العربيـــة بافريقيـــة التونسيـــة ، ج : 2، ص ص: 171/274 .

وبخصوص الرقص يمكن القول بأن لكل مجتمع طابعه فيه . واذا كان الرقص في أوساط ما يتم بغرض الترويح والترفيه ،فهو في أوساط أخرى يقام لاغراض دينية ودنيوية ،لانه في اعتقاد تلك الاوساط وسيلة هامة من وسائل التعبير ، فللافراح رقصاتها ، وللحرب رقصاتها ، وللعبادة رقصاتها ، وللعلاج رقصاته . . . الخ . ويرافق الرقص في الغالب ايقاعات وأنغام تؤثر في النفس ،وتنظم الحركات .

والقبيلة العربية والامازيغية -كغيرها من القبائل البشرية لها رقصاتها المعبرة أيضا ، والرقص يتم فرديا أو جماعيا . والرقص الفردى تقوم به امرأة واحدة أو رجل واحد . اما الرقص الجماعي فيشترك في أدائه جملة من الناس اما رجالا ،لاغير ،أونساء ، أومن الجنسين معا .

فالمعلومات التي تعرف بالرقص ،وتحدد مدى استعماله في ديار المغرب تكاد تكون معدومة تقريبا . وكل ما يمكن ذكره في هذا المجال . هو أن الرقص رافق الغناء والطرب في مساره الفني ببلاد المغرب . فجل محافل الغناء ومجالس الأنس التي كانت تعقد لم تكن تخلو من الراقصات والراقصين احيانا . وكذا الحال بالنسبة للاعراس والولائم ، فغالبا ما تقام بها حفلات الرقص والغناء (1) .

ويمكن تصور طريقة الرقص في تلك العصور من خلال ما بقي الآن من رقصات فولكلورية ببلاد المغرب . وهي في غالب الاحيان تكون اما جماعية واما فردية . فالفردية يقوم بها راقص أو راقصة . وهذا النوع من الرقص

---

(1) - وصف الوزان عرسا في مدينة فاس فقال : ((.. ويستمر الرقص طول الليل على انغام الموسيقيين والمنشدين ،ويتناوب الغناء والعزف في نحو مائة من الالحان العذبة اللطيفة . وفي كل مرة يرقص راقص واحد ،فاذا انتهى من رقصة أخرج من فمه قطعة نقود ورمى بها على بساط المغنيين . =

أكثره في المدن والامصار . أما الرقص الجماعي فمنتشر بالريف والصحراء . ويميل الرقص البدوي الى الخشونة ،بغرض ابراز الرجولة ،بينما يغلب على الرقص الحضري النعومة ومحاكاة الغواني ،في تمايلهن .

فالرقص الذي يتم فرديا يحدث في الاعراس والافراح الخاصة ، ضمن حلقات ضيقة . أما الرقص الجماعي فيقوم به عدد من الرجال أو النساء معا أو مستقلين عن بعضهم ،وذلك في حلقات عامة . وتعرف بعض النماذج من هذا الرقص الان ، في صحراء المغرب العربي وأريافه ،حيث تتم في مناسبات مختلفة . ويعرف منها على سبيل المثال : الصوافة ، والرحابة بالشرق الجزائري ، والعلاوي بغربه ، ورقصتي : التيندي ، والتاكوبا باقصى الجنوب (بتمنراست) ورقصة اللاغ بجانت . ولا يستبعد أن تكون هذه الرقصات هي نفسها التي عرفت في العصور الوسطى .

ب — الفنون الادبية : وتشمل هنا — الشعر ، والحكمة والامثال ، والسير والاساطير .

هذه الفنون وجدت — بدون شك — عناية خاصة في المجتمع المغربي ، وقد ثبت من المصادر التاريخية والادبية بأن القيروان كانت مركزا هاما من مراكز الثقافة والادب العربي منذ الفتح الاسلامي . وقد طما بحر الادب العربي في ربوع المغرب خلال عهد الاغالبة وعهد الفاطميين ،ثم عهد الصنهاجيين .

---

* واذا أراد أحد الاصدقاء أن يكرم الراقص دعاه لان يجثو على ركبتيه أمامه والصق على وجهه قطعا من النقود ينزعها المغنون بعد ذلك فورا . وترقص النساء بمعزل عن الرجال ، ولهن حفلاتهن الراقصة ، ومغنياتهن ، وعازفاتهن)) . (وصف افريقيا ج 1 ،ص 257) .

وقد ساعد على ازدهار الآداب في هذه الديار التشجيع الذى قدمه السلاطين والامراء للفنون والاداب . وقد تكون الفنون الادبية هي الوحيدة التي لم تندثر خلال الزحف الهلالي . وربما زادها ذلك الزحف نشاطا وازدهارا . غير أن ذلك النشاط الادبي اتجه وجهة جديدة مخالفة نوعا ما لما عهده أهل الحواضر . وحتى يسهل بحث الموضوع يستحسن معالجته مجزءا .

(1) __الشعر__ : جرت العادة في بلاد المغرب أن يقرض الشعر بالطريقة المعروفة لدى أهل الحضارة في الشام وبغداد . وذلك بالتقيد بقوانين الشعر وقواعده المعروفة في كتب العروض . وظل ذلك الحال الى أن قدم الهلاليون واحلافهم من الاعراب . فجلبوا معهم اسلوبهم الخاص في القريض (1) . ذلك الاسلوب الذى لا يتقيد بالاعراب ولا قواعد النحو . بل ولا حتى بالعروض . وان كانوا يضمون شعرهم في القوالب المعروفة (أى البحور الشعرية) .

---

(1) — أورد حسن حسني عبد الوهاب قطعة من هذا الشعر . وهي منسوبة الى الجازية أخت سرحان رئيس قبيلة دريد الهلالية . جاء فيها : (كامل)

لا خير في الطفل الصغير اذا نشا * وكان رقّاد كثير هائد .
اذا ما فق الشرق والغرب السوا * وقطع بين التنايا مزاوده
إما يموت ويرتاح من عيشة الردى * والا يعود كما الصقر الي مخالبه

(ورقات : ج : 3 ، ص : 95) .

ووردت في كتاب العبر بعض العينيات من شعر الهلاليين منها هذه الابيات التي تتغنى بقبيلة دريد . (طويل) .

تحنّ الى أوطان صبرة ناقتي * لكن مع جملة دريد خُوارها
دريد سراة البدو للجود منقع * كما كل أرض منقع الماء خيارها
وهم عرّبوا الاعراب حتى تعرّفت * بطُرُق المعالي ما يوفي قصارها
وتركوا طريق الهارمين ثنية * وقد كان ما تقوى المطايا حجارها

(ابن خلدون : __العبر__ ، مج : 6 ، ص : 51 محسن حسني عبد الوهاب : __ورقات__ ، ج : 3 ، ص : 94) .

وبالطبع فقد وجد هذا الاسلوب الشعرى اعتراضا وجفاء من طـــرف ادباء الحواضر المغربية . لانه في عرفهم مخل بقواعد اللغة والعروض. غـــير أن ابن خلدون نظر اليه نظرة العالم الاديب الذى لم يغلق على فكره فـــي حجرات التعصب . لذا فقد نقده من الوجهه البلاغية لا غير ،ولم يعـــط أهمية للاعراب . ثم قال : ((ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة ،وفيهـــم الفحول والمتأخرون . والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد ، وخصوصا علم اللسان ، يستنكرون هذه الفنون التي لهم اذا سمعها ، ويمج نظمهـــم اذا أنشد ،ويعتقد أن ذوقه انما نبا عنها لاستهجانها ، وفقدان الاعراب منها . وهذا انما أتى من فقدان الملكة في لغتهم .فلو حصلت له ملكة من ملكاتهـــم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها ،ان كان سليما من الآفات في فطرته ونظره . وإلّا فا الاعراب لا مدخل له في البلاغة ... ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلـــك . واساليب الشعر وفنونه موجودة في اشعارهم هذه ،ماعدا حركات الاعـــراب في أواخر الكلم ، فان غالب كلماتهم موقوفة الآخر . ويتميز عندهم الفاعـــل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام ، لابحركات الاعراب))(1) .

وهذا النوع من الشعر كان في ذلك العهد يسمى لدى أهل الحضـــر بالاصمعيات . أما في بلاد المشرق فيعرف بالشعر البدوى . وهذا الشعـــر - في الحقيقة - لا يقرأ بالطريقة المعهودة لقراءة الشعر الخاضع للاعراب . بـــل يتغنون به (2) بالحان قـــــد تكون بسيطة وقريبة من الحداء (3) .

---

(1) - ابن خلدون :المقدمة، ج :4، ص: 1436/1437 .

(2) - انظر ابن خلدون : نفسه، ج :4، ص: 1436 . حسن حسني عبد الوهاب، ورقات : ج : 3 ، ص: 113 .

(3) - كتب حسن حسني عبد الوهاب بخصوص هذا النوع من الشعر فقال : ((وقد يلاحظ الواقف على هذا النوع من الاصمعيات انه لاتراعى فيـــه قواعد الاعراب ، ولا يلتزم فيه قائله بالنحو والصرف في المفردات أن =

ومن يتتبع الحركة الادبية آنئذ سيكتشف ـ حتما ـ بأن الهلاليين قد احدثوا ثورة في بلاد المغرب بشعرهم هذا . والى جانب ما ذكر سابقا فان هؤلاء الاعراب ادخلوا شكلا جديدا من أشكال الشعر ، خاصة بادخالهم طريقة النظم التي سبقوا بها المولدين (1) .

هذا واشار الوزان بدوره الى شعر الاعراب ، اذ قال : ((ولا يغفل القول بأن لمعظم عرب نوميديا كثيرا من الشعراء ، ينظمون قصائد مطولة تتحدث عن غارات حربهم وصيدهم ، وتتطرق الى الغزل بغاية الرقة والظرف . وابياتهم مقفاة كابيات الشعر الايطالي الشعبي)) (2) . ثم يضيف في موضع آخر ((أنهم يحبون الشعر ، وينشدون بلهجتهم العامية أبياتا رائعة ، ولو أن هذه اللغة تعتبر اليوم فاسدة . وقد ينال شاعر مشهور أعجاب الامراء ، فيمنحونه صلات هامة . ولااستطيع أن اعرب لكم عن مدى صفاء اشعارهم ورقتها)) (3) . اذن فقد اكتشف الوزان بدوره جودة الاشعار البدوية من حيث البلاغة والجمال . ولم يهتم بما ظهر عليها من خلل في الاعراب . ومخالفة لقواعد النحو والصرف .

= اقتضى الوزن تأنيث المذكر أو تذكير المؤنث أو قصر الممدود . أو مخالفة القياس في الجمع والمفرد ، بل يجر الفعل المضارع ان اتى في قافية مجرورة . ولا تعجب اذا وجدت الكلمة مشددة وهي ليست كذلك أو بالعكس)) (ورقات : ج ، 3 ، ص : 112) .

(1) ـ كتب عن هذا ابن خلدون فقال : ((ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم ، يجيئون به معصبا على اربعة اجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه ، ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة شبيها بالمربع والمخمس الذى احدثه المتأخرون من المولدين)) . (المقدمة ، ج : 4 ، ص : 1436) .

(2) ـ وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص : 62 .

(3) ـ نفسه ، ج : 1 ، ص : 64 .

هذا وقد أورد ابن خلدون عينات من الشعر البدوي (الاصمعيات) ، الذي كان ينظمه انذاك اعراب بني هلال وسليم ، وجاء بعضه في المقدمة ، وبعضه الاخر في العبر ، وسيأتي بعضه ضمن الملاحق بآخر البحث ، غير أن سياق الموضوع يتطلب الاستشهاد ببعض الابيات هنا خاصة تلك الابيات التي تمجد القبائل بحكم العصبية ، من ذلك القصيدة التي نظمها أحد سادات هلال (من الدواودة) ، وهو سلطان بن مظفر بن يحي ، الذي قالها عندما كان سجينا لدى السلطان الحفصي ابي زكريا يحي بن عبد الواحد (1) ، ومطلع القصيدة : (2) ، (طويل)

يقول وفي نوح الدجا (3) بعد ذهبة * حرام على اجفان عيني منامها

الى أن يقول :

وتلقى سراة من هلال بن عامر * يزيل الصدا والغل عني سلامها

بهم تضرب الامثال شرقا ومغربا * اذا قاتلوا قوما سريع انهزامها

عليهم ومن هو في حماهم (4) تحية * من الدهر ما غنى بقبه حمامها (5)

ولا يعتبر الشعر عند الاعراب هلال وسليم شيئا كما ليا يهدف الى الترفيه

---

(1) ـ حكم من عام 627 هـ/1229 الى عام 647 هـ/1249م ، وهو مؤسس الدولة الحفصية .

(2) ـ أنظر ابن خلدون : المقدمة ، ج :4 ، ص ص: 1340/1439 ، ح ح ، عبد الوهاب : ورقات ، ج :3 ، ص ص: 109/110 .

(3) ـ البكاء في ظلمة الليل في السجن .

(4) ـ يساوي بين هلال ومن في حماهم (أي من حالفهم وجاورهم) ، فالعصبية هنا لا فرق بين أهل القبيلة ومن جاورهم وحالفهم .

(5) ـ القبة من الخيام : بيت من الشعر ذو شكل مستدير ، (أنظر ابن منظور لسان العرب ، ج :3 ، ص :4) .

أو إلى اشباع النفس بما تتذوقه ،بل يعتبر الشعر عندهم -كما كان الحال عند عرب الجاهلية - اداة تعبير واعلام لا بد منها . وهؤلاء الاعراب يمكن اقناعهم واثارتهم بسهولة بواسطة الشعر . وقد فطن خلفاء الموحدين الى هذه الحقيقة حيث استعملوا الشعر بغرض اثارة عزائم بني هلال وسليم ، وحثهم على الالتحاق بانصار الدولة والجهاد في الاندلس، بل ثمة من ينسب الى عبد المؤمن بن علي قصيدة في هذا المعنى (1) حرك فيها عصبيتهم بادعائه فيها بأنه ينتسب اليهم في حقيقة الأمر (2) .

وهذه القصيدة طويلة وشحنت بالتحريض والاغراء ،واثارة العصبية الكامنة في نفوسهم . وبالفعل فقد اعطت اكلها ، وحققت مقصدها ، وقد اتبع سلاطين المغرب جميعهم تقريبا هذا الاسلوب في استثارة الاعراب . والقصيدة التي بعث بها حاجب السلطان ابي زكرياء الحفصي محمد بن الحسين نيابة عن سيده الى شيخ اعراب الدواودة تدخل في هذا

(1) - نسب عبد الواحد المراكشي هذه القصيدة الى عبد المؤمن بن علي، وقد نسبها آخرون أيضا اليه ، الا أن ابن صاحب الصلاة نسبها الى شاعر معاصر له اسمه ابن عياش ،وقد نظمت حسب رأى ابن صاحب الصلاة بأمر من أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . أى بعد ممات عبد المؤمن . (انظر ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ، ص ص: 415 / 417 . وعبد الواحد المراكشي :المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، ص ص: 225/225) .

(2) - جاء في هذه القصيدة : (الطويل) .

اقيموا الى العلياء عوج الرواحل * وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر * وشدوا على الاعداء شدة صائل
وأسرعوا بني قيس الى نيل غاية * من المجد تجنى عند برد الاصائل
فما العز الاظهر اجرد سابح * تموت الصبا في شده المتواصل
وأبيض مأثور كأن فرنده * على الماء محبوك وليس بسائل
بني العم من عليا هلال بن عامر * وما جمعت من باسل وابن باسل،

السياق ولكنها لم تفعل مفعولها ، اذ أجابه بقصيدة أروع منها وسيأتي ذكرها في ملحق خاص في آخر البحث .

وأورد التجاني بدوره قصيدة بعثها ابن غانية (يحي بن اسحاق ابن محمد بن علي المسوفي) الى اعراب بني سليم يستحثهم الى نصرته ، بتحريك عصبيتهم ، حيث يدعي بأنه ينتسب اليهم ، ويطالبهم بصلة الرحم ، بعد أن يعيرهم بانقيادهم لقراقوش الارمني . وجاء في هذه القصيدة : (بسيط) .

بَلِّغْ سُلَيْماً عَلَى بعدِ المَزارِ لَهاَ * بَيْنِي وَبَيْنَكُم الرَّحْمَنُ وَالرَّحِمُ
يا قَوْمَنا لاَتَشُبُّوا الحَرْبَ إِنْ خَمَدَتْ * وَاسْتَمْسِكُوا بِعُرَى الإِيمانِ وَاعْتَصِمُوا
يَقُودُهُمْ أَرْمَنِيٌّ لاَ خَلاَقَ لَـهُ * كَأَنَّهُ فِيهِمْ مِنْ جَهْلِهِمْ عَلَمُ (1)

بقي الان الحديث عن شعر الامصار والمدن المغربية . ومن الضروري التذكير بأن الشعراء ببلاد المغرب ، خلال القرنين الاولين بعد الهجرة ، كان جلهم من المشرق (2) ، ولا يمكن اعتبارهم من شعراء المغرب ، وبدءا بالقرن الثالث للهجرة ظهرت بوادر الشعر المغربي ، الذي يتميز بنفس الصفات والمقاييس المعروفة في المشرق ، والذي يختص بالصفة المغربية هنا هو قائل الشعر لا غير ، وهكذا ظهر في تيهرت الشاعر الفحل بكر بن حماد الزناتي (توفي سنة 296هـ/908م) . وقد ذاع صيته في المغرب والمشرق معا (3). وفي القيروان ظهر الشاعر المجيد أحمد بن

---

(1) ـ التجاني : الرحلة ، ص: 115.

(2) ـ حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ، ج :1، ص: 131/164 . محمد ابن تاويت : الادب المغربي ، ص: 102/104.

(3) ـ الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج :1، ص: 179/180. حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات ، ج :1، ص: 255/257 . أنظر ديوانه المطبوع بالجزائر بعنوان الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي ، عن=

ابراهيم اللولوى (توفي سنة 318 هـ/930م) (1) . وينتسب الى طبنة قاعدة الزاب محمد بن الحسين التميمي الطبني (توفي بقرطبة سنة 394هـ/ 1004م) . (2) وينتسب الى المسيلة (المحمدية) الحسن بن رشيق، وهو من ابرز شعراء القرن الخامس الهجرى في المغرب كافة (توفي سنة 463هـ/ 1071م) (3) .

ومجمل القول أن شعراء امصار بلاد المغرب المجيدين قليلون ، ومقلون أيضا . وذلك بالمقارنة ببلاد الاندلس . ومع هذا لايمكن انكار ما ابدعته النخبة المذكورة في باب الشعر ، وحتى بعد تكاثر الشعراء بعد القرن السادس الهجرى فان انتاجهم لم يصل الى المستوى المطلوب من الجودة . وقد عبر عن هذا ابن خلدون حين تكلم عن عجز أهل الامصار أما م تحصيل الملكة الشعرية واللسانية فقال : ((وكذلك اشعارهم كانت بعيدة عن الملكة ، نازلة عن الطبقة ، ولم تزل كذلك لهذا العهد ، ولهذا ما كان بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق وابن شرف (4) . وأكثر

---

(1) المطبعة العلوية بمستغانم سنة 1385 هـ/1966م . وقد قام بتحقيقه محمد بن رمضان شاوش .

(1) ــ حسن حسني عبد الوهاب : ورقات، ج : 1، ص: 167/166 .

(2) ــ ابن سعيد المغربي : المغرب في حلي المغرب، تحقيق : شوقي ضيف ، ج : 1، ص: 207/206 . الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ج : 1، ص: 212 .

(3) ــ العماد الاصفهاني : جريدة القصر وخريدة العصر ، تحقيق آذرتاش آذرنوش، ج : 2، ص: 233/230 . السراج : الحلل السندسية ، تحقيق : محمد الحبيب الهيلة، القسم : 1، ص: 282/278 ، والقسم : 4، ج : 1، ص: 952/949 . والجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ج : 1، ص: 271/270 .

(4) ــ أنظر العماد الاصفهاني : المصدر السابق، ج : 2، ص: 230/224 .

ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها ، ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن مائلة الى القصور)) (١) .

اذن فعندما دخل اعراب بني هلال بإحلالهم الى ديار المغرب وجدوا صناعة الشعر فيها متواضعة وليست كما هي الحال في الاندلس، وكان أصحاب هذه الصناعة مقلدين للاندلسيين والمشارقة، من أهل الحواضر. ولما نشر الهلاليون شعرهم الذى كان مرآة لحياة البادية ، بتمردها وحريتها ، استنكر أهل الحواضر من علماء اللغة والعروض هذا الطراز من الشعر المتمرد على القواعد الموضوعة . والحادثة غالبة كما هو معلوم. ومع هذا لاسبيل الى نكران جودة الشعر البدوي الزاحف على حواضر المغرب . بل أن شعر (الاصمعيات) بلغته العربية الفطرية يكون قد وقف في وجه المحاولات البسيطة التي انطلقت اساسا من حواضر الاندلس والمغرب التي كانت تحتضر بفعل التقلص العمراني الذى انجر عن الفتن المتوالية ، سواء كانت بسبب البداوة أو العصبية ، أو بسبب أمراض أخرى أنتابت الحضارة التي تكون في الغالب نهاية العمران .

ومن المحاولات الشعرية التي ظهرت في بلاد المغرب هي الاشعار العامية التي جاءت نتيجة للتأثير الذى صدر عن شعراء البادية من جهة ، وتأثير الموشحات من جهة أخرى ، فكان ظهور الازجال بالمدن أمرا حتميا ، فرضته طبيعة المجتمع آنئذ . ذلك المجتمع الذى تضعضع عمرانه ، وانتشرت الامية فيه . بحيث تغلبت ثقافة الارياف على ثقافة المدن . لذا وجد الشعر العامي (الازجال) انصارا اقوياء له استطاعوا أن يفرضوه ، حتى داخل

---

(١) — ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص 1403 .

قصور الاعيان وبلاطات السلاطين (1) . وقد زادت في نصرته وتدعيمه صلاحيته للتلحين والغناء .

هذا ولايعيب الازجال في الحقيقة سوى لهجتها البسيطة والمبتذلة. أما فنيات الشعر الاخرى فمتوافرة في هذا النوع من النظم . وعليه فقد اشتهر في هذا الفن شعراء مجيدون مثل : محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان (توفي بقرطبة سنة 555 هـ/1160م) ، ويعتبر هو رائد الشعر الزجلي بالاندلس ، وربما نظم آخرون قبله ازجالا (2) ،الا أن ابن قزمان برع في نظمه الى غايته ، وذكر ابن سعيد بأن الذى دفعه الى كتابة الزجل هوعجزه أمام ابن خفاجة وغيرة ،لانه في الحقيقة كان ينظم الشعر المعرب في البداية ، ثم تحول عنه الى ما هو سهل وخال من المنافس المتمكن (3) .

ومن الزجالين الذين اشتهروا في المائة السابعة يحي بن عبد الله ابن البحيضة . وكان كما يقول ابن سعيد : ((له أزجال على طريقة البداة التي يتغنون بها على البوق)) (4) .

(1) ـ أنظر الزجل الذى مدح به أبوعبد الله الالوسي السلطان ابن الاحمر في مقدمة ابن خلدون ،ج :4 ، ص: 1464/1467 .

(2) ـ أنظر ابن خلدون : المقدمة ،ج :4 ،ص: 1460 .

(3) ـ أنظر ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ،ج :1 ،ص: 100/ 101 .

(4) ـ من ازجاله :

دعن نشرب قطيع صاح .
من دِنَاسِتِّ المـلاح .
ونصاحب من لس فيه شقا .
يازغلا شدوا الاكفا .

(المغرب في حلي المغرب ،ج :1 ،ص: 177/178) .

وكان يغلب على هذا النوع من الشعر الابتذال والسفاهة. وقد سادت هذه الظاهرة في مدينة فاس بالمغرب، حيث اشار اليها الوزان عندما تكلم عن شعراء الملحون بهذه المدينة ، وما يعلنونه في اشعارهم من مظاهر الشذوذ . وهذا بالطبع منتهى ما وصلت اليه الحضارة من انحلال وتفكك . (1) ويقول ابن خلدون في هذا الباب: ((ثم استحدث أهل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح ، نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا ،وسموه عروض البلد ... وتركوا الاعراب الذى ليس من شأنهم ، وكثر سماعه بينهم ، واستفحل كثير منهم ، ونوعوه أصنافا الى : المزدوج ، والكارى ، والملعبة ، والغزل ، واختلف اسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها)) (2) .

وتزايد عدد شعراء العامية في المغرب الاقصى جاء تبعا لتأثير الاندلس وازجالها، وتأثير الشعر البدوى ببلاد المغرب.وممن اشتهر في المغرب ابن المؤذن سلمان ، والكفيف ، وهذا الاخير -كما قال ابن خلدون -من فحول الزجالين وكان يسكن بزرهون ، في جهات مكناسة. وقد اورد له ابن خلدون قطعة زجلية صور فيها حملة ابي الحسن المريني على افريقية وهزيمته أمام أعراب القيروان .

وبذلك سجل هذا الزجال حركة ابي الحسن ، وما تعرض له من هزيمة ، في ملحمة طويلة،مليئة بالملامة،والنقد، والتأسف . وعند قراءتها

---

(1) -أنظر الوزان : وصف افريقيا ،ج :1 ،ص:260 .

(2) -المقدمة ،ج :4 ، ص:1467/1468 .

يتضح بأن اللهجة التي قيلت بها هذه الازجال بقيت تقريبا على حالهـــا الى الآن ، دون تغيير يذكر . كما أن طريقة النظم مازالت سائدة فـــي شرق الوطن الجزائرى وغربـــه (1) .

وثمة أيضا بعض الازجال التي قالها رجال من الصوفية ، وبعـــض المجاذيب والدراويش . ومن بين أزجال الصوفية ما قاله سيدى ابومديـــن شعيب بن الحسين الانصارى (2) . (توفي سنة 594 هـ/1197م) ودفن بالعباد خارج تلمسان . وهذا الزجل نظمه على طريقة الصوفية الـــتي توحي بأن اغراض شعرهم تأتي في الغزل ، نظرا لما يستعيرونه مـــن العبارات التي تهواها العامة مثل : الحب والمحبوب ، والعشـــق ، والمعشوق ، وكؤوس الخمر ، والطلا ... الخ ، ولكن هذه العبارات فـــي الحقيقة لها مقاصد أخرى ، تخالف مقاصد أهل المجون . اذ هي موجهـــة لحب الله، والارتواء بالايمـــــان (3) .

وعند قراءة نماذج من هذا الشعر يتبين المستوى الذى اصبـــح عليه الشعر المغربي ، وخاصة عندما يكون قائله عالما كابي مدين شعيـــب. اذ يتضح بأن ابا مدين وامثاله كانوا يتعمدون البساطة لتسهيـــل الفهم ، وتقريب افكارهم من العامة الذين تغلبت عليهم البداوة بتلاشـــي العمران ، وضعفـــه .

---

(1) ـ أنظر الملحق الشعـــرى .

(2) ـ أنظر ترجمة في كتاب يحي ابن خلدون : بغية الرواد ج : 1 ص ص: 125/126 . وكتاب احمد الغبريني : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ص ص: 55/65 . وكتاب ابن مريم : البستان ، ص ص: 108/114 .

(3) ـ أنظر كتاب الجواهر الحسان في نظم اولياء تلمسان ، تحقيق نعبد الحميد حاجيات . فهذا الكتاب يضم بعض الازجال والاشعار التي تدخل في هـــذا المـــعنى .

وقد عرفت بلاد افريقية أيضا ظاهرة الازجال في المدن . الا أن ابن خلدون قال بأنها كانت رديئة ، ولم تصل الى مستوى ازجال فاس (1) . بينما اشاد بازجال العراق ومصر .

وبهذا تكون أزجال أحمد بن عروس هي الوحيدة المعروفة حتى الآن ، والتي تمثل الزجل الشعبي بالمدن الافريقية ، وقد كانت اقواله منظومة في اغراض الحكم والامثال . لذا سيأتي مثال عنها ضمن الفقرات المخصصة للامثال والحكم .

أما شعر البادية/(الاصمعيات) فقد ساد آنئذ على ديار افريقية والمغرب الاوسط ، بحكم الزحف الهلالي ، وتغلب على تلك المناطق . وعليه فقد تأثر أهل المدن بذلك الطراز من الشعر العربي . ومع هذا فشعر الاعراب يتميز على الازجال الحضرية بمتانة الصياغة واصالتها ،وسلامة اللغة العربية ، بل يمتاز أيضا بالعفة وسلامة الذوق . ولكن شعر الاعراب مع هذا يبقى في مستوى أدنى من الشعر الفصيح المقفى، والذى يلتزم بقواعد الاعراب (2) .

والذى يمكن استخلاصه من هذا كله ،ان هذا الاتجاه نحو الشعر الملحون والازجال يدل على تقهقر اللغة العربية وقواعدها . وبما أن اللغة في الحقيقة كانت محفوظة وباقية في المجتمع المغربي ، بفضل المنظومة التربوية آنئذ (المدرسة والجامع)،فان غياب التعليم والدراسة

(1) ـ المقدمة ، ج :4 ، ص: 1472 .

(2) ـ يمكن الرجوع الى نماذج من الفصيح الذى قاله بعض شعراء المغرب في كتاب العماد الاصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق : محمد المرزوقي وآخرون ،ج :1 ، القسم الخاص بشعراء المغرب .

في بعض الاوساط قد زاد في عنفوان الامية والجهل . وربما كانت ظاهرة الامية سائدة اكثر فاكثر في الاوساط القبلية المنتشرة في جبال المغرب ، وسهوله ، وصحرائه .

وبحكم الامية والجهل بقواعد اللغة العربية ، سادت اشعار العرب المستعجمة (كما سماها ابن خلدون تبعا لفساد لغتهم العربية) . وحتى سكان المدن اخذوا في نظم الازجال والشعر الملحون في الاغراض كلها ، تماشيا مع مقتضى الحال الذى يتطلب السهولة والسذاجة .

والشيء الذى يلفت الانظار حقا هو لجوء بعض العلماء والمتصوفين الى هذا النوع من الشعر العامي . واتجاههم هذا فرضته عليهم الاوضاع التي اضحى عليها الناس ، فلجأوا الى تسهيل وسائل تعبيرهم لكي يفهمهم العامة ، اذ العامة هم المقصودون بدعوة اولائك العلماء والمتصوفين .

وهكذا تقهقر شعر ابن رشيق ، وشعر ابن شرف ، وابن الخطيب ... الخ . وحل محله الشعر البدوى والعامي (ملحون وازجال) . وحتى لو كان الشعر - كما قال ابن خلدون والوزان من بعده - جيد المعنى ، سليم الذوق ، بليغ الصياغة ، الا أنه يبقى في الحقيقة دون الشعر الفصيح في الجودة والبلاغة ، وحسن الصياغة . وذلك بالاضافة الى سلامة اللغة والاعراب . وبالطبع فان هذا التقهقر نتج عن ضعف العمران وانقراض الحضارة ، وتغلب البداوة على ديار المغرب ، وسيادة الاعراب والقبلية .

(2) - <u>الامثال والحكم</u> : أما الامثال والحكم فلهما علاقة وارتباط متينين مع فن الشعر ، لأن كثيرا من الاشعار الفصيحة والعامية مشحونة بالامثال والحكم . ومع هذا فان الامثال والحكم يتناقلها الناس أيضا مستقلة ، ولكنها

تكون في الغالب موزونة ومتناسقة حتى تكون بليغة وتؤثر في السامعين. هذا وقد يضيق المجال هنا عن تعداد الامثال المتناقلة بين النـــاس في المغرب الاسلامي ، وربما تطلب ذلك دراسة خاصة تستثمر فيهـــا مصادر ادبية عديدة .

علما بأن الامثال والحكم ببلاد المغرب تملاء الدواوين الأدبيـــة. والاشعار التي قيلت عبر العصور . وحتى الاشعار التي قيلت بالعاميـــة فهي لا تخلو من حكمة أو مثل . وخير شاهد على ذلك اشعار أحمــــد ابن عروس الهواري التونسي (1) ، وعبد الرحمن المجذوب ....وغيرهما .

فاما أحمد بن عروس فقد توفي بمدينة تونس سنة 868 هـ/1463م (2) وكان قوالا على طريقة الدراويش وأهل الحكمة والتصوف ، فجمعـــت له مقطوعات عديدة في ديوان . وكانت مقطوعاتهالشعرية تهدى الـــى نساء تونس اللائي يعتقدن في كراماته . وبالمقابل يقدمن وزنها ذهبـــا الى نائب الزاوية (3) .

(1) ـ ثمة أحمد بن عروس آخر ولد في صعيد مصر سنة 1194 هـ/1780م ، وقد جاء في فترة متأخرة عن ابن عروس تونس . وربما تأثر ابن عروس المصرى باشعار التونسي . وحتى التسمية تبعث على الاعتقاد بـــأن طريقته كان لها انصار في صعيد مصر ، لذا سمي الشاعر المصرى أحمد بن عروس أيضا .

(2) ـ كتب عنه عمر بن الجزيرى الرشيدى كتاب ابتسام العروس ووشي الغـــروس في مناقب سيدى أحمد بن عروس ، وطبع بمدينة تونس 1303 هـ/1885م .

(3) ـ من أشعـــاره التي تدخل في باب الامثال والحكم :

صوبت للـــواد نشـــرب * وطلعت من ثم ضامـــــــي
كلمـــت من ليس يفهـــم * أواه خســـارت كلامـــــــي

(حسن حسني عبد الوهاب: ورقات، ج :3 ، ص: 99 ، محمد الهادى العامرى : تاريخ المغرب العربي ، ص: 213) .

أما عبد الرحمن المجذوب فهو من المغرب الاقصى ، وتوفي سنة 976 هـ/1568م (1) . وقد جمعت اشعاره الحكمية ضمن ديوان صغير، وقد قام نور الدين عبد القادر بنشر ديوانه بواسطة المطبعة الثعالبية والمكتبة الادبية بالجزائر ، بعنوان القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمن المجذوب .

وقد أورد ابن خلدون في مقدمته بيتين قال انهما من شعر الامثال والحكمة التي يتناقلها اعراب بني هلال (2) .

وطلبك في الممنوع منك سفاهة * وصدك عمن صد عنك صواب

اذا ريت ناسا يغلقوا عنك بابهم * ظهور المطايا يفتح الله باب

(3) -السير والاساطير : بقي الان معرفة ما مدى أثر الاساطير والسير البدوية في الاوساط الشعبية بالمغرب الاسلامي آنذاك . في الحقيقة يبدو أن بحث هذا الموضوع ليس سهلا . لان منابعه ضحلة ، ومصادره شحيحة ، لا تفي بالحاجة . ولا يرجع هذا الى ضعف الخيال المغربي ، لان العلة -في الحقيقة- تكمن في أن هذا الشعب مر بظروف امنية ، وسياسية، واقتصادية جعلته لا يلتفت كثيرا الى ميدان الاساطير وتأليف السير الشعبية . وهذان الفنان لا يزدهران الا في الاوساط المستقرة ، حيث يستغل الفراغ في تأليف الاساطير والسير ، بغرض الترفيه من جهة، وكسب العبرة من جهة أخرى .

---

(1) -من اقواله :

أ -ياذا الزمان الغدار * ياكاسرني من ذراعي

طيحت من كان سلطان * وركبت من كان راعي

ب -تخلطت ولا أبت تصفى * ولعب خزها فوق ماها

رياس على غير مرتبة * هما سبب خلاها

(عبد الرحمان المجذوب : القول المأثور، ص: 18 -31) .

(2) -المقدمة ، ج :4 ، ص: 1442 .

مما جاء في المصادر العربية عن بعض الحكايات الامازيغية، الفصل الذى كتبه البكرى في هذا الغرض وعنوانه : ((ذكر نبذ عن سير البربر وسياستهم)) (1) .

وفي هذا الفصل سرد البكرى بعض الحكايات الامازيغية . أما ابن خلدون فقد اشار الى تناقل حكاية الجازية الهلالية وتداولها في الاوساط المغربية ، بعد دخول بني هلال واحلافهم الى هذه الديار. وقال في ذلك :((ويتناقلون من أخبارها (الجازية) في ذلك ما يعفي عن خبر قيس وكثير ، ويروون كثيرا من اشعارها محكمة المباني ، متفقة الاطراف . وفيها المطبوع ، والمنتحل ، والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شيء . وانما اخلوا فيها بالاعراب فقط ، و لامدخل له في البلاغة ... الا أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها ، ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الاعراب ... ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد ايامهم ووقائعهم مع زناتة وحروبهم ... لكنا لا نثق بروايتها ... وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفا عن سلف، وجيلا عن جيل . ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمي عندهم بالجنون والخلل المفرط لتواترها بينهم)) (2) .

اذن ... كيف كان هؤلاء الاعراب يتناقلون حكاية الجازية وسيرة زحف اسلافهم الى بلاد المغرب ؟ مما لاشك فيه ان ذلك كان يتم في حلقات السمر ، التي تنظم لهذا الغرض في الليالي المقمرة ، حيث يجتمع اعضاء العشيرة ، أو في حلقات الاسرة ، حول موقد النار في الفصول الباردة . وربما يتم ذلك أيضا في الاسواق كما هي الحال في هذه الايام ، حيث

(1) ـ المغرب ص:184 .

(2) ـ العبر مج :6، ص:39/40 .

يجلس ما يسمى الان بالمداح محاطا بحلقة من المستمعين ، ثم يقوم بسرد سيرة الجازية (وبني هلال) ، وعندما يصل الى رواية الشعر يترنم به مرفوقا بعزف الرباب . وفي الغالب يتميز رواة السير والاساطير بموهبة الالقاء وحسن الغناء .

وبالاضافة الى سيرة بني هلال وجازيتهم ثمة سير وحكايات واساطير اخرى يحتمل جدا أن تكون متداولة في المجتمع المغربي كافة ، من ذلك سيرة عنترة ، وسيرة علي بن أبي طالب مع رأس الغول والجن ، وسيرة سيف ابن ذى يزن ... الخ من القصص العربية التي تتناقلها الاوساط الشعبية في البلاد العربية كافة (1) .

ثانيا : <u>المعتقد الديني</u> : يتجلى المعتقد الديني في المجتمعات القبلية عموما من خلال الطقوس والشعائر التي يقوم بها أعضاء القبيلة . والديانة - في الحقيقة - خلقت مع الانسان منذ نشأته (2) ، حيث اقتضت مشيئة الله بأن تقيم البشرية الى مؤمن بالله ورسله والى ضال جاهل . فالمؤمنون يعيشون ضمن قبائل هداها الله الى دين الحق ، والضالون بقوا في جهلهم المتمثل في عبادة أرواح الاجداد (3) ،

(1) - للتوسع يستحسن الرجوع الى البحث الذى اعده عبد الحميد بورايو ابن الطاهر وهو بعنوان <u>القصص الشعبي في منطقة بسكرة</u> ، من نشر الشركة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة 1986م .

(2) - للتوسع يستحسن الرجوع الى كتاب أحمد الخشاب : <u>الاجتماع الديني ، مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العملية</u> . وكتاب مصطفى الفوال : <u>علم الاجتماع البدوى</u> ، ص ص: 266/279 .

(3) - خلاصة هذه العقيدة أن اصحابها يزعمون بأن أرواح الاجداد قادرة على الحاق الضرر بالعصاة ، كما يمكن للاجداد جلب الفائدة للطائعين الذين يقدمون لهم القرابين والنذور . ويعتقد اصحاب هذه =

والطواطم (1) ، والاوثان (2) ... الخ . وما زالت قبائل كثيرة حتى اليوم تعبد أرواح الاجداد ، والطواطم ، والاوثان بافريقيا ، واستراليا ، وآسيا ، وأمريكا .

ويبدو أن قبائل المغرب ـ قديما ـ قد مرت بالظروف ذاتها التي عرفتها القبائل الافريقية ، لان المعتقدات البدائية (كعبادة الاجداد ، والطواطم ، والوثنية) لم تكن مجهولة لدى السكان القدامى لهذه الديار (3) .

= النحلة في قدرة ارواح الاجداد على الحلول في اجسام اخرى ، سواء كانت هذه الاجسام تخص البشر ، أو الحيوان ، أو النبات ، أو الجماد . وهذه النحلة تساعد ـ كما يرى بعضهم ـ على تمتين أواصر القربى ، وتعزيز العصبية ، وتقوية روابطها بين أفراد العشيرة .

(1) ـ ترتكز الطوطمية اساسا على تقديس بعض الحيوانات ، أو النباتات ، أو الجمادات ، وعندما تقدس العشيرة طوطما معينا يصبح اعضاؤها اخوة مرتبطون بذلك الطوطم . وهكذا يكون الطوطم هو الرابط اللاحم ، وليس العرق والدم . فالطوطم هنا يشد اللحمة بين أعضاء العشيرة الطوطمية ، ويقوى عصبيتهم اللاعرقية . (للتوسع في موضوع الطوطمية يستحسن الاطلاع على كتاب علي عبد الواحد وافي : الطوطمية ، وهو من سلسلة اقرأ التي تنشرها دار الهلال بالقاهرة . وكتاب مصطفى الفوال : علم الاجتماع البدوى ص: 269) .

(2) ـ وتتمثل في عبادة الاصنام ، وعبادة المعالم الطبيعية وظواهرها . ومبعث ذلك أن اصحاب هذه العقيدة كانوا يزعمون بأن الطبيعة تسخر الارواح الخيرة والشريرة لالحاق الضرر بالانسان أو جلب الفائدة له . وعليه فان استغلالها في جلب الخير ممكن بواسطة عبادتها وتقديم القرابين والنذور اليها . وهكذا نشأت هذه النحلة كامتداد لعقيدة ارواح الاجداد مرورا بالطوطمية .

(3) ـ أنظر الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص: 67/68 . آالفرد بل : الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي ، تعريب عبد الرحمن بدوى ، ص: 55/68 =

ولما فتح المسلمون هذه الديار وجدوا أهلها يعبدون الاوثان ، بالاضافة الى الديانتين : اليهودية والنصرانية المتواجدتين في ربوع المغرب منذ العهد الروماني (1) . وقد تمركزتا . تقريبا - في المدن ، وخاصة الساحلية منها .

ويبدو أن الوثنية ظلت متواجدة في الجهات المنعزلة من بلاد المغرب لعدة قرون بعد الفتح (2) . كما عرفت قبائل المغرب كله صراعات مذهبية ممزوجة بمسحة من الشعوبية . وقد تجلى ذلك في ثورات القبائل الامازيغية التي اعتنقت المذهب الصفرى ، وثارت على ولاة بني أمية (3) . وجلهم كانوا من القبائل البترية . ثم الحركة الاباضية بافريقية والمغرب الاوسط . تلك الحركة التي تبنتها بعض القبائل كلواتة ولماية، وهوارة، وزناتة . . . الخ .

ومن أبرز النحل المتطرفة ببلاد المغرب هي التي ظهرت ضمن قبيلة غمارة وقبائل برغواطة . ففي غمارة ظهر بعض المدعين للنبوة كحاميم بن من الله ، وعاصم بن جميل

= جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج : 1 ، ص: 78 .

(1) - وجود الديانة اليهودية قد يكون سابقا للعهد الروماني .

(2) - أنظر ابن ابي زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس ص ص: 7 - 15 .

(3) - بزعامة ميسرة المطغرى ، وخالد بن حميد الزناتي ، وأبي قرة اليفرني . ثم ثورة قبيلة ورفجومة من نفزة بافريقية على حاكم القيروان حبيب بن عبد الرحمن . وكانوا بزعامة عاصم بن جميل الورفجومي . (أنظر ما قبله) .

اليزدموجي (1) . ومحمد بن محمد الملقب بأبي الطواجن وهو من قصر كتامة (2) . وفي برغواطة نسبت النبوة لصالح بن طريف (3) . كل هذه الحركات الدينية ،تبرز دور القبلية في المجال الديني والمذهبي . اذ أن هذه النحل والمذاهب نشأت في ظل القبلية ، وتعززت بالعصبية ، فكان لها شأن في تاريخ المغرب الاسلامي ، حيث توصلت بعض القبائل الى اقامة امارات ودول بفضل الدعوة الدينية ، كدولة مكناسة في سجلماسة (3) . ودولة قبائل برغواطة بتامسنا (3) . كما أن الدولة الرستمية قامت هي الاخرى بفضل الاحلاف القبلية التي اعتنقت المذهب الاباضي (3) . وحتى الدولة الفاطمية فقد قامت هي الاخرى على عاتق قبائل كتامة ، وصنهاجة التي ناصرت المذهب الشيعي (3) . وعندما يدرس القارئ الدولة المرابطية سيكتشف بأن الدعوة الدينية بين قبائل صنهاجة الجنوب هي التي مكنت تلك القبائل من اقامة هذه الدولة (3) ،حيث دفعت بهم الحركة الدينية ، والمتمثلة في المذهب المالكي الى اجتياح المغرب الاقصى والاندلس،ونشر مذهبهم في ربوعهما (4) .

وابرز الحركات الدينية التي اعتمدت على القبلية في بلاد المغرب هي حركة المذهب الموحدى الذى أسسه ابن تومرت وقد تحملت قبائل مصمودة

---

(1) ـ أنظر البكري : المغرب ،ص ص: 100/ 101 . ابن خلدون :العبر ،مج : 6 ،ص ص: 437ـ444ـ446 . ألفردبل : الفرق الاسلامية ،ص ص: 180/ 188 .

(2) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6، ص ص: 458/ 459.

(3) ـ أنظر ما قبله (الفصل الاول) .

(4) ـ أنظر آلفردبل : الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي ،ص ص: 226/ 246.

-على الخصوص- مهام نشره في كامل البلاد من طرابلس شرقا الى أقصى بلاد المغرب غربا (1) . والمذهب الموحدى - في الحقيقة - لا يتناقض مع المذهب المالكي في الجوانب الفقهية ، حتى أن كتاب ابن تومرت ((أعزما يطلب)) لم يكن سوى كتاب ((الموطأ)) للامام مالك ، صدر في ثوب جديد (2) . غير أن أهل السنة يؤاخذون الموحدين ومذهبهم على فكرتين اعتبرتا لدى السنيين من البدع والافتراء ، وهما : فكرة المهدى المنتظر المنسوبة الى الامام ابن تومرت ، وفكرة العصمة التي يدعى بها ، وآمن بها اتباعه (3) .

وتبعا لسذاجة وجهل (4) القبائل التي نشر في ظلها ابن تومرت مذهبه ، فقد اعتمد في دعوته على بث بعض المزاعم الغيبية في الاوساط

(1) - أنظر ما بعده .
(2) - أنظر ألفردبل : الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي ، ص: 277/276 . عبد الله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب ، ص: 229/234-297-312/307 . عبد المجيد النجار : المهدى بن تومرت ، ص: 494/496 .
(3) - المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص: 187/188-190 - 192 - 193/194 . ابن أبي زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص: 113/114 - 117 . ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص: 471 / 472 - 594 . السلاوى : الاستقصاء ، ج : 2 ، ص: 80 - 86 - 88 - 90 - 95 . ألفردبل : الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي ، ص: 266/268 - 281 . عبد المجيد النجار : المهدى بن تومرت ، ص: 237/253 . عبد الله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب ، ص: 230 - 233 - 300/ 301 - 307 .
(4) - كمثال على جهل أعضاء القبائل الذين انضموا الى دعوة ابن تومرت في البداية انه وجد صعوبة في تحفيظهم فاتحة الكتاب مما أدى به الى تنظيم عدد منهم في صف ، ثم سمى الاول ((الحمد لله)) =

القبلية التي ركز دعوته ضمنها . وفي كتابي : البيذق والمراكشي أمثلة عديدة منها (1) .

المهم هنا أن القبلية كان لها أثر ايجابي واثر سلبي على النظم الدينية والعقائد بربوع المغرب. لان العصبية تستوجب اتباع الاقرباء في معتقداتهم حتى ولو كانت ضلالا . وهذا ما حدث ضمن قبائل غمارة التي اتبعت مشعوذيها ، وكذا الحال بالنسبة لبرغواطة . وحتى ابن تومرت فانه لم يتمكن من نشر مذهبه الا بعد أن التجأ الى عصبيته وأهله (2) .

1 - **الاثر الايجابي** : ويتجلى في الحركات الاصلاحية التي ظهرت ببلاد المغرب. والذى يهم منها في هذا المجال هي الحركات التي برزت في العهد الموحدى ، وما بعده . وبذلك تكون أهم الحركات الدينية هي الحركة المذهبية التي اعلنها ابن تومرت بين قبائل مصمودة ، والقبائل الاخرى التي انضمت الى الموحدين (3) . لقد استطاع الموحدون نشر مذهبهم بين تلك القبائل بفضل النهضة التعليمية التي نفذها

= والثاني ((رب العالمين)) .. الى آخره ، ثم أمرهم بحفظ اسماء اصحابهم ، حسب الترتيب السابق ، وبذلك استطاعوا حفظ أم الكتاب بقصد الصلاة .
أنظر ابن أبي زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص: 144-116/117-118/119 . والسلاوى : الاستقصاء ، ج : 2 ، ص: 96 .

(1) - أنظر ما بعده .

(2) - البيذق : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ، ص: 38-39-41/42-44-45-66-67-77/79 . أنظر ايضا السلاوى : الاستقصاء ، ج : 2 ، ص: 88 . المراكشي : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، ص: 179/180-183/184 .

(3) - أنظر المراكشي : المعجب ، ص: 188-339/342 . عبد الله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب ، ص: 223/228-257/259 .

عبد المؤمن بن علي . كما أن نظام الطلبة المعتمد من قبل الدولة الموحدية قد ساعد بدوره على استيعاب مذهب ابن تومرت وتعميق فهمه بين الناس (1) .

فبفضل الحركة الموحدية تخلصت قبائل عديدة بالمغرب من نير الجهل والحرمان . ومن يتتبع تاريخ قبائل مصمودة التي انتشر في ظلها المذهب الموحدي سيكتشف مستوى الجهل الذى كانت عليه تلك القبائل قبل العهد الموحدى (2) . وسيتبين له الاثر الايجابي الهام الذى تسبب فيه هذا المذهب ، حيث حظيت فئات عديدة من تلك القبائل بنصيب من التعليم فاضحوا بذلك دعاة صادقين للمذهب ، وحماة اشداء للدين الاسلامي ، تمكنوا فيما بعد من الذود عن ديار الاسلام في المغرب كله والاندلس ، ضد الغزو النصراني .

هذا عن القبائل الامازيغية أما القبائل العربية فلها هي الاخرى آثار ايجابية مباشرة وغير مباشرة في العامل الديني والعقائدى ببلاد المغرب . فباستثناء الهجرات الصغرى والمتقطعة لاعضاء القبائل العربية المختلفة خلال الفتح الاسلامي وما بعده ، فان الهجرة الهلالية قد عززت بصورة غير مباشرة الدين الاسلامي بربوع المغرب كله ، وذلك أن نشرهم للغة العربية بشكل واسع بين الامازيغ قد ساعد على فهم تعاليم الاسلام .

(1) ـ أنظر المراكشي : المعجب ص: 201 . عبد الله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب ، ص ص: 231 ـ 405/393 .

(2) ـ ابن ابي زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص ص: 114 ـ 118 ـ 120 . السلاوى : الاستقصاء ج :2 ، ص ص: 96 ـ 102 .

وتعميق معانيه بين القبائل الامازيغية (1) .

والذى يهم - في هذا المجال بخصوص قبائل هلال وسليم هو الدور الاصلاحي الذى قام به بعض المشائخ المنتسبين للقبائل المذكورة ، منهم : سعادة (2) ، وهومن قبيلة رياح الهلالية ، ثم قاسم بن مرا (3) ، وهومن قبيلة الكعوب السليمية .

فالمصلح الاول ظهر ببادية القيروان في أواخر القرن السابع للهجرة (4) ، حيث جاهر بعدائه للاعراف القبلية التي تقر النهب وقطع الطرقات . فقام باصلاح الحال ضمن قبيلته ، اذ استطاع جمع بعض الانصار الذين لبوا دعوته الاصلاحية واعتنقوا طريقته الدينية . فكبح جماح الاعراب الذين كانوا يعيثون في الارض فسادا ببلاد افريقية . فالتجأ بعضهم الى سلطان الدولة الحفصية محرضين ومدعين بأن قاسم بن مرا هذا خارج عن طاعة الدولة ، ولكن السلطان لم يلتفت الى صراخهم . عندها سارع فريق من قبيلة الكعوب ، ومن ابناء مهلهل على الخصوص الى قتل ابن عمهم المصلح قاسم بن مرا . وكانت هذه الجريمة هي السبب في انقسام قبيلة الكعوب الى حيين متخاصمين (ابناء مهلهل ، واولاد

(1) - أنظر ألفرد بل : الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي ، ص : 215-219/ 220 .

(2) - لم يذكر ابن خلدون اسم والده ، وانما ذكر اسم أمه التي تدعى ((خصية)) وكانت زاهدة ومتعبدة ، فأنشأت ابنها على سننها في الورع والعبادة . وسعادة هذا ينتمي الى حي من مسلم يدعى رحمان ، وينتسب جميعهم الى قبيلة رياح الهلالية . (انظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 81/85) .

(3) - وهوقاسم بن مرا بن أحمد من قبيلة الكعوب التي تنتمي لبني سليم (انظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 160/162) .

(4) - ظهر في عهد السلطان عمر ابي حفص بن السلطان ابي زكرياء (حكم =

ابي الليل) . وقد استطاع أولاد أبي الليل بعد سنين من الثأر لابن عمهم المشترك قاسم بن مرا ،حيث قتلوا جَمْعاً من ابناء مهلهل عن آخرهـم ، وبذلك ازداد أوار الفتنة بين الحيين ،ولم تخمد أبدا . وهكذا تسببت الحركة الدينية الاصلاحية التي اعلنها الشيخ قاسم في تقسيم قبيلة الكعوب، واشعال الفتنة بينهم .

أما المصلح الثاني فقد ظهرت دعوته في بداية القرن الثامن للهجرة وبداية القرن الرابع للميلاد ببلاد الزاب،حيث اتخذ ((طولقة)) قاعدة لبث دعوته ، ونشر طريقته السنية .

ففي البداية شدد الهجوم على المنكرات ،وسلط عقابه على قاطعي الطرق والمفسدين من ذوبان البوادى . ولما اشتد ساعده اعلن معارضته للنظم المالية التي سنتها الدولة آنئذ ومن ذلك أنه طالب امير بسكرة بالغاء المكوس والضرائب التي لا يقرها الشرع . ومن هنا كان الاصطدام بالدولة . وانتهى امره بمقتله في معركة نشبت بين انصاره وانصار الامير منصور بن فضل بن مزني ، وذلك سنة 705 هـ/1305م . وكلا الطرفين كان يعتمد على فريق من قبائل رياح .

وعلى الرغم من موت سعادة فان طريقته وانصاره واصلوا دعوته، وداوموا على معارضة آل مزني امراء بسكرة حتى سنة 740 هـ/1339م . ولم يتمكن امير بسكرة من اخضاعهم الا بواسطة الحيلة والاصطناع . حيث لا طفهم بالهدايا ، وترك اليد في اخذ الزكاة والصدقات من بعض القبائل . وقد اقام ابناء سعادة وانصاره زاوية لهم بطولقة حظيت برعاية

---

*من سنة 683 هـ/1284م الى سنة 694 هـ/1294م) .

الامير ابن مزني ، واحترام بطون ريـــاح .

أما المصلح الثالث فهوعامر بن ابي يحي بن محيا . وينتمي الـــى قبيلة العمور الهلالية ،والى اولاد شكر بالذات . ومراتعهم بجبل بـــني راشد ، حيث اعلن عن طريقته الاصلاحية بتلك الربوع ،وانضم اليه عـــدد من قومه . وكانت له غزوات وملاحم ضد المفسدين من اعراب بادية النضـر . ولكنه قتل غيلة في احدى خرجاته الى الصيد (1) .

وفي قبيلة سويد من زغبة الهلالية ظهر أيضا متصوف اعتكف علـــى العبادة والرهبنة ، وهو رئيس القبيلة وزعيمها ونزمار بن عريف ، حيـــث أقام حصنا على مجرى ملوية جعله زاوية للعبادة . وقد لجأ الى الزهـــد والرهبنة بعد أن سئم الصراعات القبلية ،والفتن مع الدولة العبد الوادية، وخدمة الدولة المرينية (2) .

وهكذا فان هذه الحركات ظهرت في أوساط قبيلة بحتة ،ذات طابـــع صحراوي ، يفرض على الجميع حياة رعوية غير مستقرة اذ تحتمد تلك القبائـــل على الظعن طلبا للنجعة . ولما كانت القبائل المذكورة قليلة الورع،ورقيقــة الدين (3) ، مفسدة في الارض ، ولا يتورع اعضاؤها عن النهب،والسلـــب والقتل من أجل اتفه الاسباب، واحقر المكتسبات ،فان تلك الظواهر المؤذية انجر عنها بروز بعض المصلحين الذين استنكروا ما يشاهدونه مـــن منكرات ، وبذلك ظهر قاسم بن مرا في قبيلة الكعوب ،وسعادة فـــي قبيلة رياح ،وعامر بن أبي يحي ، وكلاهم كان يستهدف نظام الدولة أيضـا

(1) ـأنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ،ص: 57/58 .

(2) ـابن خلدون نفسه ، مج : 6 ،ص: 208 .

(3) ـعرف عن قبائل الاعراب بانهم لا يعبأون بالتعاليم الدينية كثـيرا وقد وردت هذه الحقيقة في القرآن الكريم . كما أن الاحداث التاريخية التي مرت ببلاد المغرب تؤيد هذه الظاهرة السلبية لدى قبائل هـلال وسليـم .

تلك لنظم الجائرة والتي تتنافى مع الشرع ، كالمكوس،والضرائب المستحدثة في الدولة .

ومن هنا يتضح الدور الايجابي لهذه الحركات الاصلاحية، باستثناء الاتجاه السلبي الذى سار عليه ونزمار بن عريف الذى اكتفى بالترهب والاعتزال . اضف الى ذلك كله الدور العظيم الذى لعبته قبائل الموحدين، في المجال الديني ، والعقائدى ببلاد المغرب كلها . ذلك الدور الذى كان له الفضل في توحيد هذه الديار، من برقة الى المحيط الاطلسي، فالاندلس ، تحت لواء دولة واحدة قوية ، ومعززة بالتعاليم الدينية السمحة .

2 - **<u>الاثر السلبي</u>** : يتجلى الاثر السلبي الذى خلفته القبلية - من خلال الحركات الدينية والعقائدية التي ظهرت ببلاد المغرب - في الصراعات والانقسامات المذهبية التي اعلنت ضمن قبائل مختلفة ،وكانت تلك الانقسامات - في الحقيقة - متجاوبة مع تيار العصبية القبلية . وما النحل التي برزت ضمن قبيلة غمارة وقبائل برغواطة الا مثلا صارخا للعصبية القبلية ذات الطابع الديني والمذهبي .

والمذهب الموحدى - وان كان يميل الى الاعتدال في مقابل النحل المذكورة - لايمكن تبرئته من آثار العصبية القبلية . لان نجاح ابن تومرت لم يتحقق الا في ظل قبائل مصمودة ،وفي هرغة على الخصوص،حيث أهله وعصابته . كما أن حرص ابن تومرت على القاء دروسه الدينية باللهجة الامازيغية، وسماحه بتأدية الاذان للصلاة بتلك اللهجة - بالاضافة الى خطبة الجمعة التي تلقى باللهجة نفسها - فذلك جميعه يدخل ضمن رعايته لسنن العصبية الجارفة، ولا ينفى أيضا أنه كتب بعض مؤلفاته الدينية بالامازيغية (1) . وكل

(1) - أنظر المراكشي : <u>المعجب</u> ، ص: 187 . ابن ابي زرع : <u>الانيس المطرب</u> =

هذا تحقق من أجل مسايرة الاوضاع القبلية والاجتماعية التي نشر ضمنها مذهبه الديني . وهذا الامر - كما لا يخفى - يتعارض مع أحكام المذهب المالكي ، غير أن هذا لا يمكن ادخاله ضمن الاثار السلبية للمذهب الموحدى . على أن ما يؤخذ حقيقة على المذهب الموحدى الذى رفعت مشعله قبائل مصمودة ، أنه يقول بعصمة ابن تومرت ، والادعاء بأنه المهدى المنتظر . وهذا يمكن اعتباره من بين سلبيات المذهب ، خاصة وأنهم - على ما يبدو - قد اعتمدوا على بعض الخرافات والاساطير ، من أجل تضليل أعضاء القبائل الجهلة ، وايهامهم بصدق الدعوة . وهذا بالطبع مخالف لتعاليم الدين الاسلامي الحق .

ومن أهم القصص العجيبة التي حبكها الموحدون أيام ابن تومرت مانسب اليه - والله أعلم - بخصوص دفن بعض اتباعه احياء داخل قبور يمكنهم التنفس منها . ويقال بأنه قد أوصاهم بأن يقولوا عندما يسألون : ((قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا من مضاعفة الثواب على جهاد لمتونة ، وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة ، فجدوا في جهاد عدوكم ، فانما دعاكم اليه الامام المهدى صاحبكم حق)) (٦) . ويزعم ابن ابي زرع بأن المهدى قد وعد المدفونين بأن يخرجهم بعد ذلك ، ولكنه بعد أن حقق غرضه لم يف بوعده - اذ ازداد حماس أصحابه له ، وعظم ايمانهم به ، بعد سماعهم للاموات يتلقون بتلك العبارات - عندئذ سارع ابن تومرت الى سد منافذ الهواء في قبور المدفونين ، ناكثا عهده معهم . واذا صحت هذه الحكاية

= بروض القرطاس ، ص: 114 - 117 . ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص: 469 - 530 - 594 . عبد الله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب ، ص: 69 .

(٦) - انظر هذه الحكاية في كتاب ابن ابي زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص: 113 .

التي قد تكون منتحلة من طرف اعداء الموحدين فاذا صحت فانها - بدون شك - تصور الجانب السلبي في الدعوة الموحدية التي اشتهر عنها سفك الدماء بدون حساب ، الى جانب مغالطة السذج من قبائل مصمودة وغيرهم من العامة والجهلة .

كما أن حكاية أبي محمد البشير التي يقال فيها بأنه كان يجهل القراءة ، وفجأة وجد نفسه في صبيحة أحد الايام يحفظ القرآن عن ظهر قلب . وذلك أن البشير قد زعم - حسبما اشيع عنه والله أعلم - بأنه رأى في منامه ملكان يشقان قلبه ثم يغسلانه ، وبعدها حشواه ((علما وحكمة وقرآنا)) (1) . ولما كان في السابق يتظاهر بالجهل والعجمة . فقد أبهر اتباع ابن تومرت بهذه المعجزة المزعومة . وقد تمكن بواسطة هذه الحيلة من تمييز قبائل المصامدة ، حيث قتل منهم نحو سبعة وعشرين الفا (2) . أن هذه الحكاية - ان صحت - تؤكد الجهل الذى كانت قبائل الموحدين عليه ، كما تكشف الجانب المظلم في الحركة المذهبية للموحدين .

أما الجانب السلبي للعصبية القبلية تجاه المعتقدات الدينية بعد الموحدين فيتجلى في العداء الذى اظهرته بعض البطون من قبائل هلال وسليم للحركات الاصلاحية والدينية التي ظهرت في صفوفهم . من ذلك حركة قاسم بن مرا ، وحركة سعادة ، وحركة عامر بن ابي يحي . وقد سبقت الاشارة اليهم . حيث اجهضت بطون هلال وسليم تلك الحركات الاصلاحية بفعل العصبية المغلقة ، والجهل الاعمى .

---

(1) - أنظر هذه الحكاية في كتاب السلاوى : الاستقصاء ، ج : 2 ، ص : 98 .
(2) - أنظر عبد الله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب ، ص : 80 .

ومرد هذا الجهل وهذا العداء من طرف العصبية القبلية لكل حركة دينية داخل القبلية، يرجع اساسا الى اهمال التعاليم الدينية بين الاعراب خاصة ، لكون تلك التعاليم تتناقض مع جموح العصبية وانانيتها . كما تتعارض مع اخلاقيات الاعراب الذين يتميزون بحب النهب والسلب وقطع الطرقات .

والذى يبعث على الدهشة أن اولائك الاعراب يتأثرون باشكال الشعوذة وبعض الغيبيات الخرافية أكثر مما يتأثرون من التعاليم الدينية الصحيحة . فيكفي أن يظهر بينهم درويش أو معتوه حتى يسارعوا الى التبرك به، والى طاعته وتنفيذ رغباته . وتتجلى هذه الظاهرة من خلال انتشار الزوايا، وقبور الاولياء في الارياف والصحراء) حيث يتبركون بقبورهم، ويتوسلون بهم . وبالطبع فالتفسير لهذه الظاهرة يرجع الى ما سبق نقله عن ابي القاسم سعد الله،حيث ميز بين ثقافة أهل الريف ،وثقافة أهل المدن (١) . فالمفهوم العقائدى والديني لدى أهل البادية ـ في هذا الحال ـ لا يختلف عن المفاهيمهم الثقافية ، حيث تتجلى السذاجة والبساطة التي تتميز بالبدائية في الغالب . فالمعتقدات هنا تبرز على سطحها بعض المؤثرات الموروثة عن العهد الجاهلي . اذ تخضع لاشكال مختلفة من فنون الشعوذة والسحر كما تخضع أيضا لبعض الطقوس التي لايمكن ابعادها عن مفهوم الشرك .

ان الحديث عن أثر العصبية القبلية على النظم الثقافية والمعتقد الديني يقود الى استكمال الصورة،وذلك بالانتقال الى موضوع آخر في باب النظم ،ومدى تأثرها بالعصبية القبلية ببلاد المغرب الاسلامي . ومن هنا تبرز الحاجة الى الحديث عن اثر العصبية القبلية على النظم السياسية والادارية في المغرب الاسلامي .

(١) ـ أنظر ما قبله .

اثـر العصبيـة القبليـة على النظم السياسية والادارية في المغرب الاسلامي .

1 ـ اثـر القبليـة على النظـام السياسي :

ان المتتبع لتاريخ المغرب سيكتشف ـ لا محالة ـ بان القبائل في هذه الديار ظلت قرونا طويلة تقاوم وتعاكس نظم الدولة والاهداف التي تسعى اليها دون كلل او فشل . وقد يتساءل المتأملون فيما يخص هذه الظاهرة عن الاسباب التي حدت بالقبائل ـ على اختلاف مشاربها وتباين مناهجها ـ الى تلك المشاغبات المزمنة ، التي كانت تصدر عنها بين الحين والآخر في حق الدولة ونظمها .

وفي حقيقة الامر . . ان هذا السلوك المتبع من طرف القبائل جاء بايحاء من العصبية القبلية التي تسعى دون هوادة للحفاظ على نظمها واعرافها . . وبالتالي بقصد المحافظة على استقلالها عن الدولة واحكامها ، تلك الاحكام التي تتعارض مع احكام القبلية واعرافها .

وهكذا . . فمنذ ان عرف الانسان الدولة ظهر معها تناقض عميق بين نظمها ونظم القبائل والعشائر التي كانت هي السائدة قبل ظهور الدولة نفسها ، وعليه فقد تولد عن هذا الواقع صراع خطير بين النظامين (نظام الدولة ونظام القبيلة) . وقد تجلى ذلك الصراع من خلال المحاولات التي قامت بها الدولة (في كل زمان ومكان) بغرض السيطرة المطلقة على القبائل ، واخضاعها لاعراف وقوانين مدروسة ومستمدة من مصدرين متكاملين : الاول هي الاعراف القبلية ذاتها ، والثاني هو الفكر الانساني المبدع والاعمال الفلسفية (1) .

وما الدولة ـ في الحقيقة ـ الا مجموعة قبائل موحدة ومحكومة من قبل هيئة واحدة تمثل تلك القبائل كافة . والخلاف في هذه الحال ـ هو خلاف مرده رفض العصبيات البسيطة (2) (العشائر والافخاذ . . الخ) الانضمام والائتلاف ضمن وحدة كبرى ، توحد الجميع وتدمجهم ضمنها .

---

(1) ـ تم هذا على سبيل المثال في بلاد الاغريق ، وبلاد الرومان ، والجرمان ، . . الخ ، ويمكن التأكد من ذلك بالرجوع الى المصادر التاريخية لهذه الامم .

(2) ـ انظر تفسير ابن خلدون بخصوص تركيب العصبيات البسيطة ودمجها في عصبية واحدة اعلى بغرض الوصول فيما بعد الى الغاية ، وهو الملك (اي الدولة) ، وذلك في فصل العصبية ظاهرة اجتماعية وتاريخية ، من هذا البحث ، أو الرجوع الى المقدمة ج : 2 ، صفحة 599 ـ 650/649 .

واذا كانت أمم اخرى قد نجحت في جمع شملها و توحيد قبائلها تحت ظل سلطة هيئة موحدة هي الدولة . فان بلاد المغرب نجحت نسبيا في هذا الامر . والفترة التاريخية المخصصة لهذا البحث تعبر بصدق عن ذلك الصراع الذي لم تنقطع اسبابه في بلاد المغرب بين نظم الدولة و النظم القبلية المتميزة بالانانية و العصبية الصارخة .

ان ما قاله ابن خلدون عن بلاد المغرب بكونها تزخر بالعصبيات المختلفة الأهواء والمتباينة الأهداف مما جعل الدول فيها ضعيفة و قصيرة العمر (1) هو شيء صحيح لا شك فيه . و تثبته الأحداث التاريخية بهذه الديار التي لا تكف فيها القبائل العديدة عن اشعال الفتن واعلان العصيان و الخروج عن الصف و يمكن في هذا المجال تقديم بعض الأمثلة من العصر الموحدي وما بعد الموحدين .

و هكذا . . بقي في هذه الديار للعصبية القبلية صولة و اثر لا ينكران ، و على الرغم من قيام دول هنا و هناك ، الا انها لجأت الى مهادنة القبائل و العشائر المتمسكة باستقلالها ، حتى و لو كان ذلك الاستقلال محدودا ، أي في الشؤون الداخلية للقبيلة ، وربما تطور الامر الى الاستقلال في ربط علاقات بين القبيلة المعنية و غيرها من القبائل أو الدول الاخرى في المنطقة . و بذلك تنشب الفتن و الحروب التي تغذيها القبائل بمشاغباتها و عصيانها . و في الاحوال كلها يكون اعضاء القبائل هم الحطب الذي تتغذى به نيران الفتن و الحروب ، كل هذا مرده الى حماقة العصبية و انانيتها العمياء . و حتى في ظل الدول العظمى التي ظهرت بالمغرب كالدولة الموحدية مثلا ـ فان القبلية و عصبيتها ظلت مهيمنة على المجتمع المغربي ، و على الرغم من الحملات التأديبية و الانتقامية التي سلطها بعض خلفاء هذه الدولة القوية على القبائل المتمردة ، الا انها لم تصل الى زوال ظاهرة العصبية القبلية . . بل كانت هذه العصبية في النهاية هي المنتصرة ، حيث توصلت بعض القبائل الى تقسيم الدولة ثم الاطاحة بها نهائيا فيما بعد . و لكن . . . كيف هذا ؟ .

من خلال التأمل ، و استقراء الاحداث التاريخية تتبين صحة ما استنتجه ابن خلدون ، بخصوص الغاية التي تجرى اليها العصبية (2) . و بالطبع فغاية العصبية هو الملك ، و ذلك بالاستحواذ على السلطة و التربع على المراتب العليا . و قد سبقت الاشارة

(1) ـ انظر ما قبله .

(2) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 610/609 .

الى الغاية التي تجرى اليها العصبية وهو الملك، أي الدولة (1). فالتغلب الملكي مطلب تسمى اليه العصبية (2). وهذا مايمكن ملاحظته من خلال حركة العصبية في بلاد المغرب الاسلامي. والعصبية هنا قد تصل الى غايتها بالتمام، أو تفشل نسبيا، فتكتفي بسلطات أدنى من سلطات التغلب الملكي، وتدخل في عداد أنصار الدولة (3). وبذلك، يستفيد أعضاء العصبية بمناصب ومراتب في الدولة، قد تكون مراتب عليا، وقد تكون مراتب دنيا.

اذن فالمراتب التي تتطلع اليها العصبية هي مراتب: العاهل، والوزراء بالدرجة الاولى، يلي ذلك مراتب: القادة، وعمال الاقاليم. وهكذا يمكن استقراء ذلك من خلال الاحداث التاريخية ببلاد المغرب.

(1)- الدولـــــــة الموحديـــــــة:

فالدولة الموحدية - طبعا - قامت على كواهل عدد من قبائل المغرب (4). التي عززت عصبياتها الدعوة الدينية المبثوثة فيهم من طرف ابن تومرت. ان عملية التركيب والمزج هنا استندت الى الدين، ولكن الدعوة الدينية لوحدها لم تكف ابن تومرت، حيث اضطر الى اللجوء نحو عصبيته أولا (5). ومن ذلك الموقف الطبيعي أخذ في نشر دعوته التي وجدت ارضا خصبة واستمدادا من قبل بعض القبائل الكارهة لتغلب الملثمين (5).

---

(1)- انظر ماقبلـــــه.
(2)- ابـــن خلدون: المقدمة، ج: 2، ص: 593.
(3)- نفسه: ج: 2، ص: 610.
(4)- منها هرغة، وأهل تينمل، وهنتاتة وكدميوة، وكنفيسة. وقبائل اخرى. (انظر المراكشي: المعجب، ص: 339/342، ومقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب، لمجهول، ص: 33/35 وعبد الله علي علام: الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي، ص: 257/258).
(5)- قال عبد الواحد المراكشي أن مالك بن وهيب (عالم من الاندلس) شار على امير المسلمين على بن يوسف بان يقتل المهدى، وذلك بعد ان قابله السلطان بعلمائه وظهر منه ما أخافه على الدولة فقال ((هذا رجل مفسد لاتؤمن غائلته، ولا يسمع كلامه أحد الآمال اليه، وان وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير)) (المعجب، ص: 185). اذن لقد تنبه مالـك بن وهب الى خطورة ابن تومرت عندما يلتحق باهله وعصبيته. انظر أيضا ابن خلدون الذى اشار الى لجوء ابن تومرت الى بلاد هرغة فقال: ((ثم ارتحل المهدى منهم الى ايكليلين من بلاد هرغة، فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة) (العبر، مج: 6، ص: 469). ثم اضاف ابن خلدون: ((واوعب قبيلة هرغة قد خلوا في أمره كلهم، ثم دخل معهم كدميوة وكنفيسة)). (ج: 6، ص: 470). انظر ايضا عبد الله علي علام الدولة الموحدية، ص: 62.
(5)- انظر ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: 113/114. وابن خلدون: العبر،

وقد اكتفى ابن تومرت — في البداية — ببعض الاشخاص القلائل ، ولكنه صنفهم بفطنة وذكاء حسب انتماءاتهم القبلية (1) . وهكذا أصبح كل واحد منهم قطبا لقبيلته بحكم تمثيله لها ، وتزكية ابن تومرت له بثقله الديني . وعليه فقد تمكن من استقطاب القبائل بواسطة اقطابهم وممثليهم بعد ذلك (2) . وبالطبع فلا حرج بعد ذلك من انضمام القبائل الممثلة هنا الى الدعوة ، لانها قد اتبعت عضوا من اعضائها ، وهذا لا يتنافى مع احكام العصبية . وحتى الترتيب الذي صنفت فيه القبائل لا يخلو من تأثيرات العصبية ، حيث جاءت في مقدمة الترتيب عصبية المهدي وهم هرغة ، ثم تلاهم أهل تينمل ثم هنتاتة ثم كدميوة ، فكنفيسة . وبعدها يأتي دور القبائل التي ناصرت المهدي ، ولكنها ليست من قبيلة مصمودة (3) . (قبيلة المهدي وعصبيته) .

وتشكيل المجالس الحكومية في عهد ابن تومرت يوحي بانها مجالس للاتحادات القبلية . وذلك ان ابن تومرت سارع الى تنظيم مؤسسات الدولة بتشكيل مجالس استشارية يرجع اليها اهل الدولة في القضايا السياسية الهامة . وتتفاوت صلاحيات تلك المجالس تبعا لاختصاصها ومكانتها في الدولة (4) . وبالطبع فقد وزعت العضوية حسب الانتماءات القبلية من جهة ، وبسبب اسبقية العضو وقبيلته في الانضمام للدعوة الموحدية من جهة اخرى . وفي هذا يقول المراكشي :

((وصنف اصحابه طبقات ، فجعل منهم العشرة ، وهم المهاجرون الاولون الذين اسرعوا الى

ص: 6 ، ص: 469/470 . وعبد الله علي علام : الدولة الموحدية ، ص: 62/65 .

(1) — المراكشي : المعجب ، ص: 188 . انظر ايضا المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب لمجهول ، ص: 32/35 .

(2) — انظر ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص: 113/114—119 .

(3) — رتبهم صاحب كتاب الانساب في معرفة الاصحاب هكذا : هرغة ، تينمل ، هنتاتة ، كدميوة ، كنفيسة ، صنهاجة ، القبائل الاخرى ، (ص: 33/35) . اما المراكشي فقد رتبهم في عهد علي عبد المؤمن كالتالي : هرغة ، كومية (قبيلة عبد المؤمن) ، أهل تينمل ، هنتاتة ، كنفيسة ، كدميوة ، صنهاجة ، هسكورة . وقد قال انهم سبعة ، بينما سمى ثمانية . (المعجب ص: 339/340) . اما عبد الله علي علام فقد توصل بعد التحقيق الى الترتيب التالي : هرغة ، أهل تينمل ، كدميوة ، كنفيسة ، هنتاتة ، قبائل ناصرت المهدي دون ان تكون من مصمودة ، والجند (وهم من قبائل شتى تطوعوا والتحقوا بالدعوة دون ان تكون قبائلهم من انصار المهدي) (الدولة الموحدية ، ص: 257/258)

(4) — مجلس العشرة أو (اهل الجماعة) على سبيل المثال يأتي في الدرجة الاولى ، ويختص باهم القضايا وأخطرها ، اما مجلس الخمسين فيأتي بعد العشرة وصلاحياته أقل من صلاحيات العشرة . ايضا . آخر المجالس مجلس السبعين وهو الثالث من حيث الاهمية والصلاحيات . (انظر عبد الله علي علام : الدولة الموحدية ، ص: 67/68) .

اجابته، وهم المسمون بالجماعة، وجعل منهم الخمسين، وهم الطبقة الثانية، وهذه الطبقات لاتجمعها قبيلة واحدة، بل هم من قبائل شتى، وكان يسميهم المؤمنين (1)))، وفي موضع آخر يقول: ((وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمهم .. وهم الجند، والاعوان والانصار، ومن سواهم من سائر البربر والمصامدة رعية لهم وتحت امرهم — جميع قبائل، أولهم قبيلة ابن تومرت، وهي قبيلة تسمى هرغة، ثم قبيلة عبد المؤمن، وتسمى كومية (2) ... ثم أهل تينمل، وهم قبائل شتى يجمعها أسم هذا الموضع، ثم هنتاتة .. ثم جنفيسة (كنفيسة)، ثم جدميوة (كدميوه)، وليست كلها، بل بعضها رعية، ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ثم بعض قبائل الهسكورة)) (3).

اذن فحكم الموحدين حكم قبلي محض، ومن جراء ذلك تألفت الحكم قبائل معينة، وهم قبائل المخزن وبقيت قبائل اخرى محكومة، وهم الرعية والدهماء. وعليه فقد حظي بالمناصب والمراتب في الدولة اعضاء القبائل المخزنية، مع بعض الاستثناءات القليلة، والتي سبق الاشارة اليها عند الحديث عن عبد المؤمن بن علي.

كان على عبد المؤمن أن يجد مبررات قوية لاقناع قبائل المخزن بأحقيته في خلافة المهدي. وعلى الرغم من المميزات والمؤهلات التي يحظى بها عبد المؤمن الا انه بقي في نظرهم من الغرباء، بحكم انتسابه الى عصبية اخرى ليست من مصمودة (4). وفي هذا السياق يقول ابن أبي زرع: ((امامات المهدي تشوف كل واحد من العشرة (5) الى الخلافة بعده، وكانوا من قبائل شتى، واحبت كل قبيلة من قبائل الموحدين أن يكون الخليفة منها، وان لايلي عليها غيرها، فتنافسوا في ذلك وتحاسدوا، فاجتمع العشرة والخمسون (6). وتآمروا بينهم، وخافوا النفاق،

---

(1) — المعجب، ص 188. ومايلفت النظر هنا أن المراكشي لم يشر الى أهل السبعين.

(2) — لم تحتل كومية المرتبة الثانية الا بعد استلام زعيمها عبد المؤمن من طرف عبد المؤمن وبعد وفاة ابن تومرت انظر مابعده.

(3) — المراكشي: المعجب، ص 339/340.

(4) — ينتمي الى قبيلة كومية البترية، وموطنها بجهات ندرومة، انظر ماقبله، قال ابن خلدون عن عبد المؤمن: ((واستراب من العصبية بين المصامدة فكتم موت المهدي وأرجأ أمره حتى صدع الشيخ ابو حفص امير هنتاتة وكبير المصامدة لمصاهرته)) (انظر العبر، ج 6، ص 260).

(5) — وهم بمثابة الوزراء عند ابن تومرت واقرب الناس اليه.

(6) — وهم بمثابة مجلس الشيوخ لدى بعض الامم، اما أهل السبعين فهم كنواب البرلمان الموسع. وقد انفرد ابن القطان بذكرهم.

وان تفسد كلمتهم ، ويتفرق جمعهم ، فاتفقوا على خلافة عبد المؤمن ، لكونه غريبا بينهم ، ليس منهم (1) ، مع ما كانوا يرون من ميل المهدى اليه ، وثنائه عليه)) (2) .

وعلى الرغم من هذا الاتفاق الذى حدث بينهم فقد اعترض آخرون على خلافته، مما ادى الى اسالة الدماء (3) . وقد احس عبد المؤمن بضعفه امام غياب قبيلته وعصبيته ، لذا فقد سارع الى استدعاء قبيلته كومية ليحمى بها ظهره ، ولكي تكون رادعا للقبائل الاخرى . وقال ابن ابي زرع بخصوص استقدام قبيلة كومية : ((وفي خلال ذلك ورد على امير المؤمنين قبيلة كومية في جيش عظيم من اربعين الف فارس ، والسبب في قدومهم انه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله ، وقتلوا الشيخ الذى بات بمكانه ، وتحقق ذلك منهم . . . ولكونه غريبا بين قبائلهم، ليس له بهم عشيرة يستند اليها ، ولا قبيلة يثق بها ويعتمد عليها ، فبعث في خفية الى اشياخ قبائل كومية قبيلته ، فأمرهم بالقدوم عليه ، وان يركب كل من بلغ الحلم منهم ، ويأتونه في أحسن زي ، وأكمل عدة وهيئة . . . فاجتمع منهم اربعون الفا . . . فرتبهم عبد المؤمن في الطبقة الثانية . . . وقربهم من نفسه وجعلهم بطانته)) (4) .

وهكذا فهذا النص يصرخ وحده ، ولا يحتاج الى تعليق . وما يستحق الذكر هنا هو ان العصبية لعبت دورا هاما في حياة الدولة الموحدية ، وليس العامل الديني وحده هو المؤثر والمهيمن في هذه الدولة . وهكذا انتقل اهتمام العصبية القبلية الى مناصب اخرى في الدولة ، فبعد استتباب الامر بالنسبة لمرتبة العاهل ، حيث سلمت القبائل باحقية عبد المؤمن الكومي ، ومع هذا لم تكتف العصبية الكومية بمرتبة الخلافة ، بل تطلعت الى المناصب السياسية الاخرى، حيث

تتبع فيما بعد

---

(1) - تلجأ العصبيات المتنافسة عادة الى اختيار شخص غريب من أهل النصاب ليتولى الحكم منعا للخلاف بينهم، وقد حدث هذا كثيرا في بلاد المغرب، مثل اختيار عبد الرحمن بن رستم على رأس الدولة الاباضية بتيهرت .

(2) - ابن ابي زرع: روض القرطاس، ص: 119 . انظر ايضا ابن خلدون: العبر ، 6 ، ص: 472 .

(3) - كفتنة آيت امغار من اهل المهدى . انظر المراكشي : المعجب ، ص: 233/234 .

(4) - ابن ابي زرع: روض القرطاس، ص: 131 . انظر ايضا العبر ، مج : 6 ، ص: 161 . والسلاوى: الاستقصا ، ج :2 ، ص: 142/143 .

كوميون على مراتب الوزارة ، والولاية على المقاطعات والامصار .

ومن اهم الخطوات الخطيرة التي قام بها عبد المؤمن هو نسف النظام القبلي الذى سنه ابن تومرت، حيث اعاد — في البداية — ترتيب القبائل ، وفرض قبيلتــه في المرتبة الثانية ، ولولا الاجلال والتقدير للمهدى لوضع قبيلة كومية في مقدمة القبائل . وان كان عليا قد منحها صلاحيات تجعل منها القبيلة الاولى في الدولة الموحدية (1) . اما الخطوة الثانية التي قام بها فهو التصنيف الجديد الذى أحدثه والذى نسف فيه — دون ضوضاء — النظام القبلي الموروث عن المهدى . وذلك انه قسم الموحدين الى ثلاث فئات دون الالتفات الى الانتماءات القبلية (2) :

— اولا : فئة الموحدين السابقين ، من بقايا اصحاب المهدى ، دون اعطاء أي اعتبار للانتماءات القبلية، وهذه الفئة كادت ان تنقرض مع الوقت ، ولم يبق لها خطر كبير .

— ثانيـــا : فئة الذين انضموا الى الموحدين مابين معركة البحيرة ، ومعركة وهران ، دون الالتفات الى الانتماءات القبلية ايضا .

— ثالثـــا : فئة الذين انضموا الى الموحدين مابعد معركة وهران، دون تحديد للزمن المقبل ، ودون اعطاء ادنى اعتبار الى الانتماءات القبلية كذلك .

وبهذا يكون عبد المؤمن قد اعاد خلط الاوراق ، وتدل خطوته على حنكة سياسيـــة عظيمة . لأن اختيار الفترة الزمنية الفاصلة مابين معركة البحيرة (3) . ومعركة وهران (4) . لتكـــون مقياسا للفئة الثانية سيسمح لكثير من القبائل الاخرى من غير مصمودة باحتلال مكانة مرموقة بين الموحدين (5) . واذا كان الظاهر هو عدم التقيد بالقبلية ، فالواقع يقول بان القبلية المقصودة بالكبح هنا هي قبلية مصمودة بالدرجة الاولى . ومن هنا يتضح بان قبائل كثيرة — زناتية بالخصوص — قـــد استفادت من هذا القرار . كما استفادت به ايضا — وهنا بيت القصيد — قبيلة عبد المؤمن نفســـه (كومية) (6) . لأنه في هذه الفترة الزمنية قد تمكن من اخضاع القبائـــــــل المحيطة بوهران وتلمســـان ، وضمهـــا الـــى المـــوحدين . امـــا التعليـــــل الاول

---

(1) — انظر ماقبله .

(2) — انظر كتاب عبد الله علي علام : الدولة الموحدية ، ص ص: 258/259 .

(3) — حدثت سنة 524هـ/1129م . وكانت خسارة الموحدين فيها ثقيلة . وتوفي قائد الموحدين البشير في هذه المعركة .

(4) — وهي المعركة التي قتل فيها تاشفين بن علي سلطان المرابطين سنة 539هـ/1144م . وتعتبر هذه السنة قمة المنضوين في جيش عبد المؤمن .

(5) — انظر البيذق : اخبار المهدى بن تومرت ، ص ص: 100/108 . وابن خلدون : العبر ، مج 6 ، ص ص: 475/477 . مج 7 ، ص ص: 116/117 — 129 — 149 .

(6) — عبد الله علي علام : الدولة الموحدية ، ص ص: 123/124 .

الذى قدمه عبد الله علي علام فهو تحليل طافح على السطح ،بينما بقيت الحقيقة كامنة في صدر عبد المؤمن (1) - والله أعلم - وهو ما اشار اليه علام دون تحليل (2) ولكنه توصل الى استنباط الهدف الاساسي الذى كان يرمى اليه عبد المؤمن ،وهو تقويض نظام الشورى السابق وتعويضه بالنظام الملكي .وهذا امر لا شك فيه . لأن هذا ما قام به عبد المؤمن بالفعل .

ومن هنا يمكن القول بأن عبد المؤمن - بعد أن توصل الى مرتبة السلطان القاهر مدعوما - بدون شك - بعصبيته وقبيلته كومية (3) ،انتقل الى مرحلة جديدة وهي مرحلة الاستبداد . اذن كيف حدث هذا ؟

لقد احس عبد المؤمن بأن الحكم القبلي الذى كان يرأسه يعرقل مشاريعه لاقامة دولة قوية البنيان متينة الاركان ،لذا فقد شرع في تنفيذ خطة محكمة لازاحة القبائل عن السلطة الفعلية ،والاستحواذ بها دونهم ،وذلك بابعادهم عن المناصب التنفيذية . من ذلك أنه عين ابنه محمدا في مرتبة ولي العهد ،ثم خصص مناصب ولاة الاقاليم لابنائه (4) . وبعدها ابعد شيوخ القبائل عن المناصب التنفيذية والوظائف الادارية، وذلك بحجة تخصيص هذه المناصب للكفاءات ، حيث تخرج من المدرسة التي خصصها لتكوين اطارات في ادارة الاقاليم عدد من العلماء ذوى الكفاءات العالية ،لذا قال عبد المؤمن لشيوخ القبائل : ((العلماء أولى منكم

---

(1) - من المعروف أن عبد المؤمن وأن كان مقربا من قلب المهدى الا أنه كان قبل موت أبي محمد البشير الونشريسي في درجة تليه ،حيث كانت القيادة العسكرية من نصيب البشير في الاول . ومعركة البحيرة نفسها كانت تحت قيادته .وبعد وفاته بدأت القيادة الفعلية لعبد المؤمن .وربما كان هذا هو الدافع لعبد المؤمن في تحديد بداية هذه الفترة بمعركة البحيرة .

(2) - أنظر الدولة الموحدية : ص ،295.

(3) - كان في البداية يستند الى النظام الذى خلفه المهدى نظرا لافتقاره للعصبية، أما بعد أن احاط نفسه بعصبيته فقد سلك اسلوبا آخر في الحكم ،يميل الى الاستبداد ، وجعل مرتبة الملك وراثيه بين ابنائه .

(4) - ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ص : 137/136 . ابن خلدون : العبر، ج : 6 ، ص ص : 492/491 . السلاوى :الاستقصا ، ج : 2 ،ص : 123 . وجوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ،ج : 2 ،ص : 139 . وعبد الله علي علام : الدولة الموحدية ، ص : 226 .

فسلموا لهم)) (1) . وبالفعل ترك الشيوخ مناصبهم ، انصياعا منهم لأوامر الخليفة .
يضاف الى هذه الخطوة الكبيرة التى قام خلالها باستدعاء قبيلته كومية لتكون حامية له ، وأداة ردع للطامعين . وبهذا يكون قد استعان بالقبلية لاضعاف القبلية عملا بالمثل القائل : ((لا يفل الحديد الا الحديد)) .

وبالجملة فقد استطاع عبد المؤمن نقل السلطة الحقيقية من المجالس القبلية الى مؤسسات الدولة التى لا تخضع الا للخليفة . واذا كان عبد المؤمن قد تعرض لبعض المآخذ بخصوص قضائه على حكم الشورى ، وتحويله الى حكم سلطاني مستبد ، فانه - فى الحقيقة - ارسى دعائم دولة قوية امتدت حدودها من برقة شرقا والى بلاد الاندلس غربا (2) . ولولا صرامته وحزمه لما تحقق له ذلك فى مجتمع تسوده القبلية ، وتتحكم فى مصيره العصبيات المتحجرة . وهكذا عندما خلفه ابنه يوسف وجد بين يديه دولة عظيمة ممهدة الاطراف ، مستتبة الامن ، عزيزة الجانب ، فأضاف الى ما شيده والده مآثر أخرى ، حيث دعم سيادة الدولة ، وكبح جماح العصبيات . .

---

(1) - أنظر اندرى جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج : 2 ، ص : 140 . وقد قال فى هذا الامر عبد الله علي علام : ((وكان هؤلاء العلماء ، قد اخذوا بقسط من دراسة ادارة حكم الاقاليم ، ومزاولة شؤون الدولة المختلفة فاحسنوا عملهم ، وتنفس الشعب الصعداء من غلظة حكم القبائل ، الذين فهموا الحكم على أنه نوع من الغطرسة والاستعلاء)) ، الدولة الموحدية ، ص : 227) .

(2) - حدود الدولة الموحدية فى بداية عهد يوسف بن عبد المؤمن ذكرها ابن أبى زرع فقال ((فكان ملكه (أى يوسف بن عبد المؤمن) من سويقه بني مطكوك قاصية بلاد افريقية الى اقصى بلاد نون (نول) من ارض السوس الاقصى الى آخر بلاد القبلة ، وملك الاندلس ، من مدينة تطلية قاصية بلاد شرق الاندلس ، الى مدينة ستنوين من بلاد غرب الاندلس)) . (روض القرطاس ، ص : 135) . كما ذكر ابن أبى زرع فى موضع آخر بأن عبد المؤمن قد احصى بلاده بغرض فرض الخراج عليها فقال : ((امر عبد المؤمن بتكسير بلاد افريقيا والمغرب ، وكسر بلاد افريقية من برقة الى بلاد نون من السوس الاقصى بالفراسخ والاميال طولا وعرضا ، فاسقط من التكسير الثلث فى الجبال والصحارى والانهار والسبخات والطرقات . . .)) . (روض القرطاس ، ص : 129) . ومن هذا النص يمكن استنباط حدود الدولة الموحدية شرقا وغربا .

ولم يتوصل عبد المومن الى تدعيم اسس دولته وتشييد صرحها المتين الا بعد تضحيات كبيرة مست قبائل المغرب كلها تقريبا . وعندها أحست القبائل بقوة الدولة وصولتها . وعليه فقد هادنت سلطان تلك الدولة الفتية، وخضعت لسلطانه مؤقتا ، وان كانت لاتترك مشاغباتها ومؤامراتها من حين الى حين .

وقبل الحديث عن القبائل الثائرة والمشاغبة في ظل الدولة الموحدية يستحسن التنبيه الى أن الموحدين أنفسهم كانوا قبل قيام دولتهم - في نظر المرابطين - قبائل ثائرة ومشاغبة بدورهم . ولو فشلوا في اقامة دولتهم لما سجل التاريخ عنهم الا ما ذكره بخصوص القبائل المشاغبة والثائرة .

ان قبائل غمارة، ومديونة، وكومية، وبني عبد الواد ، وبني يلومي وبني توجين ، وبني مرين ، ومطارة ، وجزولة ، وصنهاجة . . . وغيرهم ممن قاوم عبد المومن عند تمهيد دولته يدخل جميعهم ضمن باب المقاومة والدفاع لكون تلك القبائل كانت في البداية خاضعة لدولة المرابطين وموالية لها . وتدخل في هذا الباب أيضا قبائل الاعراب من بني هلال وسليم التي كانت تحت ظل الدولتين : الزيرية والحمادية (1) . وطبعا كانت الحروب والفتن بين الدولة الموحدية والقبائل في البداية تدخل في نطاق حروب المقاومة والكفاح ضد السيطرة الخارجية . وذلك بالنسبة الى القبائل الموالية للدولة المرابطية . وعليه لايمكن اعتبارها قبائل مشاغبة آنذاك .

ولكن بعد تمهيد الدولة الموحدية ، وبعد اعتراف القبائل المذكورة بسلطانها ، سعت بعض القبائل منهم الى الخلاف والخروج عن الطاعة التي تمت من قبل بين تلك القبائل بنو مرين ، وجزولة وقبائل الاعراب من بني هلال واحلافهم (2) . ومن هنا اصبحت تلك القبائل المخالفة مصدر قلق وتشويش على الدولة الموحدية (3) .

(1) - اصطدم اعراب بني هلال واحلافهم بالموحدين في سطيف، وذلك دفاعا عن ملوكهم بني حماد . (انظر البيذق : اخبار المهدي ص ص: 136/135 . التجاني : الرحلة ص : 344 . ابن خلدون : العبر مج : 6 ص ص: 44-491 . السلاوي : الاستقصاء مج : 2، ص : 121) .

(2) - ذكر ابن صاحب الصلاة ومن بعده ابن خلدون بأن الاعراب قد نكثوا عهدهم مع عبد المؤمن ، وقال ابن خلدون بأنه قد اوقع بهم بعد فتح افريقية ، وقتل شيخهم محرز بن زياد القادفي من بني علي ، وهم بطن من رياح . هذا ولم يذكر هذا الخبر البيذق ، ولا المراكشي (انظر ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة مج : 2، ص: 123 - ابن خلدون : العبر مج : 6، ص ص: 44/45 - 494) .

(3) - يورد في كتاب اخبار المهدي بن تومرت للبيذق عدد كبير من الثورات القبلية باسماء زعمائها =

ان الدولة الموحدية - في عهد عبد المؤمن وبنيه - قد عرفت ثورات قبلية انتهى بعضها بالفشل الذريع ، بينما كانت نهاية هذه الدولة على أيدى قبيلة بني مرين واحلافها . وقد تمكنت هذه القبيلة من اسقاط الدولة الموحدية بالمطاولة ، أى بنفس الطريقة التي اسقط بها الموحدون دولة المرابطين .

وعليه يمكن تحديد فترة النكث والخروج اعتبارا من معركة البحيرة التي هزم فيها الموحدون . وكانت تلك الهزيمة عامل تشجيع لكثير من القبائل على التمرد . خاصة وان المجزرة التي ارتكبها أبو محمد البشير الونشرسي تحت غطاء التمييز تعتبر من أهم الدوافع الى الثورة على الموحدين (1) . هذا بالاضافة الى ان هذه الهزيمة قد زعزعت ايمان القبائل بالمهدى وتعاليم الموحدين . فاظن كثير من القبائل المنضوية تحت لواء الموحدين من قبل عصيانهم (2) . وقد تفاقم الامر ايضا عندما اعلنت وفاة المهدى وبيعة عبد المؤمن الذى لا عصبية له بين الموحدين آنئذ . وهنا اظن بعض الموحدين العصيان تبعا للنعرة التي تصدر عن العصبية . وما عصيان عبد الله بن ملوية (3) ، ونكثه للبيعة الا في هذا الاعتبار .

هذا وقد ذكر البيذق عددا كبيرا من القبائل التي ثارت على الموحدين بعد اسقاط الدولة المرابطية والاستيلاء على

---

* وقد احصى صاحب الكتاب الثورات القائمة في عهد عبد المؤمن وابنه يوسف فوصل عددها ثلاثة وثلاثون ثورة ، (ص ص: 155/160) . وبالطبع لا يدخل في هذا الاعتبار الثورات المشتعلة ببلاد الاندلس لكونها ليست ثورات قبلية .

(1) - ربما وصل عدد الذين قتلهم البشير في عملية التمييز (أى تمييز المنافقين من الموحدين) حوالي سبعة وعشرين الفا من اعداء القبائل على اختلاف انسابها (انظر عبد الله علام : الدولة الموحدية ، ص: 80-101/102-104) .

(2) - انظر عبد الله علي علام : نفسه ، ص ص: 80-102-105 .

(3) - وهو عبد الله بن يعلي الزناتي من أهل تازا واشتهر بابن ملوية ، وهو من العشرة اصحاب المهدى وقتل اثناء الفتنة التي اشعلها ضد عبد المؤمن (انظر مقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب ، ص: 33) . هذا وقد صرح البيذق ظروف الفتنة التي كادت قبيلة كنفيسة ان تتورط فيها لولا وعي بعض مشائخها ، حيث قتل عبد الله بايدى رجال القبيلة المذكورة بعد اكتشاف امره . (انظر اخبار المهدى ، ص: 85 . وعبد الله علي علام : المرجع السابق ، ص: 109) .

مراكش، من ذلك (1) : قبيلة جزولة التي تزعم الثورة بها عمر بن الخياط الملقب ببويكدى (2) وقد انجرت معهم ناحا في ثورتهم، ثم لحق بهم : رجراجة، وهزميرة، وهسكورة الوطاء (أى السهول)، ودكالة، وبنو ورياكل. وقد انتهت هذه الثورة القبلية بالتنكيل بالقبائل الثائرة، وصلب زعيمها على باب الشريعة بمراكش. وبعد هذا قام ابو حفص باخماد عصيان هسكورة، ونفيس، وهيلانة. كما جرد حملات على قبائل اخرى كبرغواطة، ودكالة، ورجراجة، وحاحا، وبني ورياكسل، وذلك للمرة الثانية.

والأهم من هذا كله أن البيذق انفرد بذكر حدث خطير وقع في عهد عبد المؤمن وهو ماسماه بالاعتراف (3). وهذا الاعتراف في الحقيقة عبارة عن مجازرة رهيبة أمربها عبد المؤمن في حق عدد من القبائل العاصية والمتمردة. وقد تمت هذه التصفيات في صفوف القبائل على نطاق واسع، بحيث شملت عددا كبيرا من قبائل المغرب. ويبدو أن هذه الحملة الشاملة هي التي خضعت قبائل المغرب الاقصى نهائيا لحكم عبد المؤمن. ويشرح البيذق الكيفية التي تمت بها هذه العملية الحاسمة فقال : ((خرج الخليفة للموحدين، وعمل لهم المجلس، ووعظهم، وقال لهم : الشارب اذا منع اللبن والماء ما جزاؤه؟ فقالوا له : يقصص. قال : احسنتم فيما قلتم. ثم دخل الخليفة، وكتب الجرائد لهم بالوعظ والاعتراف، وقسم لاشياخ الموحدين، وأمرهم بالسيف...)) (4).

(1)- انظر البيذق : اخبار المهدى، ص ص: 121/127.
(2)- تسمى باسم محمد بن عبد الله بن هود، وتلقب بالهادى. ثار في سنة 541هـ/1146م
(3)- لم يفسر البيذق لماذا سميت العملية بالاعتراف. وهي طبعا على غرار عملية التمييز السابقة. ويبدو أن المقصود بالاعتراف هو اعتراف القبائل بالدولة وسلطانها.
(4)- البيذق : اخبار المهدى، ص: 127.

وبالفعل انطلقت الحملة الجهنمية في ربوع المغرب ، وانتهت بمقتل حوالي اثنين وثلاثين الفا وثمانمئة من اعضاء القبائل المخالفة،من الذين يسميهم البيذق بأهل التخليط (1) . وقد ختم البيذق هذا الفصل بقوله : ((وتم الاعتراف بحمد الله وعونه ، والصلاة على محمد نبيه ، فهدّأ الله البلاد للموحدين ، واعانهم على الحق ,ونصرهم، وأقاموا الدين ولم يتفرقوا فيه ، وتمهدت الدنيا وازال الله ما كان فيها من التخليط ، فهذا كان سبب الاعتراف ، والحمد لله والصلاة على محمد نبيه ، والرضى عن مهديه ، وكان ذلك عام أربعة وأربعين وخمسمائة . . .)) (2) .

وبالفعل تمكن عبد المومن من تعزيز دولته وبث هيبتها في قلوب القبائل كلها بالمغرب . ومن علامات ذلك أنه بعد حادثة الاعتراف اراد فتح بجاية . ولما استدعت الحاجة الى الكتمان فقد منع السير في المسالك المؤدية من سلا الى مكناسة ،ومن فاس الى تلمسان . وقد كفاه ذلك أنه وضع بعض الامناء في تلك المسالك يمنعون المرور فيها . كما اذاع اعلانا من طرف منادٍ من قبله يقول : ((أيها الناس من تتم [illegible] اين هذا السفر فجزاؤه السيف)) (3) وبالفعل تحقق ما هدف اليه اذ فاجأ أهل الجزائر وأهل بجاية بزحفه .

وعند التأمل هنا يحس الانسان ما مدى التحكم الذى اضحى عبد المؤمن يسيّرُ به دفة الحكم في دولته . وبالطبع فلو حدث هذا في العصر الحديث، وضمن دولة حديثة لأمكن قبوله بسهولة، اما في عصر عبد المؤمن ، فيعني ذلك ان سلطان الدولة وقهرها وصلا الى حد في منتهى الضبط .

(1) ــ انظر البيذق : اخبار المهدي ، ص: 127/132.
(2) ــ نفسه ، ص: 131/132 .
(3) ــ وبالفعل فقد نفذ حكم الاعدام في احد العبيد (انظر البيذق : نفسه ص: 133).

و لما تولى الخلافة ابو يعقوب يوسف (1) بن عبد المؤمن بعد وفاة والده نشطت من جديد العصبية القبلية، وحاول بعضهم الثورة والتمرد الا ان ابا يعقوب واجههم بنفس الهمة التي اظهرها والده. وأولى الثورات كانت في سنة 559هـ/1163م وشارك في هذه الثورة بعض القبائل من غمارة وصنهاجة واوربة ضمن حلف عقد بينهم، وتزعمهم مزدغ الصنهاجي (2). وانتهت هذه الثورة بالفشل. وفي 562هـ ثارت غمارة وصنهاجة من جديد بقيادة سبع بن منغفاد، ولخمدت هي الاخرى (3). ويبدو ان هيبة الدولة ما زالت ثابتة في عهد يوسف ابن عبد المؤمن.

وعلى الرغم من ان عهد يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (4) كان عهد قوة وعنفوان فأنه لم يسلم من ثورات الاعراب الذين شايعوا ابن غانية (5) اللمتوني وقراقوش الغزي (6). ومع أن المنصور عاجل تلك الثورات بحملات ابادية لا رحمة فيها ولا

(1) - حكم من سنة 558هـ/1162م الى سنة 580هـ/1184م.

(2) - ابن ابي زرع: روض القرطاس، ص: 137، السلاوي: الاستقصا، ج: 2، ص: 147.

(3) - ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ج: 2، ص ص: 307/323، ابن ابي زرع: نفسه ص: 138. ابن خلدون: العبر، مج: 6، ص: 498. السلاوي نفسه، ج: 2، ص: 148

(4) - حكم من 580هـ/1184م الى سنة 595هـ/1198م.

(5) - وهو علي بن اسحاق المسوفي. كان جدهم محمد بن علي المعروف بابن غانية واليا من قبل المرابطين على جزيرتي: ما يورقه وما نورقه. وفي عهد يوسف بن عبد المؤمن دخل محمد بن اسحاق أحد احفاد محمد بن علي في طاعة الموحدين. وهذا اغضب اخوته الذين ثاروا عليه وعلى الموحدين. وقدموا عليهم اخوهم على ابن اسحاق الذي هاجم بجاية عندما سمع بموت يوسف بن عبد المؤمن. وبعدها استألف قلوب اعراب هلال وسليم وشنها ثورة مضنية على الموحدين بافريقية. (انظر ابن خلدون: العبر، مج: 6، ص ص: 390/409-505/511-515/521، السلاوي الاستقصا، ج: 2، ص ص: 159/161) التجاني: الرحلة، ص ص: 14/15-103/105 110-114/115-136/139-147-162-354/363.

(6) - وهو غير بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين، اما هذا فمن موالي تقي الدين شقيق الملك الناصر. تمكن من احتلال طرابلس حوالي سنة 586هـ/1190م. وتحالف مع ابن غانية على قتال الموحدين وامتلاك افريقية (المراكشي: المعجب، ص ص: 288/289. والتجاني: الرحلة، ص ص: 15-103/105-110/114-243/244).

شفقــة (1) الا أنه لم يستطع القضاء على الثائرين جميعا . وبذلك امتدت تلك الثورات والفتن الى عهد الحفصيين بافريقية . .بل تمادت قبائل هلال و سليم -بعد مـــوت ابن غانيه -في عصيانـها ومشاغباتها الى ما بعد سقوط الدولة الحفصية نفسها (2) .

ويقول ابن خلدون بأن القبائل التي انحازت الى ابن غانية هم :بنو سليم بكاملهم . وبعض الأحياء من هلال كرياح ،وجشم ،والأثبج . أما زغبة فقد بقيت على ولائهـــــا للموحدين (3) . هذا وقد قام المنصور بنقل المخالفين من الاعراب الى بلاد المغـــرب ليكونوا تحت نظره ،فانزل رياحا في الهبط بنواحي طنجة وسلا ، وانزل جشم (وهم أحياء مختلفة دخلوا في جشم ،منهم :قرة ،والعاصم ،ومقدم ،والاثبج وجشم ،والخلـــط) ببلاد تامسنا (4) . ويقال بأن المنصور ندم على نقلهم الى المغرب الاقصى (5) . ومع هذا لا يجب أن تنكر الخدمات الجليلة التي قدمتها قبائل هلال للدولة الموحديـــة في جهادها ببلاد الاندلس أو في كبح جماح الثوار في مختلف الجهـــــــات .

---

(1) -يؤيد هذا ماقاله التجاني بخصوص حصار قفصة من قبل المنصور ،اذ أمر جنـــوده بقطع ألف نخلة في كل يوم ،الامر الذى اجبر اهلها على الاستسلام ،ولكن بعـــد قطع جل نخيلها ،هذا من جهة ،ومن جهة فانه بعد استسلامهم امر بتهديم أسوار المدينة ،ثم ذبح عددا كبيرا من خصومه ،بعد فرزهم ،وفي ذلك يقول التجانـــي : ((فامر بذبحهم فذبحوا بين يديه اجمعين ،ولم يفلت أحد منهم ،وكان الاعمى الفهمي حاضرا وهو نحوى فاضل كان الخليفة يعينه لقراءة أولاد ، القرآن ،فطلب أن يسمـــح له بشخص منهم يتولى ذبحه بيده ، فاجابه الخليفة الى ذلك ،ولما اضطجع له طلـــب يسيرا من الملح والصعتر كما يفعله العامة بالضحايا فاضحك بهذا الفعل المبكـــي جميع من حضر)) (رحلة التجاني ، ص: 139/138 . أنظر أيضا المراكشـــي : المعجب ،ص: 274) . وهكذا بقلوب كهذه اكتسح المنصور ديار افريقية . وكــــان قبل استسلام قفصة قد شن حملات تصفية ضد قبائل الاعراب فاباد جمعهم وشرد هـــم في القفار وفل شوكتهم (أنظر رحلة التجاني ،ص :136 . وما بعدها وابن أبـــي زرع :روض القرطاس ، ص : 143 . وابن خلدون : العبر ،مج : 6 ،ص: 397) .

(2) -أنظر ما بعده .

(3) - أنظر ابن خلدون :العبر ،مج : 6 ،ص: 45 . 58 . 63 . 70 . 86 . 144 . 145 . 394 . 395 . 404 . أنظر أيضا السلاوى : الاستقصاء ،ج : 2 ، ص: 108 .

(4) - ابن خلدون : نفسه ، مج : 6 ،ص: 46 . أنظر أيضا الوزان : وصف افريقيا ،ج : 1 ،ص : 47 . السلاوى : نفسه ،ج : 2 ، ص: 168/170 .

(5) - قال ابن أبي زرع : " ولما اشتد به المرض (أى المنصور) قال :ماندمت على شئ =

لان جزءا كبيرا من الجيش الموحدي كان يتشكل من قبائل بني هلال واحلافهم (1).
وبالطبع لا يجب الحكم على الكل نظرا لتصرفات الجزء .

وبعد اعتلاء محمد الناصر لدين الله (2) بن المنصور عرش الموحدين مباشرة قام باخماد ثورة غمارة بزعامة علودان الغماري (3) . ومن جهة أخرى ثار ببلاد السوس ثائر من قبيلة جزولة قال المراكشي ان اسمه عبد الرحمن ويدعى بلهجة مصمودة "ابن الجزارة" (4) . وقام ايضا في بلاد جزولة ثائر آخر ادعى انه المهدي وتلقب بالقحطاني (5) واجتمع حوله عدد من القبائل ، وقد اخمدت هذه الثورة وقتل زعيمها . وتعددت الثورات هنا وهناك ولكنها منيت بالفشل . ولم يبق منها الا ثورة ابن غانية ومن ورائه اعراب بني هلال وسليم في افريقية . وعلى الرغم من زحف الخليفة الناصر الى تلك الديار ، فانه لم يتمكن من اخماد تلك الثورات والمشاغبات

= فعلته في خلافتي الا ثلاث وددت اني لم افعلها : اولها ادخال العرب من افريقية الى المغرب لاني اعلم انهم اصل فساد ، والثانية بناء رباط الفتح انفقت فيه من بيت المال وهو بعد لا يعمر ، والثالثة اطلاق اسارى الارك ولا بد لهم ان يطالبوا بثارهم " (روض القرطاس ص: 152) . وان كان ما قاله ابن ابي زرع صحيحا فمعناه ان قبائل هلال التي نقلها المنصور الى المغرب كانت مصدر قلق للدولة في تلك الديار .

(1) - انظر البيذق اخبار المهدي ، ص: 150-164/166 . وابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ج: 2 ، ص: 197-206-215-219-251-269-270-273/274-278-292-294-296-398-400-411/419-430/438-443-449/451-502/504-507/508-517-525 . المراكشي : المعجب ، ص: 224/226-6... ابن ابي زرع: روض القرطاس ، ص: 129-133-140-145/150-155-158 . ابن خلدون العبر ، ج: 6 ، ص: 497-498-500-504-511) .

(2) - بويع في حياة ابيه ، وقد اعيدت بيعته بعد وفاة والده سنة 595هـ/1198م وتوفي سنة 610هـ/1213م .

(3) - ابن ابي زرع: روض القرطاس ، ص: 153 . السلاوي : الاستقصا ، ج: 2 ، ص: 214 .

(4) - قال المراكشي ان هذه الثورة قامت سنة 597هـ/1200م . وذكر ان هذه الثورة افزعت الموحدين نظرا لفشلهم في اخمادها في بداية الامر ، وقال انهم لم يتوصلوا الى ذلك الا بعد الاستعانة بقبيلة مصمودة المجاورة له . ويستشف من اقواله انهم اثاروا نعرة العصبية لدى مصمودة حيث يقول : "بعد ان تقدموا (الموحدون) الى المصامدة ، والمجاورين للبلاد التي كان فيها ؛ وقالوا : انما يقوى هذا الرجل بتخاذلكم عنه ، ومسامحتكم اياه ، ولو شئتم لم يبق بالبلاد يوما واحدا فتحركوا عند ذلك واظهروا الحمية ، والتقوا هم واصحاب عبد الرحمن المذكور - وكان يدعى ابا قصبة ، فاسلمته جموعه وقتل" . (المعجب ، ص: 315-316) . انظر ايضا ابن خلدون : العبر ، ج: 6 ، ص: 515 .

(5) - هو عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس ، ويلقبونه بالمهر .

نهائيا . وكل ما حققه هو كسب جولات حربية لا غير . وربما كانت مشاغبات ابن غانيه واعراب افريقية من بين الاسباب التي اضعفت الدولة الموحدية في الاندلس ، وبالتالي عززت كفة النصارى في تلك الديار .

وهكذا اتضح بان عهد محمد الناصر بن المنصور هو الشعلة الاخيرة في عنفوان الدولة الموحدية . لان الخلفاء الموحدين بعده ضعفت احوالهم وتشتتت جهودهم ، وتبعثرت قواهم بين الفتن والمشاغبات القبلية التي لا يمكن احصاؤها في هذا المجال . وبذلك استطالت ايدي القبائل على الدولة واصبح زعماؤها يتلاعبون في ولائهم للدولة ، ويضاربون ويزايدون بين الاطراف المتخاصمة . وغدت دولة الموحدين كريشة في مهب الريح يتخاطفها الطامعون في كل مكان . ولم يبق في المسرح السياسي آنئذ الا القبلية المستحلة بعصبيتها ، والمعززة بابنائها واعرافها (1) .

2)- **الدولة الحفصية :**

اما الدولة الحفصية بتونس فهي امتداد للدولة الموحدية بمراكش لكونها نشأت من جسم الدولة الموحدية ذاتها . وذلك ان والي افريقية الموحدي اصلا تطلع الى مرتبة السلطان ، فاستبد بالحكم دون الخليفة ، فانفصل هذا العضو عن جسم الدولة بعد تسرب الضعف اليها .

ويبدو من الوهلة الاولى ان القبلية بعيدة كل البعد هنا . ولكنها في الحقيقة ليست بعيدة ، لانّ لها يدا في ذلك ، ولو بشكل غير مباشر . وهنا يحق التساؤل : كيف تم ذلك ؟

ان تعيين الشيخ عبد الواحد بن ابي حفص عمر الهنتاتي (2) اصلا جاء نتيجة

---

(1)- يمكن الرجوع الى ذلك في كتب التاريخ التي تسجل احداث الدولة الموحدية منذ عهد الخليفة يوسف المنتصر بالله الذي تربع على العرش سنة 610هـ/1213م وحتى مقتل الخليفة ابي العلاء ادريس الواثق بالله (ابي دبوس) سنة 668هـ/1269م (انظر ابن ابي زرع: روض القرطاس، ص ص: 160/183 . ابن خلدون : العبر، مج : 6، ص ص: 523/551 . السلاوي : الاستقصاء، ج : 2، ص ص: 226/264) .

(2)- كان وزيرا للناصر ثم عينه واليا على افريقية سنة 603هـ/1206م، وتوفي بها سنة 618هـ/1221م .

للحاجة التي استدعت وجود قائد قوي بافريقية لصد هجمات الملثمين بزعامة ابن غانية وحلفائه من اعراب تلك الديار (1) .ومن هنا يمكن للدارس ان يعرف مدى تأثير قبائل سليم وهلال على الدولة الموحدية التي ملت من عيث الاعراب وعصيانهم من جهة وفرغ صبرها من جراء الفتن والمؤامرات التي يحيكها ضد الدولة ابن غانية من جهة أخرى .لذا فقد تحتم على الخليفة الناصر (2) ان يعين ابا محمد عبد الواحد على رأس السلطة بافريقية ،بغرض مطاردة ابن غانية ،وتقليم اظافر الاعراب المشاغبين .وهكذا أضحى لآل حفص ولاية نائية مكنتهم فيما بعد من الاستبداد والانفصال عن الخلافة (3) .

وبهذا توصل الحفصيون الى مرتبة الملك (4) .ولما تربع هؤلاء على مرتبة السلطان وجدوا انهم في حاجة الى تدعيم اركان دولتهم الفتية ،ومد نفوذها الى أوسع نطاق ممكن ،طمعا في كرسي الخلافة بمراكش(5) . وقد وجد أبو زكرياء يحي في التناقضات القبلية القائمة آنئذ خير وسيلة لتحقيق اطماعه ،وبالفعل استغل هذا الامر

(1) ـ عانت الدولة الموحدية كثيرا من مخالفات الاعراب من بني هلال وسليم وجشم وغيرهم . لانهم لم يخضعوا لسلطان الدولة منذ قيامها الى سقوطها .وقد حاول عبد المؤمن كسبهم ولكن مساعيه فشلت ،لان اخلاصهم لا يدوم طويلا . (انظر ابن خلدون : العبر ،مج :6، ص: 52ـ58ـ59ـ63ـ66ـ70ـ144ـ145ـ494ـ502ـ 509ـ521/517) .

(2) ـ وهو عبد الله محمد بن يعقوب المنصور بن ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. حكم من 595 هـ/1198م الى سنة 610 هـ/1213م .

(3) ـ تم ذلك على يد ابي زكرياء يحي بن عبد الواحد ،وذلك سنة 627 هـ/1229م . (انظر الزركشي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص:24) .

(4) ـ لما بويع ابو زكرياء بالملك خص أهل قبيلته هنتاتة بالمناصب العالية في الدولة. ففي مرتبة الوزارة عين في البداية ميمون بن موسى الهنتاتي في منصب الوزارة .ولما عزله ولاها الى ابي يحي بن ابي العلا بن جامع ،ثم اسندت الوزارة بعد مماته الى ابن اخيه ادريس بن علي بن جامع ،وبعدها الى ابن اخيه الاخر ابي زيد محمد بن جامع ، وبعد مهلكه استوزر أبو زكرياء يحي بن صالح بن ابراهيم الهنتاتي . اما صاحب مشورته فهو عبد الرحمن بن ابي تهدي ، وصاحب الجباية عبد الرحمن بن ياسين . وذكر ابن خلدون بأنهم جميعا من هنتاتة . (انظر ابن خلدون :العبر ، مج :6 ،ص: 596 597/ .والزركشي :تاريخ الدولتين ، ص: 25/26) .

(5) ـ ابن خلدون : العبر ، مج :6 ، ص: 607 .

بذكاء .وهكذا وجد أمامه في مسرح الاحداث:قبائل هلال وسليم،وقبائل زناتـــة .

اما الاعراب فقد تمكن ابومحمد عبد الواحد من استئلاف بعضهم بعـــد تشريد ابن غانية في القفار،ومن الذين انظموا الى جيش ابي محمد بنو سليم، اما قبائل هلال فقد ظل منهم الدواودة - وهم من رياح -مع ابن غانية ،ولما تغلب أبو زكرياء على ابن غانية الذى انقرض امره ،قرب اليه مرداس وعلاق،وهما من بني سليم ، وشجعهما على اخراج رياح من بلاد افريقية قطعا لعيثهم ولفسادهم ، وبترا لخلافهم وعدم انصياعهم للدولة.وهكذا عزز ابو زكرياء جانب الدولة بقبائل سليم (1) . ولكنه ضرب بين علاق ومرداس فيما بعد ، منعـا لاجتماع الكلمة بينهما .وقد أغضب هذا الشيخ مرداس عنان بن جابر، فرحـل مع قومه نحو المغرب . وقد سبقت الاشارة الى القصيدة التي اجاب بها عنـان وزير السلطان ابي زكرياء ومطلعها (2) : (طويـــل)

خليليّ عُوجَا بين سليمٍ وحاجـرٍ * بعَوْجٍ عَنَّا جِيعٍ نواحٍ ضَوامِـرِ

وبهذا تدعم مركز السلطان ابي زكرياء، وقوى نفوذه السياسي بفضل الدعم الذى حظى بــه من طرف القبلية .وهذه الاخيرة استفادت ايضا بالحظوة التي اختصت بها في الدولة عامة، وما اختص به مشائخ القبائل من رتب سياسيـة سامية (3) .

اما قبائل زناتة فقد استعان بهم ابو زكرياء في احتلال المغرب الاوسـط -الى جانب الاعراب - وذلك انه استغل التناقض والعداء الحاصل بين بـــني توجين وبني منديل من جهة وبني عبد الواد من جهـة اخرى. فتظاهــر باعانتهم ضد يغمراسن ، بينما كانوا في الحقيقة هم الذين اعانوه في مد سلطانــه على المغرب الاوسط كله . وبذلك تمكن ابو زكرياء بفضل الصراعات القبليـــة -القائمـــة بين احيـــــاء زناتـــــة - مـــن

---

(1) -انظر ابن خلدون :العبر مج :6، ص:148/144 .

(2) -انظر فصل اثر العصبية القبلية على النظم الثقافية،والملحقات بآخر البحث .

(3) - قال ابن خلدون بخصوص بني عوف من سليم ومكانتهم في الدولة الحفصية ((وملك بنو عوف سائر ضواحي افريقية، وتغلبوا عليه، واصطنعهم السلطان (ابو زكرياء) واثبتهم في ديوان العطاء .ولم يقطع شيئا من البلاد .واختص بالولاية منهم اولاد جامع قومه، فكانوا له خالصة، وتم تدبيره في غلب الدواودة ورياح في ضواحي افريقية، وازعاجهم عنها الى ضواحي الزاب وبجايـــة وقسنطينـــة)) (العبر ، مج : 6 ،ص:146) .

تعزيز سلطانه ونشر نفوذه السياسي على افريقية والمغرب الاوسط جميعا . كما عمل على تدعيم الخلاف القائم بين العبد الواديين و ا لقبائل المعادية لهم باقامة امارات موالية للحفصيين وفاصلة بين افريقية وتلمسان، وهي امارة بني توجين، وامارة بني منديل وامارة مليكش، وهذه القبائل كلها مناوئة ومعادية لبني عبد الواد (1) .

ومن الاحداث البارزة في الدولة الحفصية التي توضح مدى الاثر الذي تتركه القبلية في النظام السياسي للدولة، وبالخصوص ضمن المراتب العليا ما قامت به قبيلة الدواودة (الرياحية) من تقديم بيعتها للامير ابي اسحاق بن ابي زكرياء، عندما خرج على أخيه المستنصر (2) . وكانت هذه القبيلة من قبل قد اجارت القائد ظافر مولى المستنصر الذى هرب منه اليهم (3) . كما بايعت فيما بعد ابا القاسم ابن ابي زيد ابن عم المستنصر، ولكنها خذلته فهرب الى الاندلس (4) . وقد اسفر هذا التصرف منهم عن غضب المستنصر الذى قاد حملة ضد الدواودة فقتل مشائخهم ونكل بهم وشردهم ، ولكنهم عادوا من جديد الى خلافهم وعصيانهم فانصاعت الدولة لهم (5) . ويبدو أن استفحال أمر الاعراب وتغلبهم على الدولة بدأ لاول مرة بعد ظهور ابي عمارة (الدعي) (6) ، حيث تمكنت قبائلهم

(1) ـ ابن خلدون ، العبر ، مج :6 ، ص: 607/610 ، محمد الهادى العامرى : تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ، ص: 14/15 .

(2) ـ وهو محمد المستنصر بن ابي زكرياء يحي ، حكم من 647هـ/1249م الى 675هـ/1276م .

(3) ـ انظر ابن خلدون ، المصدر السابق ، مج :6 ، ص: 628/632 .

(4) ـ نفسه ، مج :6 ، ص: 658/659 .

(5) ـ نفسه ، مج :6 ، ص: 661/663 .

(6) ـ وهو احمد بن مرزوق بن ابي عمارة احتل تونس سنة 681 هـ/1282م ، وقتل سنة 683 هـ/1284 .

من تعصب هذا الاخير على سدة الحكم في الدولة الحفصية بعد الاطاحة بالسلطان الشرعي (1) . ولما تنكر لهم أبو عمارة واساء معاملتهم قلبوا له المجن، وتآمروا عليه ، وكانت النهاية أنه سقط وكشف أمره .كل ذلك بسبب خروج الاعراب عنه (2).

(1) ـ يقول ابن خلدون في هذا الامر : ((وقام بامره (اعرابي عمارة) مرغم ابن صابر بن عسكر امير دباب . جمع له العرب ونازلوا طرابلس . . فامتنعت عليهم فرحلوا الى مجريس الموطنين بزنزور وجهاتها من هوارة ، فاوقعوا بهم . ثم سار في تلك النواحي واستوفى جبايته من لماية ، وزوارة ، وزواغة . واغرم نفوسة وغريان ، ومغر، من بطون هوارة ، وضائع ألزمهم اياها واستوفوها ثم زحف الى قابس فبايع له عبد الملك بن مكي . واظهر بخلافته ونادى في قومه ، واستخدم له بني كعب من سليم ... فاجابوا داعيه وانابوا الى خدمته)) . (العبر ، ج 6، ص: 690). هذا وقد توالت عليه فيما بعد البيعات من جميع جهات افريقية ومدنها . ولم يبق امامه الا تونس التي دخلها بسهولة في سنة 681 هـ/1282 م (انظر في هذا ايضا ابن القنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص ص: 141/143 . والزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ص: 45/46) .

(2) ـ قال في هذا ابن خلدون : ((وكان الدعي قد أسف العرب وثقلت وطأته عليهم بما كان يسيء الملكة فيهم . فليوم دخوله شكى اليه الناس عيثهم فتقبض على ثلاثة منهم وقتلهم وصلبهم، ثم سرح شيخ الموحدين عبد الحق بن تافراكين لحسم عللهم ، وأوعز اليه بالاثخان فيهم فاستلحم من لقي منهم . ثم تقبض على مشائخ بني علاق ، واودعوا وسجونه منهم نيفا على الثمانين . فساء اثره فيهم، وتطلبوا اعياص البيت ، وتسامعوا بخبر الامير ابي حفص بمكانه من قلعة سنان ، فدخلوا اليه ، واتوه بيعتهم في ربيع سنة ثلاث وثمانين ، وجعلوا له شبها من الالة ، والاخبية ، وقام بامره ابو الليل بن احمد أميرهم ..)) (العبر، ج 6، ص: 695) . وبالفعل تمكن هؤلاء الاعراب من تنصيب ابي حفص

وبعد قتل ابي عمارة انتصب على سدة الحكم الامير ابو حفص عمر ابن ابي زكرياء (1) . وجاء هذا السلطان في وقت هيمنت فيه القبائل على موسسات الدولة الحفصية . فاضحى منصب السلطان بين ايديهم ، ينصبون فيه من أحبوا ، ويزيحون عنه من كرهوا . فالكلمة الاولى والاخيرة كانت في حوزة الاعراب . لذا فقد خضع ابو حفص للقبائل التي نصبته سلطانا ، فاعطاهم كل ما ارادوا ، اذ اقطعهم البلاد كلها (2) . وتقلص سلطان الدولة امام سلطان القبيلة . وبهذا اضحت المراتب السياسية في طوعهم ، ولم يبق من الدولة الا هيكلها الاجوف . وقد زاد في ضعف الدولة واضطرب حالها الانقسامات الداخلية في البيت المالك . والاخطار الخارجية ، المتمثلة في احتلال النصارى لجربة (3) .

والغريب في الامر ان ابا حفص نفسه ، لم يسلم من مشاغبات الاعراب ومؤامراتهم على عرشه .. علما بأنه منحهم كل ما طلبوه من اقطاعات ، ولاية ... الخ . وقد ظهر خلافهم عندما انضموا الى خصمه ومنافسه أمير بجاية

- على سدة الحكم بتونس . وبذلك يتجلي الدور الخطير الذي كانت تلعبه القبلية آنئذ . حيث تقيم من تشاء ، وتسقط من تشاء ، ولاحول ولا قوة للسلطان أو الملك . ولاسلطان في تلك الديار الا سلطانهم ، ولاحكم الا حكمهم . (انظر العبر ، مج : 6 ، ص : 696/689 . انظر ايضا ابن القنفذ القسنطيني : الفارسية ، ص : 145/141 . والزركشي : تاريخ الدولتين ، ص : 50/45 . ومحمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي ، ص : 85 .

(1) — حكم من سنة 683 هـ/1284 م الى سنة 694 هـ/1294 م .

(2) — قال ابن خلدون : ((واقطع (ابو حفص) البلاد والمغارم للعرب ، رعيا لذمة قيامهم بأمره ، ولم يكن لهم قبلها اقطاع . كان الخلفاء قبله يتحامون عن ذلك ، ولا يفتحون فيه على انفسهم بابا)) . (العبر ، مج : 6 ، ص : 697/696 .) .

(3) — انظر تفاصيل ذلك في كتاب ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 710/695 . وابن القنفذ : الفارسية ، ص : 150/149 .

ابي زكرياء بن ابي اسحاق . وذلك أنه زاحمه في الملك وطالب بالعرش الحفصي بتونس . وعند زحفه الى تونس وقابس ومسراته انظم اليه من الاعراب عدد كبير منهم : دباب ممثلين بعبد الله بن رحاب بن محمود ، والجوارى ، والمحاميد ، وآل سالم ، واعراب برقة (1) ، هذا بالاضافة الى بعض اعراب المغرب الاوسط : كبني يعقوب ، وبني عامر جميعهم ، والدواودة ، وانضمت اليهم كذلك قبيلة سدويكش (2) الكتامية . ومن جهة اخرى فان اعراب دباب بايعوا أيضا عثمان بن ابي دبوس الموحدى عندما قدم الى طرابلس في اسطول لنصارى برشلونة ، حيث حاصروها واحتلوها ، ثم نشروا عيثهم في شرق تونس (3) .

ويبدو أن الاعراب اصبحوا في هذا العهد لا يعطون أى اعتبار يذكر الى مرتبة السلطان والملك . وخير دليل على ذلك الحادثة التي حصلت في مسجد الزيتونة ، اذ دخل اليه شيخ من مشائخ قبيلة الكعوب من بني سليم اسمه هداج بن عبيد قيل انه لم يخلع نعله في المسجد . ولما اعترض عليه الناس قال لهم ((اني ادخل به مجلس السلطان)) فثارت حمية العامية فسطوا اليه وقتلوه (4) . وكانت هذه الحادثة في عهد

(1) ـ انظر ابن خلدون :العبر ، مج :6 ، ص: 701 .
(2) ـ ابن خلدون : نفسه ، مج : 6 ، ص: 699/700 .
(3) ـ نفسه ، مج : 6 ، ص: 703/704 .
(4) ـ قال ابن خلدون شارحا ذلك : ((كان هؤلاء الكعوب قد أترفتهم الدولة ، واصطنعتهم منذ قيامهم بامر الامير ابي حفص فاعتزوا ونموا وبطروا النعمة ، وكثر عيثهم وفسادهم وطال اضرارهم بالسابلة ، وحطمهم للجنات وانتهابهم للزرع فاضغن لهم العامة وحقدوا عليهم سوء آثارهم . ودخل رئيسهم هداج بن عبيد سنة خمس وسبعمايـة الى البلد فخزرته العيون ، وهمت به العامة . وحضر المسجد لصلاة الجمعة ، فتجنوا عليه بأنه وطئ المسجد بخفه . وقال لمن =

السلطان ابي عبد الله محمد المستنصر بالله بن محمد الواثق (1) . وتسببت في تمرد الكعوب واحلافهم على الدولة ، ووقوفهم خلف ابي دبوس . وعلى الرغم من كدرهم ، واسر مشائخهم ، فأنهم ظلوا شوكة في حلق الدولة .

وفي عهد المستنصر بالله هذا تظاهر سكان تونس احتجاجا على تهاون الدولة عن ردع الاعراب وكبح جماحهم . لان شأن الكعوب قد استفحل على الدولة آنئذ وعجزت عن صدهم ، ومنع عيثهم ، وقطعهم للطرقات ، واعتراض السابلة (2) . وعلى الرغم من القبض على شيخ الكعوب أحمد بن ابي الليل ، وحليفه من شيوخ هوارة سليمان بن جامع ، فان الاعراب لم يتوقفوا عن مشاغباتهم وتآمرهم . ولما زحف ابو البقاء خالد بن أبي زكرياء (3) سلطان بجاية الى حاضرة تونس بغرض فتحها انضم الكعوب اليه ، وكانوا هم الذين اغروه بامتلاكها (4) . والغريب ان هؤلاء الكعوب وأولاد ابي الليل بالذات كانوا هم ايضا الذين اغروا زكرياء بن ابي العباس أحمد بن اللحياني (5) بامتلاك تونس ، واسقاط دولة حليفهم السابق ابي البقاء ،

= نكر عليه ذلك " اني ادخل به مجلس السلطان " فثاروا به عقب الصلاة وقتلوه . وجروا شلوه في سكك المدينة . فزاد عيثهم واجلابهم (اي الكعوب) على السلطان . واستقدم احمد بن ابي الليل شيخ الكعوب لذلك العهد عثمان ابن ابي دبوس من مكانه بنواحي طرابلس ، ونصبه للامر ..)) (العبر ، مج : 6 ، ص ص : 715/716) (انظر ايضا الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص : 56) .

(1) ـ اشتهر باسم ابي عصيدة . وقد حكم من سنة 694 هـ/1294 م الى سنة 709 هـ/1309 م . وقد تولى هذا السلطان عرش الدولة بتأثير من الشيخ ابي محمد عبد الله المرجاني ، وهو من الصوفية .

(2) ـ انظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص : 715/717 . الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ص : 56/57 . محمد الهادى العامرى : تاريخ المغرب العربي ، ص ص : 88/89 .

(3) ـ تولى الامر بتونس من سنة 709 هـ/1309 م الى سنة 711 هـ/1311 م .

(4) ـ ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 733 . تاريخ الدولتين ص ص : 58/59 العامرى : تاريخ المغرب العربي ، ص : 89 .

(5) ـ حكم من سنة 711 هـ/1311 م الى سنة 717 هـ/1317 م .

خالــد (1) . وقد كافأهم اللحياني بان اشركهم في سلطانه ، واطلق يدهم في شؤون الدولة (2). ومع هذا لم تتورع فئة من اولاد ابي الليـــــل هؤلاء عن خيانة هذا السلطان وولده عندما انضم اخو حمزة شيخهم المدعو مولاهم الى خصمهم السلطان ابي زكرياء (سلطان بجاية آنئذ) . ولم يمـــــض هذا على ولائه لسلطان بجاية أكثر من أيام معدودات ، وخالفه لما طلـــب منه أخــوه حمزة ذلك (3).

وقد أورد الزركشي خبرا يؤكد ما لدى رؤساء الكعوب من نفـــوذ في الدولة، وذلك ان حمزة بن أبي الليل اعترض حاشية السلطان ابي العباس احمد اللحياني مع ولده ابي ضربة ، وهم منهزمين الى القيروان فاستفسرهم عن حالهم ((فقالوا الى القيروان ومن ثم نكاتب السلطان بقابس ، ونعرفه ان صاحب قسنطينة قد ملك تونس ،فقال لهم (حمزة) هذا هو السلطا ن ـ يعني به محمدا ابا ضربة ـ ونزل فبايعه ، وجميع الناس، واجتمعت عليـــه كلمة الموحدين والعرب ، وذلك في أواسط شعبان من عام سبعة عشر، ورجعوا جميعهم الى تونس . فكتب حمزة بخطه لاخيه مولاهم ارجـــع بسلطانك فرجع ، ورجع به من رياض السناجرة، بعد أن اقام بها سبعـــة أيام ... وسار الى قسنطينة ،ورجع عنه مولاهم من تخوم وطنه ...)) (4).

ان هذا النص في الحقيقة لا يحتاج الى تعليق،لانه يعبر بكل وضوح عن التأثير القوى الذى اضحى للقبلية في النظام السياسي بدولة بني أبـي حفص .فصاحب الحل والعقد هنا هو شيخ قبيلة ابي الليل من الكعـــوب،

(1) ـ ابن خلدون :العبر مج :6 ص:742 . الزركشي :تاريخ الدولتين ، ص : 61 . العامرى :تاريخ المغرب العربـــي ، ص:90 .
(2) ـ انظر ابن خلدون : العبر مج :6، ص:749 . العامرى تاريخ المغرب العربي ص: 90 .
(3) ـ ابن خلدون :نفسه مج :6 صص: 750 / 751 .الزركشي :تاريخ الدولتين ، صص:64/65 .
(4) ـ الزركـــــشي : نفســه ، ص :65 .

وما المشائخ من الموحدين الا اتباع له . فها هو يبايع ابا ضربة بدلا من والده احمد بن اللحياني بكل بساطة ،ويقول لا هل الدولة: "هـــذا هو السلطان " ،فيتبعون الابن . هذا من جهة ،ومن جهة أخرى تتجلى العصبية على حقيقتها ، اذ يسارع حمزة بن عمر – في ثقة تامة – الى الكتابة لأخيه الذى انحاز الى صف الخصم غيرة منه (أى من أخيه ذاته) فيقول له : "ارجع بسلطانك " ،فينسى مولا هم غيرته وحسده لاخيه ، ويطيعه بكل بساطة . والاغرب من كل ذلك تنفيذ السلطان ابي بكر (قبل توليه عرش تونس) أمر شيخ القبيلة لأخيه ، فيعود فعلا من حيث أتى . فأى أثر اكثر من هذا للقبلية على سلطان الدولة ؟ وفي الحقيقة فان الدولة الحفصية في هذه الفترة الزمنية ركعت بين اقدام القبلية ، وأضحت كالعوبة تتلاقفها القبائل من كل جهـــة .

أما في عهد أبي يحي ابي بكر بن ابي زكرياء (1) فقد بدأ الأمر يتغير بعض الشيء فعادت بعض الهيبة للدولة وتمهدت البلاد (2) . اذ حول هذا السلطان اعتماد الدولة على اعراب افريقية ، واصبحت تعبئته وحشوده يجلبها من جهات قسنطينة وبجاية (3) . وعليه اضحت القوة الضاربة في جيشه من قبائل زناتة ، وصنهاجة ، وكتامة . كما تنبه هذا السلطـــان أيضا الى الداء الذى اضربا لسلاطين السابقين ، حيث كان الاعراب يتظاهرون بانقسامهم وخلافهم ، فتنضم فئة منهم الى طرف من الاطراف المتخاصمين ، وعندما تقتضي مصلحة القبيلة ترجيح كفة معينة ، فما على الشيوخ الا أن

---

(1) – احتل سدة الحكم نهائيا بتونس سنة 718 هـ/1318م وتوفي وهو في الحكم سنة 747 هـ/1346م .

(2) – ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص: 790/792 .

(3) – ابن خلدون : نفسه ، مج : 6 ، ص: 749/750-752-756-761/762-763-766/767-769-776-791/792 .

يتفاهموا على من تكون الهزيمة ولمن يكون النصر، وبالطبع تكون مصلحة القبائل فوق كل اعتبار. فالسلطان الذى يدفع أكثر هو الذى ينتصر، ولما اكتشف السلطان ابوبكر العلة سارع الى القبض على الشيخ مولاهم أخى حمزة بن ابى الليل ماذ كان كعادتهما كل واحد في معسكر، يتظاهران بعدائهما لبعضهما بعضا. عندها زحف حمزة على تونس للضغط على السلطان لكي يطلق سراح أخيه وبقية مشائخ أولاد ابى الليل، فكانت النتيجة هي أعدامهم من طرف السلطان (1). وبذلك بدأ يتحرر من نفوذ قبيلة الكعوب، خاصة بعد أن ركز اعتماده على قبائل اخرى لم تتورط كثيرا في اللعبة السياسية بافريقية. وربما يكون هذا هو السبب في قوة ابى بكر وتحكمه في مملكته بعض الشيء، خاصة عندما اسند ولاية الاقاليم الى ابنائه وخاصته (2). وبالفعل فقد مهد هذا الى زحزحة نفوذ اعراب سليم نوعا ما. ولولا هجوم المرينيين على تونس لتعزز سلطان الدولة ونفوذها أكثر من هذا.

وقد استغلت القبائل الشائعة زحف ابى الحسن المريني على المغرب الاوسط وافريقية طمعا في تحقيق اطماعهم (3). ولكن هذا السلطان المريني وقف حجر عثرة في طريقهم، بل اراد ان يسلبهم ما اكتسبوه من قبل من اقطاع ونفوذ. ويبدو أن ابا الحسن المريني كان يجهل مدى نفوذ قبائل سليم في افريقية، كما يجهل قوتهم الحقيقية. وعليه فقد كانت تلك القبائل سببا في هزيمته هزيمة نكراء، بل كانوا سببا في ضياع ملكه، واغتصاب

---

(1) — ابن خلدون: العبر، مج: 6، ص: 762/763.

(2) — ابن خلدون: نفسه، ج: 6، ص: 757/758 — 785/788 — 792 — 798/799 — 803/807. الزركشي: تاريخ الدولتين، ص: 72 — 75 — 78.

(3) — حاول حمزة بن ابى الليل اغراء ابى الحسن المريني باحتلال تونس،

عرشه مـن طـرف ابنـه ابي عنـــان (1) .

ويشاء الله أن تتكرر الاحداث مع بعض التفاوت . وذلك أن جيـوش ابي عنان نفسه عند زحفها على افريقية انهارت عزائمها خوفا من فتنــة الاعراب . خاصة بعد أن تنكر اعراب رياح الهلاليين ممثلين بشيخ أولاد سباع يعقوب بن علي بن أحمد الذى تخلى عن ابي عنان في لحظـات حرجة ، احتجاجا على احكامه السلطانية التي تقتضي الهيمنة ، والقهـر ، وسيادة الدولة المطلقة في الاتـــوات وغـيره (2) .. ولما كانت القبائل الهلالية والسليمية قد تعودت على اطلاق يدهم في البلاد التي اقطعـت لهم من قبل ، فانهم رفضوا الانصياع لاحكام الدولة . وبذلك خرجوا من جديد عن الطاعة ، ورفعوا لواء العصيان .. وهكذا يعيد التاريخ نفسه . وحـدث في عهد ابي عنان ، ما حدث في عهد أبيه ابي الحسن . وكانت النهايـة ، خروج افريقية والمغرب الاوسط عن سلطان الدولة المرينية نهائيا . بـل انهت ـ بصورة غير مباشرة ـ حياة ابي عنـان نفسه مقتولا بأيدى وزيره (3) .

= مباشرة بعد الاطاحة بالدولة العبد الوادية ، ولكن السلطان المريني لـم يحقق لـه غرضه ، واكتفى بالشفاعة فيه عند السلطـان الحفصي . ولكنه لبى ندائهم في المرة الثانية ، وهجم على افريقية واطاح بالدولة الحفصية ، ولكنـه لم يطح بالقبلية ، بل هي التي اطاحت بـه .

(1) ـ ابن خلدون : العبر ، مج :6 ، ص: 826/811 . مج :7 ، ص: 582/557 . الزركشي : تاريخ الدولـتين ، ص: 82/86ـ88/90 . العامرى : تاريخ المغرب العربي ، ص: 97/106 .

(2) ـ ابن خلدون : العبر ، مج :6 ، ص: 843 . مج :7 ، ص: 618/619 . الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص: 97/98 . السـلاوى : الاستقصاء ، ج :3 ، ص: 202 .

(3) ـ ابن خلدون : العبر ، مج :6 ، ص: 843/844ـ846/852 . مج :7 ، ص: 620/623 . السلاوى : الاستقصاء ، ج :3 ، ص: 202/205 . العـامرى : تاريخ المغرب العربي ، ص: 107/111 .

وقد استعادت الدولة الحفصية قوتها في عهد ابي العباس أحمد بن ابي عبد الله ابن ابي بكر (1) . ويبدو أن ثمة شبه كبير بين هذا السلطـان وجده ابي بكر (2) . حيث اتبع خطواته في تمهيد الدولة وتدعيم مؤسساتها، من ذلك انه زحف الى العاصمة تونس من غرب البلاد (بجاية وقسنطينـة). وهذا بالاضافة الى أنه اعتمد على حشود وتعبئة مشابهة لتعبئة جـده، وقد تكون مشكلة من قبائل كتامية ، وصنهاجية ، وزناتية ، وبعض الاعراب من قبائل هـلال المخالفين لاعراب سليم المهيمنين على افريقية (3) . وبالتالـي فقد اسند ولاية الاقاليم الى ابنائه كما قام بذلك جده من قبـل (4) . ولم يترك للقبائل فرصة يستفحلون فيها اذ كبح جماحهم، وقطع عنهم الامتيازات التي افتكوها من الدولة في سابق عهدهم . وبالطبع فان تلك القبائـل حاولت المقاومة واشغال الدولة بالفتن الداخلية والخارجية، ولكنهم فشلـوا في مساعيهم ،واضطروا الى مسايرة الظروف المفروضة عليهم (5) . ومع هـذا لم يتوصل ابوالعباس الى مستوى من القهر يؤهله لاخضاع القبائل خضـوعا

(1)ـ بويع بتونس سنة 772 هـ/1360م وتوفي بها سنة 796 هـ/1393م .

(2)ـ انظـر ما قبلـه .

(3)ـ انظر ابن خلدون : العبر ، مج :6 ،ص ص:858/862ـ866/868ـ878ـ901 . الزركشـي : تاريخ الدولـتين ، ص:105 .

(4)ـ ابن خلدون : العبر ،مج :6 ، ص ص:874/877ـ880ـ895/896ـ900ـ905ـ908ـ909/912 . ابن القنفذ : الفارسية ، ص ص:186ـ187 . الزركشي تاريخ الدولتين : ص ص:109ـ113 . العامري : تاريخ المغرب العربـي ص:137 .

(5)ـ انظر ابن خلدون : العبر ، مج :6 ، ص ص:869/872ـ877/881ـ885/894ـ899/902 . ابن القنفذ : الفارسية ، ص ص:187ـ188 . الزركشي : تاريخ الدولتين ص ص:106/110 الوزير السراج :الحلل السندسية مج : 1 ،قسم :4 ، ص:1065 . العـامري ، تاريخ المغرب العربي ص ص:137/140 .

مطلقا ،اذ كل الذى حققه هو اقامة هدنة مؤقتة مشوبة بالحذر بينه وبين القبائل المرتبطة بالدولة (1).

هذا وقد واصل السلطان ابو فارس(2) عبد العزيز بن ابي العباس ما قام به والده من تمهيد للدولة وتعزيز سلطانها ، الامر الذى مكنه من اخضاع المغرب بكامله : ادناه ، واوسطه، واقصاه (3)،ولكن ذلك لم يدم طويلا . واستطاع هذا السلطان ايضا اخضاع قبائل بني هلال وسليم للدولة في بعض الفترات ، وتوصل الى فرض زكاة العشر على الاعراب وهذا أمر يدل على قوة الدولة في عهده(4). وقد تكون أمه هي مصدر قوته ، لأنها من قبيلة المحاميد من اعراب سليم(5) . ومع هذا عادت القبلية الى عزتها وقوتها بعد وفاة ابي فارس . ولم تغد الدولة حملات التأديب التي شنها سلاطين بني حفص على القبائل المختلفة ، حيث زالت الدولة ولم تزل القبلية (6).

(1)- انظر ابن خلدون : العبر، مج : 6،ص ص: 870/871-878، 881-886/ 887-891/893-895/898-900/902-905/906/907. الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ص: 108-111 .

(2)- تولى الحكم سنة 796 هـ/1393 م ، وتوفي سنة 837 هـ/1433 م .

(3)- انظر الزركشي : تاريخ الدولتين، ص ص: 125/126 . الوزير السراج :الحلل السندسية :ج :1، قسم :4، ص: 1076 . ابن ابي الضياف،اتحاف أهل الزمان ، ج :1،ص: 231 . العامري :تاريخ المغرب العربي،ص: 142 .

(4)- الوزير السراج : نفسه، ج :1، قسم :4، ص: 1073 . ابن ابي الضياف ، اتحاف اهل الزمان، ج :1، ص: 251 . العامري : تاريخ المغرب العربي ، ص: 144 .

(5)- ذكر الزركشي أن أمه ام ولد تسمى جوهرة وتنتسب الى الحراث أحد أحياء قبيلة المحاميد من سليم (انظر تاريخ الدولتين، ص: 114).

(6)- انظر التفاصيل في كتاب السراج : الحلل السندسية،ج :1،قسم :4،ص : 1080 . وما بعدها،وابن ابي الضياف : اتحاف اهل الزمان،ج :1،ص: 233 وما بعدها،والعامري :تاريخ المغرب العربي، ص: 145 وما بعدها .

3) - الدولة العبد الوادية :

بنو عبد الواد قبيلة من قبائل الطبقة الثانية من زناتة . كانت مواطنهم ايام الدولة الصنهاجية مع اخوانهم من بني واسين بالقفر الممتد من ملوية الى بلاد الزاب. بينما يحتل التلول أهل الطبقة الاولى من زناتة : كبني يفرن، ومغراوة ، وبني يلومى ، وبني وامانوا (1). ولما تغلبت الدولة الموحدية على المغربين : الاقصى والاوسط شايعهم بنو عبد الواد فاقطعتهم الدولة بلاد بني يلومي وبني وامانوا بضواحي المغرب الاوسط (2). واصطنعتهم الدولة بذلك، فاضحوا من القبائل المخزنية التي تعتمد عليهم الدولة الموحدية في اخضاع القبائل الاخرى وجلب الخراج منهم . وظل بنو عبد الواد على تلك الحال الى أن سنحت لهم الفرصة - حين تسرب الضعف للدولة الموحدية - فاستبدوا بولاية تلمسان ، وبعدها اعلنوا دولتهم الخاصة ببلاد المغرب الاوسط (3).

وهكذا توصلت قبيلة بني عبد الواد الى سدة الملك بالطريقة نفسها التي شرحها ابن خلدون ، حين فسر تدرج العصبية الى الملك الذي يعتبر غاية لها (4) . فنظرا للعصبية الجياشة التي كانت لبني عبد الواد تمكن شيخها من التغلب والاستبداد في تلمسان ، حيث اعلن عن قيام الدولة العبد الوادية ، وبهذا اصبحت هذه القبيلة دولة تواجه قبائل اخرى طامعة

---

(1) - انظر عبد الرحمن بن خلدون : العبر، ج :7، ص ص: 127 - 148 .
يحي بن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق : حاجيات ، ص: 186 .

(2) - عبد الرحمن بن خلدون : العبر، ج :7، ص ص: 129 - 149 / 151 - 159 .
يحي ابن خلدون : بغية الرواد ، ج :1، ص: 198 .

(3) - انظر عبد الرحمن بن خلدون : العبر، ج :7، ص ص: 151 / 154 - 159 / 163 .
يحي بن خلدون : بغية الرواد ، ج :1، ص ص: 199 / 200 ، محمد بن عبد الله التنسي : مقتطف من نظم الدر والعقيان ، تحقيق : محمود بوعياد ، ص ص: 112 / 113 .

(4) - انظر ما قبله .

في الملك ، وتستهدف الاطاحة بالدولة القائمة . وبذلك طويت صفحة وفتحت صفحة أخرى، يمكن من خلالها معرفة الادوار التي قامت بها القبائل المختلفة تجاه الدولة العبد الواديــة .

فمنذ اللحظات الاولى لهذه الدولة الفتية قام أول سلاطينها يغمراسن ابن زيان (1) باخضاع بني مطهر، وهم حي من بني عبد الواد، وتتركب منهم العصبية العبد الوادية ككل، وقد شايع بني مطهر على بيت يغمراسن ابناء عمومتهم بنو راشد . وكان النصر في الاخير حليف يغمراسن، اذ استتب له الامر حينا من الدهـــر (2).

ولما نشأت الدولة وجدت نفسها أمام بعض القبائل الطموحة، والتي صممت على المقاومة وعدم الخضوع لقهر الدولة وسلطانها . من تلك القبائل : قبيلة توجين الزناتية، وقبيلة مغراوة الزناتية، وقبيلة بني مرين الزناتية، بالاضافة الى قبائل اخرى كبني راشد الزناتيين ، ومليكش الصنهاجيين ، وقبيلة المعقل العربيـــة .

وان تمكنت الدولة العبد الوادية من اكتساح تلك القبائل فانها عجزت امام قبيلة بني مرين، نظرا لقوتها وكثرة عصابتها . وقد يعود السبب في عدم التكافؤ بين قبيلتي : بني عبد الواد وبني مرين الى الانقسام الذي حصل داخل قبيلة بني بادين بن محمد (3) . ذلك أن الغلبة كانت في

(1) ـ حكم من سنة 633 هـ/1235 م الى سنة 681 هـ/1282 م .

(2) ـ انظر عبد الرحمن بن خلدون : العبر، مج : 7، ص ص: 162/ 163 . يحي بن خلدون : بغية الرواد، ج : 1، ص ص: 200ـ205 . التنسي : نظم الـدر، ص ص: 113ـ115 .

(3) ـ يقابل بادين بن محمد ، مرين بن ورتاجن، وبذلك يجتمعان في جد واحد هو واسين . فبينما بقي لبني مرين تلاحمهم وكثرة عصابتهم، تفككت عصبية

السابق لبني بادين على بني مرين ، ولما انقسم بنو بادين وتفرقت قبائلهم وتباينت مصالحهم رجحت كفة بني مرين عليهم (1) .

وهكذا كان على بني عبد الواد أن يحاربوا في عدة اتجاهات، فمن جهة يحاربون اخوانهم ، وأهل عصبيتهم ،طمعا في شد اللحمة،وتقوية عصبية بني بادين بلأم أجزائهم وفروعهم (2) ، ومن جهة اخرى يقاتلون بني مرين ذوى العصبية المتلاحمة (3) والطموح الصارخ .

ولما أحست قبائل : توجين، ومغراوة ،ومليكش بالعجز امام الدولة العبد الوادية اتجهوا الى الحفصيين،حيث اغروا ابا زكرياء باحتلال تلمسان واخضاع يغمراسن . وبالفعل وجدوا لديه رغبة في ذلك، فزحف الى عاصمة المغرب الاوسط بحشود عظيمة ،جمعت قبائل افريقية والمغرب الاوسط كلها تقريبا :كبني سليم، ورياح ، وزغبة، ومغراوة وتوجين ، وهوارة، وكرفة،

= بادين بن محمد الى عصبيات بسيطة . وبذلك أصبح بنو عبد الواد وهم فرع من بني بادين امام بني مرين عصبية ضعيفة .

(1)ـ يقول ابن خلدون في هذا : ((كانت بينهم وبين بني مرين فتن متصلة باتصال ايامهم في تلك المواطن، سبيل القبائل الجيران في مواطنهم، وكان الغلب في حروبهم أكثر ما يكون لبني بادين لما كانت شعوبهم اكثر، وعددهم أوفر، فانهم كانوا اربعة شعوب : بني عبد الواد،وبني توجين، وبني زردال، وبني مصاب، وكان معهم شعب آخر وهم اخوانهم بنو راشد)). (العبر ،مج :7، ص: 129).

(2)ـ لقد امضى يغمراسن وقتا طويلا من أجل جمع شمل عصبية بادين بن محمد، وقد وجد مقاومة شديدة من قبل العصبيات البسيطة، نظرا لرفضهم الامتزاج ضمن عصبية مركبة،وذلك بسبب الحسد والغيرة فيما بينهم .ومن بين القبائل التي قاومت الوحدة البادينية :فخذ بني كمي ،وفخذ بني مطهر، وقبيلة بني راشد، وقبيلة بني توجين (انظر ابن خلدون :العبر،مج : 7،صص: 151ـ162/165ـ167ـ179/181ـ311/312ـ318/323. يحي بن خلدون :بغية الرواد، ج : 1،صص: 200ـ205ـ207 .التنسي :المصدر السابق،صص: 115ـ128) .

(3)ـ ذكر عبد الرحمن بن خلدون بأن تعداد بني مرين في بداية عهدهم كان =

وتوبقة وغيرهم (1) . غيرأن ابا زكرياء لم يكن يسرغب في القضاء على دولـة يغمراسن بقدر رغبته في كسبه الى جانبه ـ وهذا بالطبع يخالف ما تطمح اليه القبائل المناوئة ليغمراسن ـ وعليه فقد اكتفى بولاء الدولة العبد الواديـة وصداقتها . ولما وجدت قبائل زناتة وصنهاجة نفسها امام هذا الموقف المحرج سعوا لدى حاشية السلطان ابي زكرياء لكي يقلدهم في مرتبة الملك، ليكونوا اندادا ليغمراسن . وقد وجدت هذه المطالب صدى مقبولا لدى السلطان الحفصـي . لان قيام دويلات بينه وبين بني عبد الواد يحمي دولته من الهجمات المحتمـل اتيانها من جهة الغرب. وبالفعل نصب شيوخ قبائل :توجين، ومغراوة ومليكش، ملوكا على اقاليمهم التي تقع حاجزا بين دولته ودولة بني عبد الواد (2).

وهكذا كانت هذه القرارات سببا في سلسلة من الحروب والفتن بين هذه القبائل وامارتهم، وبين الدولة العبد الوادية التي تهدف الى اخضاعهـم والسيطرة عليهم . وقد تطلب هذا عشرات السنين عبر عهود عدد من سلاطين الدولة العبد الوادية لكي يتحقق اخضاعهم وتمهيد الدولة نسبيـا (3).

اما بنو مرين فيحتم تحديد مجال الحديث عنهم هنا من الفترة التي قامت

=================================

= ثلاثة آلاف بينما كان عدد بني عبد الواد الفا فقط، وهذا بدون اعتبار للاتباع المصطنعين . (انظر المقدمة ،ج :2، ص: 645).

(1)ـ قال يحي بن خلدون بأن جيش ابى زكرياء يشتمـل على اثني عشـر الف من الرماة المترجلين دون الراكبين ،اما الزركشي فيقول بأن تعـداد الجيش الحفصي كان اربعة وستين الفا من الفرسان . بينما يزعم التنسي أن عدد الرماة كانوا ثلاثـين الفا (انظر بغية الرواد ،ج :1،ص: 205. تاريخ الدولتين، ص: 29 . ومقتطف من نظم الدر والعقيان، ص: 117).

(2)ـ انظر عبد الرحمن بن خلدون : العبر، ج :7،ص: 167/163 . يحي بن خلدون : نفسه،ج :1،ص: 206/205 . التنسي :نفسه، ص: 117 / 118)

(3)ـ تمكن عثمان بن يغمراسن من اسقاط الدويلات التي اقامها ابو زكرياء (انظر ابن خلدون: العبر،ج :7،ص: 181/178ـ190/192ـ328).

فيها الدولة العبد الوادية الى السنة التي احتل فيها بنو مرين مراكش وتأسيس دولتهم على انقاض الدولة الموحدية . لان أثرهم بعد هذا لا يدخل في باب القبلية ، بل يصبح أثر دولة على دولة أخرى .

هذا وتعتبر قبيلة بني مرين اكبر عائق اعترض الدولة العبد الوادية منذ ظهورها . اذ وقفت هذه القبيلة حجر عثرة أمام تطلعات يغمراسن وطموحه ، بل وكان بنو مرين عاملا مشجعا لقبائل المغرب الاخرى لكي يرفضوا الهيمنة العبد الوادية ويقاوموها . ومما زاد في استفحال قبيلة بني مرين انها كانت تنتصر في جل المواقع مع جيش الدولة العبد الوادية (1) .

اما قبائل بني هلال واحلافهم فمنهم من كانوا حلفاء لبني عبد الواد ، ومنهم من كانوا احلافا لبني مرين . فقبيلة المعقل مثلا كانت منحازة الى بني مرين (2) ، سوى ذوي منصور منهم ، فانهم حالفوا بني عبد الواد منذ بداية دولتهم ، وكانوا معهم في حروبهم ضد بني مرين ، وخاصة المنبات الذين استولوا على سجلماسة ، واعلنوا فيها بالدعوة الى يغمراسن (3) . وقد ذكر يحي بن خلدون بأن يغمراسن قام باثني وسبعين غزوة ضد الاعراب لوحدهم ، باستثناء غزواته لتوجين ومغراوة (4) . ويبدو أن غزواته هذه كانت اغلبها ضد

(1)- انظر الوقائع التي حدثت بين قبيلة بني مرين ودولة بني عبد الواد في الكتب التاريخية الخاصة بهما ، ومصادر تاريخ المغرب عامة مثل : ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص : 195/198-201/204 ، والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، لمجهول ، ص : 69/70-78/79-82/83-91-97-102-112-127-130-132 . عبد الرحمن بن خلدون : العبر ، ج : 7 ، ص : 171/173-175/177-352/356-360-363/365-367-370/371 . يحي بن خلدون : بغية الرواد ، ج : 1 ، ص : 206/207 . السلاوي : الاستقصا ، ج : 3 ، ص : 13-16-18/20-22-25/26 .

(2)- كذوي عبيد الله مثلا ، وذوي حسان . (انظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص : 123/125-139 ، ج : 7 ، ص : 175 .

(3)- انظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص : 132/135 ، ج : 7 ، ص : 175/176 .

(4)- بغية الرواد ، ج : 1 ، ص : 207 .

أحياء المعقل لقرب ديارهم ، ومجاورتهم لمملكة بني عبد الواد من جهـــة ، ونظرا للحلف المعقود بينهم وبين خصومه الاقوياء بني مرين من جهـــة أخرى، بالاضافة الى قبيلة سويد من زغبة ،اذ كانوا حلفاء لبني عبد الـــواد من قبل الدولة ولكنهم خالفوا يغمراسن فيما بعد (1) . وقد أدى انشغـــال يغمراسن بعيث المعقل وفسادهم الى أنه سعى لجلب قبيلة بني عامر بـــن زغبة من مواطنهم في شرق المملكة ، وأسكنهم جنوب تلمسان ، ليكونوا سورا بين المملكة وأعراب المعقل (2) . هذا بالاضافة الى بني مالك بن زغبـــة ، ومنهم سويد بالذات ،اذ كانوا احلافا ليغمراسن منذ البداية ، ولكن حلفهم انحل فيما بعـــــد (3) .

اما في عهد عثمان بن يغمراسن (4) وولديه : ابي زيان محمد (5) ،وابي حمو موسى (6) ، ثم ابي تاشفين الاول (7) فان الدولة في عهدهم جميعـــا قد استفحلت على القبائل والعصبيات،ولم تترك الدولة لهم أى فرصة لجمـــع النفس، وكل ما استطاعوا أنهم كانوا يلجأون في كل مرة اما الى دولة بـــني مرين ،واما الى دولة بني ابي حفص،ولكن لم يغنهم ذلك في شيء ، حيـــث تمكنت الدولة في نهاية الامر من اخضاعهم وقهرهـــــم .

فبخصوص بني توجين ومغراوة فان السلطان عثمان بن يغمراسن قـــد ازال امارتيهما نهائيا بعد حملات وتصفيات مضنية ،انتهت باستلحاقهم جميعـــا

---

(1)ـ ابن خلدون : العبر ،مج : 6،ص: 97.
(2)ـ ابن خلدون ،نفســـه ،مج : 6، ص ص: 90/105 .
(3)ـ ابن خلدون ،نفســـه ،مج : 6، ص ص: 95/97.
(4)ـ حكم من سنة 681 هـ/1282 م الى سنة 703 هـ/1303 م .
(5)ـ حكم من سنـــة 703 هـ/1303 م الى سنة 707 هـ/1307 م .
(6) ـ حكم من سنة 707 هـ/1307 م الى سنة 718 هـ/1318م.
(7)ـ حكم من سنة 718 هـ/1318 م الى سنة 737 هـ/1336 م.

بالدولة العبد الوادية (1) . هذا وقد كون السلطان عثمان لفيفا مـــن الجند المصطنعين سماهم ((الحشم))(2) واطلق يدهم في جبال الونشريس لحفظ الامن بين قبائل بني توجين، ولضمان طاعتهم للدولة . وبعد عثمان قام ابناؤه بتدعيم خطواته ،حيث عاودوا حملاتهم في بلاد توجين ومغراوة ، حتى قهروا تلك القبائل نهائيا ، وصيروهم رعايا طائعين للدولة، وأضحـــى السلطان هوالذى يعين شيخ القبيلة من بينهم (3).

ان هذا الدور الاول (4) من حياة الدولة العبد الوادية كان يمثل العنفوان والقوة ،نظرا لتماسك العصبية العبد الوادية (5) وقرب عهدهـــا بنشوء دولتهم . اما الفترة الثانية التي تولى فيها ملك بني عبد الـــواد

(1)ـ انظر عبد الرحمن بن خلدون : العبر،مج : 7،ص: 138/139ـ190/ 192ـ326/330. يحي بن خلدون : بغية الرواد ج : 1،ص: 209 . التنسي : نظم الدر ،ص: 129 .

(2)ـ جاء في لسان العرب لابن منظور ((حشمة الرجل ،وحشمه ، واحشامه : خاصته الذين يغضبون له من عبيد ،وأهل ، وجيرة اذا اصابه امر))(ج : 1،ص: 646) وكان هذا النظام وهذه التسمية مستعملة في بلاد المغـــرب منذ عهد المرابطين ،وفي عهد بني عبد الواد اعاد عثمان بن يغمراســن احياء هذا النظام ،وشكل حامية في بلاد توجين سماها بالحشم، فكانـــت خالصة له وعينا يقضة وسيفا قاطعا على اعدائه : (انظر ابن خلدون : العبر، مج : 7،ص: 192).

(3)ـ انظر ابن خلدون : العبر،مج : 7،ص: 141/142ـ201/202ـ204/ 207ـ211/215ـ220/221ـ330/331 .

(4)ـ انظر تقسيم الادوار التاريخية لدولة بني عبد الواد في الاطروحة التـي قدمها الباحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة : تطور نظم الحكم والرسوم فـي دولة بني عبد الواد ، ص: 40/44 .

(5)ـ تميزت العصبية العبد الوادية بالقسوة والتلاحم في اوائل الدولـــة، ومن العينات التي تستحق الذكر في هذا المجال ما حدث لبني كمـــي ، وهم من ابناء على بن القاسم بن عبد الواد ،وذلك ان شيخ بني كمي المدعـو =

عثمان (1) بن عبد الرحمن بن يغمراسن فتعطي صورة واضحة للعصبية القبلية ودورها في قيام الدول ، ومدى تأثيرها على النظام السياسي . ذلك أن أبا الحسن المريني عندما أزال الدولة العبد الوادية وقتل ابا تاشفين ،نهض الى افريقية واكتسح الدولة الحفصية .وكان من جملة حشوده قبيلة بني عبد الواد ، وقبيلة توجين ،وقبيلة مغراوة ، وقبيلة بني راشد . وكان يعتقد بأنه استطاع توحيد قبائل زناتة وضمهم الى مملكته الزناتية . غير أن تلك العصبيات الخاصة لم تخمد نارها بعد ، وما زالت تتطلع الى مصالحها الخاصة . لهذا فانها ما فتئت ان رفعت لواء العصيان والتمرد ،بمجرد ظهور بوادر الضعف

= بكندوز قتل زيان بن ثابت والد يغمراسن ،فثأر له ابن عمه جابر بن يوسف القائم بالامر آنئذ وارسل رأسه الى بيت يغمراسن ،حيث نصبوا عليه القدور كالاثافي ، لاطفاء نارهم المشتعلة في صدورهم . ولما كانت العصبية الخاصة لبني زيان أقوى من عصبية بني كمي فانهم اكتفوا بالهجرة الى افريقية ، ولما استفحل بنو مرين وشارفوا على فتح مراكش عادوا الى المغرب ،فاستقبلهم يعقوب بن عبد الحق استقبالا عظيما ،واقطعهم ما يكفيهم من البلاد ، وقربهم واحسن اليهم أيما احسان .وسار على نهجه ابنه يوسف بن يعقوب ، ولكن لما حاول هذا السلطان المريني اقتحام تلمسان ، وفرض على المدينة الحصار تحركت عصبيتهم العبد الوادية ،وثارت في نفوسهم النعرة والحمية على الرغم من الاضرار التي لحقتهم من اخوانهم وأهل عصبيتهم . وهكذا لجأوا الى التمرد والخروج عن الدولة المرينية ، وكانت لهم معها بعض الوقائع التي اضطرتهم الى الهروب الى تلمسان في كنف دولتهم العبد الوادية . ومع هذا لم يدم اخلاصهم طويلا ،حيث هربوا من جديد الى مراكش خوفا من عثمان بن يغمراسن الذى تصدى لاهل عصبيته بغرض قهرهم وابقاء السلطنة في بيته . ولما حدثت وقعة القيروان على ابي الحسن المريني كان بنو كمي من بين القبائل التي خانته وانحازت الى بني عبد الواد المتطلعين الى [illegible] استعادة ملكهم (انظر تفاصيل ذلك في كتاب ابن خلدون : العبر ،مج : 7 ،ص ص: 151-311/314) . وقد حدث نفس الشيء بالنسبة لبيت الزعيم بن مكن ابناء عم يغمراسن حينما ولى الزعيم مستغانم، ثم نفاه الى الاندلس فلجأ هذا الاخير الى بني مرين مع أهل بيته ،ولما قام يعقوب بن عبد الحق بمحاصر تلمسان ادركتهم النعرة وجاشت حميتهم ففارقوا بني مرين الى يغمراسن (ابن خلدون : نفسه ، مج : 7 ، ص ص: 181 / 183) .

(1) – حكم من سنة 749 هـ/1348 م الى سنة 753 هـ/1352 م .

والتفكك في صفوف ابي الحسن . وهكذا تحالف بنو عبد الواد مع قبائل بني سليم وبقية القبائل الزناتية ضد أبي الحسن، وبذلك استطاعوا استرجاع دولتهم المفقودة بمؤازرة تلك القبائل الحليفة . وبالمقابل أقامت مغراوة وتوجين أيضا امارات جديدة خاصة بها .

وجملة القول فان هذه الفترة الزمنية تعتبر بحق فترة السيادة والانطلاق الكلي للعصبيات والقبلية في ربوع المغرب كله ، لان غياب الدولة وتلاشي ظلها سمح للقبائل على اختلاف مذاهبها بأن تستقل بشؤونها . وهكذا اشتعلت الفتن في كل مكان بين مختلف القبائل . وقد استغل سلطان الدولة العبد الوادية هذه الفرصة ليشن سلسلة من الحملات على قبائل المغرب الاوسط بغرض اخضاعها ، واستطاع فعلا فرض سلطان الدولة في ربوع المغرب الاوسط، ولكن ابا عنان المريني لم يمهله فترة أخرى تمكنه من تمهيد البلاد نهائيا (1) . وتحلل ابو عنان بالدفاع عن مغراوة . ولما هجم على تلمسان ، انضم اليه عدد كبير من قبائل المغربين : الاقصى والاوسط : كقبائل زناتة ، والمصامدة ، والمعقل، وغيرهم ، بالاضافة الى الجند (2) .

وهكذا تسببت العصبية القبلية في سقوط الدولة العبد الوادية مرة أخرى بعد أن كانت سببا في عودتها . وبالمقابل كانت العصبية القبلية سببا مباشرا في سقوط ابي الحسن واستخلافه بولده ابي عنان . ولايمكن لهذا المجال الضيق ان يتسع لجميع الامثلة التي تعبر عن تلك الفترة الزمنية المظلمة من تاريخ المغرب الاسلامي .

(1) ـ انظر عبد الرحمن بن خلدون : العبر، مج : 7، ص: 238/253 . يحي بن خلدون : بغية الرواد، ج : 1، ص: 234/237ـ242/247 . التنسي : نظم الدر والعقيان، ص: 149/155 . السلاوي: الاستقصا، ج : 3، ص: 160ـ163ـ182 .

(2) ـ عبد الرحمن بن خلدون : العبر، مج : 7، ص: 252 .

اما الدور الثالث من ادوار الدولة العبد الوادية فقد وصلت فيه العصبية القبلية الى الذروة ، من حيث التأثير والفعالية على نظم الدولة ككل ، ونظامها السياسي بصفة خاصة . فبالعصبية القبلية استعاد ابو حمو موسى الثاني ملك اجداده ، وبالعصبية القبلية حقق البقاء لدولته ، ولكن في مقابل ذلك أضحت الدولة بجميع مؤسساتها تحت رحمة القبلية ، فان رضيت القبائل الحليفة سارت الامور على احسن ما يرام ، وان خالفت القبائل ونقضت عهدها نزلت المصائب على الدولة التي لا حول ولا قوة لها بدون القبائل والانصار . وهكذا غدت الدولة في هذا العهد كريشة في مهب الريح ، بحيث تغلبت القبائل على املاكها من الاراضي الخصبة بالتلول ، اذ قدمت الدولة الاراضي الى القبائل اقطاعا مرغمة ، بحكم الضغوط من جهة ، والحاجة اليهم من جهة أخرى .

وكمثال على ماسبق ذكره يمكن الاستشهاد بما حدث خلال عودة الدولة العبد الوادية في عهد ابي حمو موسى الثاني . كان هذا السلطان لاجئا لدى بني حفص ولما اشتد ضغط ابي عنان المريني على الدولة الحفصية من جهة ، وعلى قبيلة الدواودة الرياحية من جهة أخرى ، سعى شيوخ هذه القبيلة لدى حاجب السلطان الحفصي لكي يجهز ابا حمو ويرسله معهم الى تلمسان لاستعادة ملكه ، وبالتالي يكفيهم شر ابي عنان . وبالفعل أجاب الحفصيون دعوة شيوخ الدواودة ، وجهزوا ابا حمو بما يلزم ، وارسلوه مع قبيلتي بني عامر بن زغبة وبعض الاحياء من الدواودة ، فتمكن بواسطتهم من استعادة ملك بني عبد الواد ، وتشييد الدولة من جديد (1)

(1) ـ انظر عبد الرحمن بن خلدون : العبر ، ج : 7 ، ص : 256/255 . يحيى ابن خلدون : بغية الرواد ، ج : 2 ، ص : 30/21 . زهر البستان في دولة بني زيان ، لمجهول . ورقات : 94/5 ظ . الجيلالي :

وهكذا يعيد التاريخ نفسه،اذ استطاع ابو حمو بواسطة القبائل المتواجدة ببلاد افريقية والمغرب الاوسط من استعادة ملك اجداده بنفس الاسلوب الذي استرجعه به سلفه وعمه عثمان الدولة العبد الوادية في عهد ابي الحسن المريني والسد ابي عثمان(1).

وكما وجد ابو حمو في القبائل الحليفة له جوانب الدعم والمناصرة ،وجد أيضا في قبائل اخرى كذ وجد مثلا جوانب عداء وفتنة بحكم محالفتهم لبني مرين(2).

= تاريخ الجزائر العام،ج :2،ص:180 ،محمد الطمار : تلمسان عبر العصور،ص: 145/147 .

(1)- شرح عبد الرحمن بن خلدون الكيفية التي استعاد بها بنو عبد الواد ملكهم بقوله : ((فلما اضطرب أمر السلطان ابي الحسن ،تألب عليه الكعوب من بني سليم اعراب افريقية ،واضعوا الحرب،كان بنو عبد الواد أول النازعين عنه اليهم .فلما كانت النكبة والحجز بالقيروان ،وانطلقت ايدى الاعراب على الضواحي وانتقض المغرب من سائر اعماله ،اذنوا لبني عبد الواد في اللحاق بقطرهم ،ومكان عملهم ،فمروا بتونس واقاموا بها أياما . وخلص الملأ منهم نجيا في شأن أمرهم ، ومن يقدمون عليهم ،فاصفقوا بعد الشورى على عثمان ابن عبد الرحمن ،واجتمعوا عليه لعهده بهم يومئذ ،وقد خرجوا به الى الصحراء ، واجلسوه بباب مصلى العيد من تونس على درقة . ثم ازدحموا عليه ،بحيث نوارى شخصه عن الناس،يسلمون عليه بالامارة ويعطونه الصفقة على الطاعة والبيعة ، حتى استكملوا جميعا ،ثم انطلقوا به الى رحالهم)) (العبر،ج :7،ص : 239/240) . وبهذا يتضح الشبه بين الحالتين التي عادت فيهما الدولة العبد الوادية ،ففي عهد عثمان بن عبد الرحمن تمت بمباركة ودعم القبائل ضد الدولة القائمة ،وفي الحالة الثانية ايام ابي حمو الثاني عادت الدولة بالطريقة ذاتها تقريبا ،انظر ايضا عبد الرحمن بن خلدون :العبر،ج :6،ص: 110/111 . ويحي بن خلدون : بغية الرواد،ج :1،ص: 235/237 ،والتنسي :نظم الدر، ص: 149/150 ،والزركشي :تاريخ الدولتين،ص: 85 ،والجيلالي :تاريخ الجزائر العام ،ج :2، ص: 178 ،والطمار :تلمسان عبر العصور،ص: 136/138 .

(2)- انظر عبد الرحمن بن خلدون : العبر،ج :6،ص: 98/101-108/112 . ج : 7،ص: 256-261-264-266-267-275-276-278-282- =

وقد كانت هذه القبيلة شوكة في حلق ابي حمو ،حيث شغلته زمنا طويــــلا بالمشاغبة والفتنة ،بل كانت عامل تحريض دفعت بالمرينيين غير مرة الــــى احتلال تلمسان . ولم تكن هذه القبيلة (اى سويد) هي الوحيدة التــــي احترفت الفتنة والمشاغبة في وجه دولة ابي حمو ، بل سارت على هذا النهج قبائل اخرى كانت حليفة لهذا السلطان ثم نكثت العهد كبني عامر بـــن زغبة (1) . وهذا بالاضافة الى قبائل اخرى كانت من رعايا الدولة كقبيلـة حصين بن زغبة التي لجأ اليها ابوزيان بن عثمان منافس ابي حمو وخصمــه العنيد الذى اطلقه المرينيون،وأعانته قبيلة بني عامر التي كانت محسوبــة على ابي حمو(2). وقد استطاع ابوزيان هذا استقطاب قبائل كثـــيرة وضمهم اليه ضد ابي حمو ، الامر الذى سمح لهذه القبائل بأن تتطـــاول في الشروط والطلب على الخصمين المتنافسين . وهكذا أخذ كل منهما فـــي المزايـدة وتقديم التنازلات بعد التنازلات، حتى اضحت القبلية هي السيدة في بلاد المغرب الاوسط، مثلما حدث من قبل في افريقية، وكانت النتيجـــة أن جل السهول الخصبة اصبحت ملكا للقبائل الهلالية بواسطة الاقطـــاع من طرف سلطـــان تلمسان (3) .

= 284ـ294ـ295ـ297ـ300ـ303 . يحي بن خلدون : بغية الرواد ،ج : 2 ،ص: 23ـ34ـ50ـ65ـ79ـ80ـ151ـ185ـ243ـ281ـ309 .

(1) ـ انظر عبد الرحمـــن بن خلدون : العبـــــر ،ج :6 ،ص: 110/116 . ج :7 ، ص: 263 ـ265/266 ـ 272/274 ـ 278/ 279ـ 281 ـ 283 ـ 286 ـ 288 . يحـــي بن خلـــدون بغيـــة الـــرواد ، ج :2 ، ص: 112/ 113 ـ 134/136 ـ 150 ـ 198 .

(2)ـ عبد الرحمــــن بن خلدون : العـــبر ،ج :6 ،ص: 92 ، ج :7 ، ص: 262/264 ـ 268/274 ـ 278/279 ـ 282/290 .

(3)ـ نفســـه ،ج :6 ، ص: 92/ 93 . ج : 3 ،ص: 290 .

وهذا المجال - في الحقيقة - يضيق امام الشواهد التي لا تحصى . تلك الشواهد التي تبرز الادوار الخطيرة .. بل الادوار الهدامة التي صنعتها العصبية القبلية في ربوع الدولة العبد الوادية، وخاصة في هذا الدور الثالث منها . وجملة القول فان هذه القبائل المتواجدة بالمغرب الاوسط - على اختلاف مذاهبها - لم تترك للدولة من السلطان الا الاسم ، وأخذت هي المال والنفوذ ، حتى أضحى المغرب الأوسط ملعبا كبيرا لعبث القبلية ومشاغباتها . وقد يتخيل بعض الدارسين لهذه الفترة الزمنية ، وضمن الاطار الجغرافي لدولة بني عبد الواد أنه بصدد فترة تعود الى العصر الجاهلي بقبائله وعصبياته .

اما الدور الرابع الذى بدأ بعهد ابي تاشفين عبد الرحمن الثاني (1) فهو دور هزيل، على الرغم من طول أمده . فخلال هذا الدور أضحت القبلية هي المالك الحقيقي للمغرب الاوسط . فبدون مناصرة القبائل لا يمكن لأي سلطان ان يتولى عرشه ، وبدون القبائل لا يمكن له المدافعة وحماية دولته ، وبدون القبائل لن يتأتى له النصر على اعدائه (2) .

---

(1) - حكم من سنة 791 هـ/1388 م الى سنة 795 هـ/1392 م.

(2) - لقد أورد عبد الباسط بن خليل في رحلته نصا في غاية الاهمية يمكن من خلاله معرفة الأثر الكبير للقبلية في دولة بني عبد الواد خلال هذا الدور، وفي عهد أبي ثابت محمد الخامس (حكم من 866 هـ 1462 م الى 890 هـ/1485 م) ، وذلك ان عبد الباسط لفت انتباهه الاهمية الكبيرة التي اختص بها شيخ قبيلة بني عامر، حتى أنه قال بأنه اندهش عندما سمع احدى العجائز تدعوا الله أن ينصر ويوفق الشيخ سليمان بن موسى (شيخ بني عامر) للسلطان ابي ثابت. ومن هنا عرف عبد الباسط الاهمية الخاصة التي تتميز بها قبيلة بني عامر في الجهاز السياسي للدولة العبد الوادية.

حتى اضحت مرتبة شيخ القبيلة متكافئة تقريبا مع مرتبة السلطان ، لـولا المراسيم والتشريفات التي تضفي على الملك رونقا خاصا ، وأبهة متميزة . وكل هذا يتجافى عنه مشائخ القبائل بحكم السذاجة والبساطة المستحكمة في طبائعهم (1) .

وقد نتج عن هذا الضعف والانحلال الذى تسرب الى الدولـة العبد الوادية ان الاسبان والبرتغال تمكنوا من احتلال بعض الموانئ والمدن الساحلية كالمرسى الكبير ، ووهران . وهنا تبرز القبلية بوجهها البشع الذى لا يهمه الا المصالح الظرفية ،حيث اختارت قبيلة بني عامر سبيل خيانة الأمة والوطن، وانضمت الى الاسبان ضد الدولة العبد الواديـة المسلمة (2) .

(4) ـ الدولة المرينية : المرينيون بدورهم عبارة عن قبيلة زناتية تنتمي الى بني واسين . وقد كانوا أهل نجعة وظعن في القفار ما بين فكيك وبلاد الزاب . ولما مهد عبد المؤمن بن علي المغرب الاوسط ، اخضع بني بادين ، فالتزموا بطاعته ، اما بنومرين فبقوا على خلافهم ، وتوغلوا في قفارهم ، بعيدا عن سلطان الدولة وقهرها . وظلوا على ذلك الحال الى عهد يوسف بن الناصر الموحدى ، حيث بدأ الضعف يظهر علـى الدولة ، فزحف عندئذ المرينيون الى السهول الخصبة ببلاد المغـرب الاقصى ، وتم ذلك في سنة 610 هـ/1213 م . وبدخولهم الى الارياف والتلول انطلقت ايديهم بالنهب والعيث في تلك الاقطار ، الأمر الـذى

(1) ـ انظر الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ج :2، ص: 188/207 .
(2) ـ انظر كتاب عبد القادر المشرفـي : بهجة الناظر في اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الاعراب كبني عامر . وكتاب الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ج :2، ص: 202/206 .

جمل الدولة تتصدى لهم بجيوشها وانصارها من القبائل المخزنية . ولكن ذلك لم يجدها في شيء ، اذ استفحل المرينيون أكثر من ذى قبل ، وعظم شأنهم ، وتطاولوا على الدولة واعجزوها ، فغضت الطرف عنهم ، وتركت لهم ما اكتسبوه من اقاليم ومدن . وبقي الحال هكذا بين هذا القبيل واحلافهم وبين الدولة وانصارها، مرة يتحاربون ويتقاتلون، ومرة يلجأون الى المهادنة والمسالمة الظرفية - كل ذلك والمرينيون يتصيدون الفرص المناسبة للانقضاض على الدولة الموحدية والاطاحة بها . وقد تم لهم ذلك بالمطاولة ، حيث تمكنوا من اسقاطها سنة 668 هـ/1269 م (1) .

ومن هنا انفرد بنو مرين بملك المغرب الاقصى ، فشرعوا منذئذ في تمهيده واخضاع قبائله الخارجة عن طاعتهم ، وبذلك بدأ عهد جديد ، خاضت فيه الدولة المرينية فتنا ووقائع مع قبائل أخرى كان لها أثر ملموس على استقرارها وتطورها (2) .

فعلى الرغم من القوة والعنفوان الذين ظهرت بهما الدولة المرينية ، فانها لم تسلم من الاعراض المرضية التي عرفتها دول المغرب الاسلامي آنئذ . فهذه الدولة بدورها عرفت الانقسامات الداخلية التي تسببت فيها بعض

---

(1)_ انظر ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص ص: 187/ 205 . الذخيرة السنية ، لمجهول ، ص ص: 22/133 . ابن خلدون : العبر ، ج : 7 ، ص ص: 347 / 375 . السلاوى : الاستقصاء ، ج : 3 ، ص ص: 4/ 27 . جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج : 2 ، ص ص: 212/ 217 .

(2)_ ثمة من يرى بأن الدولة المرينية قد تأسست في عهد أبي يحي بن عبد الحق الذى ضبط نظم الدولة وعقد سلكها . وربما اعتبر بعضهم سنة 646 هـ/1248 م هي السنة التي قامت فيها هذه الدولة ، أى بعد استعادة مدينة فاس وتمهيد جل اقطار المغرب (انظر ابن خلدون : =

العشائر من مرين ، بحكم العصبية ، والانانية الضيقة . كما تعرضت هذه الدولة ايضا الى المشاغبات القبلية التي شغلتها طويلا ،ومنعتها من تحقيق أهدافها وتطلعاتها التي تتلخص في توحيد المغرب الاسلامي ضمن الدولة المرينية، كما سبق أن تحقق ايام الدولة الموحدية .

فبخصوص الانقسامات والخلافات العشائرية داخل قبيلة بني مرين فانه قد ظهر من خلال تتبع تاريخ هذه القبيلة انها حافظت على تماسكها في السابق ، على خلاف بني بادين الذين انفرط سلكهم وتفكك أمرهم، واستقلت كل عشيرة منهم بنفسها . ويبدو أن ذلك يعود الى اسباب منها : ان بني بادين سبقوا بني مرين في الدخول الى تلول المغرب ،حيث يشتد التنافس، وتقوى المزاحمة على الاراضي الخصبة . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان تمتع بني بادين بالحظوة لدى دولة الموحدين ،جعل مكاسبهم عديدة ومتنوعة . وهذا بالطبع من العوامل التي تزيد من تنافسهم وحسدهم لبعضهم بعضا . ولما تطاولوا على الدولة في أواخر عهدها أضحى تنافسهم على الملك والسلطان، وليس الاراضي الخصبة فحسب ، اذ أضحت كل عشيرة منهم في مرتبة قبيلة تبعا لتزايد أعدادهم . ولما كثرت مكاسبهم وتعددت ممتلكاتهم وخيراتهم ، شرعوا في التطلع الى اقامة دول في الاراضي التي اقطعها أياهم الموحدون . وبذلك انفرط سلكهم بتعدد اماراتهم .

اما بنو مرين فقد بقيت عصبيتهم متلاحمة بحكم بداوتهم ، وانعدام الاسباب والعلل التي تودى الى التنافس الحاد والتحاسد الشديد . بل

= العبر مج :7، ص: 358 . جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، ج :2، ص: 215) . ومع هذا فان الصبغة الشرعية لدولة بني مرين لم تتم الا بعد اسقاط الدولة الموحدية، وانفراد هذا القبيل بملك بلاد المغرب .

وجهوا كل حسدهم وغيظهم تجاه بني عمومتهم من بني بادين الذين استحوذوا على خيرات المغرب الاوسط. وربما كان هذا هو حافزهم للوحدة والتكاتف. و بالفعل فقد توصلوا بفضل وحدتهم وشدة عصبيتهم من تحقيق احلامهم في امتلاك بلاد المغرب الاقصى. ولكن ما ان ظهرت على عشائرهم النعمة حتى عقدت بينهم سوق الخلاف والانشقاق فخرج بنو عسكر بن محمد من صف بني مرين أهل عصبيتهم وانضموا الى اعدائهم من الموحدين وقبيلة رياح (1). وبذلك يتضح بأن العصبية تجري دوما نحو المصلحة الضيقة التي تخص الفئة القليلة ذات القرابة أكثر من المصلحة العامة التي يحتمي بها مجموع العصبات ذات القرابة البعيدة.

وظهر التنافس العشائري بينهم ايضا عندما حاول بنو وطاس منهم قتل ابي يحيى ابي بكر بن عبد الحق (2) بفعل الغيرة والحسد (3). ثم بدأ التفكك بينهم أيضا حين اختلفوا بخصوص من يخلف ابي بكر، اذ بايعت فئة منهم ابنه عمر بينما انحازت فئة اخرى الى يعقوب بن عبد الحق (4) الذي تمكن من التغلب على ابن اخيه والانفراد بالملك دونه وان كان قد ولاه على مكناسة، ولكنه قتل بيد ابناء عمومته تنفيذا لثأر لهم عليه (5). وما انحراف يعقوب بن عبد الحق كذلك عن السلطان الا عينة أخرى من عينات التفكك داخل العصبية المرينية، وكذا الحال في الثورة التي اعلنها ابناء ادريس بن عبد الحق بجبال غمارة منضمين بهذا الى يعقوب بن

(1) - انظر: ابن ابي زرع: روض القرطاس ص: 190، الذخيرة السنية، المجهول ص: 32، ابن خلدون: العبر مج: 7 ص: 353/352. السلاوي: الاستقصاء، ج: 3 ص: 7، جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية مج: 2 ص: 213.
(2) - تولى أمر بني مرين سنة 642 هـ/1244م وتوفي سنة 656 هـ/1160م.
(3) - مجهول: الذخيرة السنية ص: 80، ابن خلدون: العبر، مج: 7 ص: 355. السلاوي: الاستقصاء، ج: 3 ص: 13.
(4) - حكم من سنة 657 هـ/1258م الى سنة 684 هـ/1285م.
(5) - مجهول: الذخيرة السنية ص: 98/96، ابن خلدون: العبر مج: 7، ص: 365/364، السلاوي: الاستقصاء مج: 3، ص: 20.

عبد الله (1). ولما خص يعقوب بن عبد الحق ابنه ابا ملك عبد الواحد بولاية العهد ، نفس عليه ابناء عمومته فخرجوا عن طاعة الدولة بعشائرهم الى جبال غمارة (2) .وثار على يعقوب بن عبد الحق بعض أخواله في جبل ازرو بجهات فازاز (3) .

وما ان تولى امر الدولة يوسف بن يعقوب (4) بعد وفاة والده حتى خرج عنه ابناء ادريس بن عبد الحق للمرة الثالثة (5) .كما خرج عنه ايضا ابنه ابو عامر مع ابن عطو والي مراكش (6) . وبعدها خرج عن طاعته عمر بن يحي الوطاسي وهو من أعيان بني مرين (7) . وقبل ممات يوسف بن يعقوب ثار في جبال غمارة عثمان بن ابى العلاء ادريس بن عبد الحق ، وظل في ثورته الى عهد ابي الربيع (8) . ولا داعي بعد هذا لتعداد كل الخلافات العائلية والعشائرية داخل قبيلة بني مرين لانها كثيرة ، ويتعذر حصرها في هذا المجال الضيق . وكل ما يمكن ذكره هنا أن هذا القبيل تدرج في عاداته من منطلق النظم القبلية وأعرافها الى نظم الدولة ،بحيث أضحت الخلافات بمرور الوقت خلافات ذات طابع سياسي داخل العائلة الحاكمة ،أكثر من كونها خلافات عشائرية أو قبائلية .

(1) — الذخيرة السنية ،ص: 104/102 . ابن خلدون : العبر ،ج :7 ،ص: 366/ 368 . السلاوى : الاستقصاء ،ج :3 ، ص: 24/21 . جوليان : افريقيا الشمالية ،ج :2 ،ص: 216 .

(2) — ابن أبي زرع : روض القرطاس ،ص: 206 . الذخيرة السنية ،ص: 141/ 142 . ابن خلدون : العبر ،ج :7 ، ص: 377 . السلاوى :الاستقصاء ،ج :3 ،ص: 30/29 .

(3) — ابن ابي زرع : روض القرطاس ،ص: 216 . مجهول :الذخيرة السنية ،ص: 185/ 186 — السلاوى :الاستقصاء ،ج :3 ، ص: 43 .

(4) — حكم من سنة 685 هـ/1286م الى سنة 706 هـ/1306م .

(5) — ابن ابي زرع : روض القرطاس ،ص: 260 . السلاوى :الاستقصاء ،ج :3 ،ص: 67 .

(6) — ابن ابي زرع : نفسه ،ص: 261 . السلاوى : نفسه ،ج :3 ،ص :69 .

(7) — ابن ابي زرع : نفسه ،ص: 263 . السلاوى : نفسه ،ج :3 ،ص: 72/ 74 .

(8) — ابن خلدون : العبر ،ج :7 ،ص: 488/ 495 . السلاوى : الاستقصاء ،ج :3 ، ص: 83 .

هذا ما يخص الانشقاقات العشائرية داخل القبيلة الحاكمة . أما المشاغبات والثورات التي قامت بها قبائل أخرى ضد الدولة المرينية فهي عديدة . والذى يهم منها في هذا المجال هي تلك الثورات والمشاغبات التي اشعلتها بعض القبائل منذ قيام الدولة المرينية ، وبالتحديد .. منذ اسقاط الدولة الموحدية بمراكش سنة 668 هـ/1269م .

ففي البداية توجه يعقوب بن عبد الحق الى الجهاد ببلاد الاندلس ، وذلك بعد أن أخضع بلاد المغرب الاقصى وفتح مدنها واقطارها . ولما تم له تمهيد البلاد وجه جهود دولته نحو الاندلس ، وكانت هذه فرصة ذهبية استطاع بواسطتها إلهاء القبائل وإدخالهم في عمليات الجهاد التي عادت عليهم بالفائدة الدينية والدنيوية . وبفضل هذه السياسة أعلى لدولتهم هيبة وقوة اذ تمكن من جمع شتات القبائل المتباينة في جيش واحد ذى اهداف متفق عليها (1) . وهكذا سار على نهج عبد المؤمن بن علي وابنائه الاولين الذين جندوا قبائل المغرب ، وقذفوا بهم في وجه النصارى ببلاد الاندلس .

وعلى الرغم من تلك السياسة الحكيمة التي انتهجها يعقوب بن عبد الحق مع قبائل المغرب فانه اصطدم ببعض المشاغبات القبلية ، منها الثورة التي اعلنتها قبيلة سفيان في جهات مراكش الامر الذى شغل السلطان عن الجواز الى الاندلس بغرض الجهاد في العبرة الثالثة (2) . كما انشغلت الدولة ايضا في هذه الاثناء بتأديب

---

(1) — ذكر ابن خلدون أهم القبائل التي انضمت الى جيش يعقوب بن عبد الحق فقال : ((وخاطب في ذلك كافة أهل المغرب من زناتة ، والعرب ، والموحدين ، والمصامدة ، وصنهاجة ، وغمارة ، وأوربة ، ومكناسة ، وجميع قبائل البرابرة ، وأهل المغرب من المرتزقة والمطوعة)) . (العبر ، ج : 7 ، ص : 396) . انظر في هذا ايضا ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص : 211 ، والذخيرة السنية ، ص : 166 ، والسلاوى : الاستقصا ، ج : 3 ، ص : 39 .

(2) — ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص ص : 222/223 . السلاوى : الاستقصا ، ج : 3 ، ص ص : 50/51 .

أعراب جشم الذين كانوا يعيثون ويفسدون باقليم تامسنا (1) . وقبل الجواز الرابع لهذا السلطان أرسل ابنه لتأديب أعراب السوس ايضا وقطع فسادهم (2) .

وفي عهد يوسف بن يعقوب ثارت فئة من هسكورة بقيادة عمر بن عثمان الهسكوري في جبال بني يازغة (3) . كما انشغلت الدولة ايضا بغزو اعراب المعقل في بلاد السوس ودرعة، بغرض اخضاعهم، ومنع ضررهم وافسادهم للسابلة (4) . وبعد ممات هذا السلطان اضطرب أمر بني مرين وطمع الابناء والاحفاد والاخوة في مرتبة الملك، وانجلى التنافس بين كل من : ابي ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف، وابي سالم بن يوسف، وابي يحي بن يعقوب . وهنا انفتح المجال أمام القبائل لتنفيذ لعبتهم المحببة الى قلوبهم . وعليه فقد اشعلت بعض القبائل نار الفتنة مثل : قبيلة غمارة، وقبيلة جشم، وقبيلة هسكورة، وقبيلة أوربة، وبني دولين، وبني ونكاسن، ومنكاسة والخلط، وسفيان، وبني جابر، والعاصم، ورياح . وكانت هذه القبائل كلها تخوض في عباب الفتن والمؤامرات في هذه الفترة . ومنها من التحق بأبي ثابت، ومنهم من خالفه وشايع غيره (5) . وفي عهد ابي سعيد عثمان بن يعقوب (6) ،انحرفت عن طاعة الدولة فئة من هسكورة بزعامة عدى بن هنو الهسكوري (7) .

ولما تمكن ابو الحسن على بن ابي سعيد (8) من الستيلاء على كامل اقطار

---

(1) - السلاوي : الاستقصا، ج :3 ، ص:50 .

(2) - ابن ابي زرع : روض القرطاس،ص: 230 . السلاوي : الاستقصا، ج :3، ص: 58 .

(3) - ابن ابي زرع : نفسه، ص: 260 .

(4) - ابن ابي زرع : نفسه، ص،ص: 260/ 261 . السلاوي : الاستقصا، ج :3، ص: 67 .

(5) - انظر ابن ابي زرع : نفسه ، ص،ص: 270/ 271 . ابن خلدون : العبر ، مج :7، ص،ص: 485/ 493 . السلاوي : الاستقصا، ج :3، ص،ص: 91/ 95 .

(6) - حكم من سنة 710 هـ/1310م الى سنة 731 هـ/1330م .

(7) - ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص: 276 . ابن خلدون : العبر،مج :7، ص :504 . السلاوي : الاستقصا، ج :3، ص: 104 .

(8) - حكم من سنة 731 هـ/1330م الى سنة 752 هـ/1351م .

المغرب الاسلامي (المغرب الاقصى، والاوسط، وافريقية) كشرت القبيلة على انيابهـــا ، وتحركت من مرابضها في وجه الدولة . . . تلك الدولة التي تصور عاهلها بأنه قـد تحكم في زمامها ،كما سبق ان تحكم فيه خليفة الموحدين عبد المؤمن ،ولكن يبدو أنـــه قدر موقفه تقديرا خاطئا .وذلك أنه بمجرد فتح المغرب الاوسط حتى أملت عليـــه عصبيته الزناتية الرغبة في توحيد عصبية بني واسين وزناتة أجمعين (1) ، متناسيا الدماء التي اهريقت والارواح التي اتلفت في حربه مع أهل عصبيته من بني واسين ، وبني عبـد الواد بالذات . وعليه فما ان لاحظ هؤلاء العصبة المغلوبون على أمرهم بوادر الاضطراب في جيش ابي الحسن بافريقية حتى اعلنوا العصيان ،وانضموا الى قبائل الاعراب المتآمرة على السلطان المريني (2) .ومساندة بني عبد الواد للاعراب — في الحقيقـــة لم تكن من باب التنكر لعصبيتهم الزناتية فحسب ،بل كانت بهدف استعادة دولتهـــم العبد الوادية التي تجمع العصبية العبد الوادية المعادية للعصبية المرينية .وبالفعل استطاعوا تحقيق هدفهم ،واقاموا دولتهم من جديد ، وبالطبع يصح هذا ايضا علـــى قبيلة مغراوة ،وقبيلة توجين ،حيث اقامتا امارتيهما لوقت ما ، ثم تغلب عليهمـــا سلطان بني عبد الـــــواد (3) .

(1) — يقول عبد الرحمن بن خلدون في هذا الامر : ((ورفع السلطان ابو الحســن القتل عن بني عبد الواد اعدائهم ،وشفا نفسه بقتل سلطانهم ،وعفا عنهم، وثبتهـم في الديوان، وفرض لهم العطاء ،واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم . وجمع كلمة بني واسين من بني مرين، وبني عبد الواد، وتوجين ،بل وسائر زناتة .وانزلهم ببلاد المغرب ،وسد بكل طائفة منهم ثغرا من اعماله . وساروا عصبا تحت لوائه ، فأنزل منهم بقاصية السوس، وبلاد غمارة ،واجاز منهم الى ثغور عمله بالاندلس حامية ومرابطين ،واندرجوا في جملته ، واتسع نطاق ملكه . واصبح ملك زناتـــة ، بعد أن كان ملك بني مرين)) اه (العبر ، مج :7 ،ص: 537) .

(2) — يحي بن خلدون : بغية الرواد ،ج :1 ،ص: 235 . عبد الرحمن بن خلدون : العبر ،مج :7 ،ص: 573 .

(3) — انظر عبد الرحمن بن خلدون : العبر ،مج :7 ،صص: 238/251 — 582/584 . يحي بن خلدون : بغية الرواد ،ج :1 ،صص: 235/237 — 240/245 . التنسي : نظم الدر ،صص: 149/154 . السلاوي :الاستقصاء ،ج : 3 ، ص: 163 .

ومع هذا لم يترك ابوعنان فارس بن أبي الحسن (1) فرصة طويلة لبني عبد الواد لكي يستفحل أمرهم ،بل سارع الى احتلال تلمسان مرة اخرى واسقاط دولتهم . وهكذا تكررت الحكاية ،اذ اضطرب امر ابي عثمان في بلاد افريقية والمغرب الاوسط بنفس العلة التي اصيب بها والده ابو الحسن ،وهي العصبية القبلية التي كانت تسيطر على مصير الامور في تلك الديار (2) .

وجملة القول لقد انتكست الدولة المرينية منذ هذه الفترة ،حيث ذبل عنفوانهما ، وأخذت قوتها تتلاشى شيئا فشيئا وتدريجيا (3) . وبالمقابل عظم شأن القبائل ونهضت العصبيات من مكانها ،فغدت بلاد المغرب كافة : اقصاها واوسطها وادناها لقمة في يد القبائل القوية .وبذلك اصبحت الدولة في هذه الاقطار كهيكل فارغ يتعذر انتصابه الا بواسطة تلك القبائل التي لا يهمها سوى مصالحها الخاصة ،بل تمادى بهم الامر الى التعامل مع الاعداء من النصارى وغيرهم في سبيل الفوائد المادية . وهكذا اضطرب حال هذه البلاد ، واضحت لقمة سائغة في يد اعدائها ، بسبب غياب دولة قوية تذود عنها وتحميها (4) .

2 ـ أثر القبلية على النظم الادارية : يمكن فهم النظم الادارية من خلال الانساق الادارية التي تقررها الدولة على مستوى الادارة المركزية والادارة المحلية . والذى يهم هنا هو بعض النظم ذات الطابع الادارى في كلا الادارتين : المركزية والمحلية ، والتي تأثرت

(1) ـ حكم من سنة 731 هـ/1330 م الى سنة 759 هـ/1357 م .

(2) ـ انظر ابن خلدون : العبر ، مج :7 ، ص: 256/255 ـ 621/618 . السلاوى : الاستقصاء ، ج :3 ، ص: 203/201 .

(3) ـ انظر ابن خلدون : العبر ،مج :7 ،ص: 623 وما بعدها . ابوعبد الله محمد ابن محمد بن المؤقت المراكشي : ارشاد الشيخ والشارخ لملخص بعض التواريخ (ضمن مجموعة اليواقيت المصرية) ،ص: 268/263 . جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ،ج :2 ،ص: 237/235 ـ 250/247 ـ 254/253 .

(4) ـ محمد بن المؤقت: الاستبصار في ذكر حوادث الاعصار (من مجموعة اليواقيت المصرية) ص: 56/55 ـ 65/61) . جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ،ج :2 ،ص: 259/247 .

بظاهرة القبلية في بلاد المغرب . من ذلك : النظام العسكرى ،والنظام المالـــــي .

أ ـ النظام العسكرى : يعتبر النظام العسكرى في دول المغرب الاسلامي أبرز النظم التي تأثرت بالقبلية في هذه الديار . والسبب في ذلك يعود الى كون هذه الدول كانت تعتمد أساسا على القبائل في تكوين جيوشها وتنفيذ حروبها . ويمكن التأكد من هذا بمراجعة المصادر التي تتكلم عن دولة الموحدين والدول التي ظهرت بعدها .

ويبدو أن اعتماد الدولة في نظامها العسكرى على القبلية لم يكن عملا محمودا في كل الاوقات والظروف .اذ أن الاعتماد على القبائل قد أفاد الدولة في بعض الحالات ، ولكنه أضر بها في حالات أخرى ،ان لم تكن جلها . وذلك ان التناقض الحاصل بين نظم الدولة والقبلية لا يسمح لهما بالتعايش في انسجام دائم . وكل ما يمكن تحقيقه هـــو شيء من التعاون الظرفي الذى تقتضيه مصلحة الطرفـــين .

ويبدو أن هذا التناقض عميق الجذور ،وقد ينحصر في الحقائق التاليـــة :

(1) ـ اعتماد القبلية على فكرة تعميم التسليح ، ووجوب ادخال المجتمع كله فـــي المعركة .لان الحرب من مهام الجميع ،بينما ترى الدولة بضرورة ترك مهمة القتـــال لفئة معينة من المجتمع ،وهي الجيش . وبذلك يقتصر حمل السلاح على هذه الفئـــة فقط ، وتكون بهذا تحت سلطة الدولة ، وتعمل بأوامرها . ومن هنا تسهل مراقبـــة المسلحين والسيطرة عليهم بواسطة بعض النظم والتقاليد المفروضة عليهم . أما اذا كان السلاح بيد الجميع فقد يكون ذو حدين ،فبقدر فائدته تكون مضاره . وهكـذا يتضح الفرق بين المجتمعات التي اعتمدت الدولة فيها على جيش منظم ومتفرغ وخاضع لسلطتها ،وبين المجتمعات التي اعتمدت في نظامها العسكرى على القبائـــل ، وخاصة القبائل الرحل . ففي الحالة الاولى تكون الدولة في مركز قوى ، بحيـــث تستطيع تحقيق اهدافها بشكل أفضل . اما الحالة الثانية فالدولة فيها تبقى تحـــت رحمة المزاج المتقلب الذى تتميز به القبلية ،وبالاخص القبلية ذات الطابع القلـــق (أى أهـــل الظعـــــن) .

واذا كان الشكل الاول تمثله الدول القوية التي تخلصت من النظم القبلية ، مثل دول اليونان والرومان . . . الخ فان الشكل الثاني يصدق على الدول التي لا تدوم قوتها طويلا . وهي التي يصح فيها ما ذكره ابن خلدون بخصوص اعمار الدولة التي تصل الى حد تهرم فيه وتضعف ثم تسقط . وهذا الشكل هو الشائع في بلاد المغرب الاسلامي . وبالطبع فالسبب الاساسي - وان لم يكن هو الوحيد - في ذلك هي العصبية القبليـــة .

وهكذا يتضح بأن الاعتماد على القبائل المسلحة ببلاد المغرب الاسلامي عبر العصور التاريخية كلها ، وخاصة ضمن الدول التي تهم هذا البحث مثل : الدولة الموحدية والدول الوارثة لتراثها فان ذلك الاعتماد الكلي تقريبا حد من قوة هذه الدول وقصر مـــن اعمارهـــا .

فالدولة الموحدية استعانت بالقبائل الامازيغية والعربية في حشودها العسكرية وحربها ببلاد المغرب والاندلس(1) ،بل كان جيش هذه الدولة في بداية عهدها عبارة عن قبائل تجتمع عند الحرب ،وتتفرق عندما تظهر بوادر السلم ،الامر الذى جعل حكام الدولة يلجأون الى تكوين بعض الوحدات النظامية التي تبقى تحت السلاح في خدمة الدولة لكي يضمنوا ولاءها المطلق . ووجد ابناء عبد المؤمن في المقاتلين النظاميين خير وسيلة للحرب فجندوا منهم عددا كبيرا (2) .

---

(1) - انظر ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ج : 2 ص ص: 144-193-197-206-215-219-251-270-273-274-278-292-296-411-415-417-418-419-430-432-433-434-435-437-443-450-494-507 . المراكشي : المعجب ص ص: 225/226-228-248-339-441 . ابن ابي زرع : روض القرطاس ص ص: 129/150-155 . عبد الله علام : الدولة الموحدية بالمغرب ص: 261 . ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ص: 340/343 .

(2) - يتشكل الجيش الموحدى من :قبائل الموحدين السبعة او القبائل العربية ،والقبائل الامازيغية الاخرى من غير الموحدين ،والغز الذين التحقوا بالدولة الموحدية في عهد المنصور (وهم جنس من الترك) ،والروم الذين انضموا الى الموحدين في عهد المأمون ، والسودان الذين ورثتهم الدولة عن المرابطين . وقد يصل ..

اما الدولة الحفصية ففي جيشها بعض الوحدات القليلة من الجيش النظامي ، ولكنها تعتمد اساسا على ما تقدمه لها القبائل من مقاتلين (1) . وبالطبع فقد جعلها تحت رحمة القبائل ، خاصة وانها تستند أساسا على قبائل سليم وهلال التي تغلب عليهم روح البداوة المتطرفة . ومن هنا اضحت الدولة الحفصية معرضة لنقمة تلك القبائل ، كما كانت في حالات أخرى مستفيدة بمناصرتهم . وهذا هو عيب فكرة الشعب المسلح التي تعمل بها القبلية .

والدولة العبد الوادية بدورها اعتمدت على بعض القبائل من بني هلال كبني عامر بن زغبة ، وذوى منصور من المعقل ، واحياء اخرى من زناتة (2) ، وبالطبع لم يفد هذا الامر الدولة كثيرا ، بل أضر بها ، حيث كانت تلك القبائل في مواقف مضطربة ، وانجر عن ذلك أن دولة بني عبد الواد عجزت عن الحسم في وقائعها مع اعدائها ، وان كانت في بعض الحالات قد اكتسبت النصر ، الا أن ذلك النصر كان وقتيا وغير حاسم .

وحتى الدولة المرينية فانها اعتمدت اساسا على قبائل زناتية ، ومصمودية ، وقبائل معقلية ، وهلالية ، في تشكيل جيشها عند الحرب (3) . وبالطبع فقد أثرت هذه التشكيلة على عامل الحسم في حروب هذه الدولة . فعلى الرغم من كثرة انصارها ، وقوة حشودها فانها لم تتمكن من تحقيق اهدافها ، بسبب الاضطراب والتقلب في مزاج

= عدد الجيش الموحدى الى نصف مليون من المقاتلين ، والجزء الكبير من هذا الجيش عبارة عن قبائل مختلفة . (انظر المراكشي : المعجب ، ص: 288/289–339/341 . جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج : 2 ، ص: 162 . حركات : المغرب عبر التاريخ ، ص: 240/243 .

(1) – انظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص: 598–608–669–671–686–729–749–752–751–858–878–897 . يحي بن خلدون : بغية الرواد ، ج : ، ص: 205 . الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص: 59–62–124–138–152 .

(2) – انظر ابن خلدون : العبر ، ج : 7 ، ص: 173–177–192–220–222–228–251–252–257–259–260–261–264–270–273–276–279–288–295 . ابن خلدون : بغية الرواد ، ج : 1 ، ص: 217–245 . ج : 2 ، ص: 51/52–75–80–134–150–181–194–197–242–252–275 .

(3) – انظر ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص: 207–211–217–233/235–237

اعضاء القبائل المناصرة لها . وما النكسات التي انتابت هذه الدولة الا بسبب القبائل التي انحرفت ، أو القبائل التي فقدت صبرها . ويتجلى هذا الامر من خلال هزيمة ابي الحسن في القيروان ، وتقهقر ابنه ابي عنان الى حيث انطلق .

ومع هذا فان الدول كلها استعانت ببعض الوحدات العسكرية المشكلة من جند نظاميين ينتمون الى سلالات مختلفة : من أهل البلاد ، والروم ، والغز ، والاكراد ، والسودان ... الخ . الا أن الغلبة كانت للقبائل . وهذا ما اضعف فعاليتها .

(2) — أن الاعتماد على القبلية في الجيش يضعف روح الانضباط بين افراده ، ويفسد كل المحاولات التنظيمية داخله . وكمثال على ذلك يمكن الاستشهاد بما حدث في عهد يوسف ابن عبد المؤمن ، بين الاعراب والموحدين من نزاع وخصام داخل المعسكر (1) ، وما حدث من زحام على القنطرة المقامة على وادي أم الربيع ، الامر الذي أدى الى مقتل بعض الاعراب بسبب تزاحمهم وسوء انضباطهم وتنظيمهم (2) . ويدخل في هذا الباب ايضا القبائل التي رفضت أمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بخصوص الاشتباك مع الاعداء ، بحجة ان الارض غير مناسبة للمعركة (3) .

والامثلة في الدولة الحفصية عن سوء انضباط القبائل وتقلبها كثيرة جدا . ومن العينات التي تستحق الذكر : تثاقل الاعراب عن مواصلة الرحلة مع ابي زكرياء الحفصي الى تلمسان ، ولولا حنكة هذا السلطان لتركوه وعادوا (4) . وفي عهد ابنه المستنصر

= 238—241/242—262—266—272 . ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص: 379 — 388—396—533—537—562—573—583—598 . الذخيرة السنية ، ص: 146 — 158—166—168—172—175 ، السلاوي : الاستقصا ، ج : 3 ، ص: 31—39—45—8 61—124—156—160—203 .

(1) — ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ، ج : 2 ، ص: 433/434 .

(2) — ابن صاحب الصلاة : نفسه ، ج : 2 ، ص: 443/444 .

(3) — ابن صاحب الصلاة : نفسه ، ج : 2 ، ص: 507/508 .

(4) — ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص: 608 .

اضطر هذا الاخير الى التنازل ، واسترضاء الفرنسيين لما علم باصرار الاعراب على الانصراف عنه الى مشا تيهم (1) . ولا داعي لتعداد الحالات التي خذلت فيها القبائل السلاطين خلال المعركة ، لان الشواهد كثيرة و يضيق المجال بذكرها .

ومع هذا فان الدولة عندما تكون قوية وقاهرة لاجنادها وللمقاتلين من القبائل تتمكن من السيطرة وكبح الفوضى ، وبذلك تظهر جيوشها بمظهر اكثر انضباطا . اما عندما تكون الدولة ضعيفة فقد تتغلب روح الفوضى على جندها وقبائلها . ويمكن تقديم بعض الامثلة في هذا السياق للمقارنة بين جيش عبد المؤمن بن علي ، وجيش الحفصيين في عهد ابي عصيدة . فجيش عبد المؤمن ظهر بمظهر انضباطي ونظامي فريد من نوعه ، على الرغم من كونه مشكلا من قبائل عديدة . ولما كانت تلك القبائل مضبوطة ببعض التعاليم الدينية ، وبعض الانظمة الصارمة ، اضطرت الى احترام القوانين والتعليمات الصادرة عن الخليفة . ومن امثلة ذلك ان الجيش الموحدى عندما زحف الى افريقية في عهد عبد المؤمن تقدم اليها بانضباط منقطع النظير (2) . وبالمقابل فان الجيش الحفصي بقيادة ابي يحي زكرياء اللحياني في عهد ابي عصيدة كان في أسوء حال من حيث الضبط والربط (3) ، بحكم تغلب الروح القبلية على الجيش تبعا لتغلبها على نظام الدولة كلها .

---

(1) ـ ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص: 670/671 .

(2) ـ نقل التيجاني عن ابن شداد : ((ان عبد المؤمن لما سار الى تونس بالجموع العظيمة ، كانوا يمرون بالمزارع والطرق الضيقة ، فلا يؤذون شيئا منها . وكانت (ارتال) هذا العسكر تمتد اميالا ، وكلهم يصلون الصلوات الخمس وراء امام واحد ، بتكبيرة واحدة ، ولا يتخلف أحد منهم ، كائن من كان عن الصلاة . وكانت مقدمة هذا العسكر اثنى عشر ألفا ، قد كلفوا بحفر الابار في الطريق واستخراج المياه ، فكانوا يمتدون قبله بيومين ، فلا يأتي الا وقد هيئت له الغلات ، وملئت الاحواض بالمياه . ولولا هذا التدبير لم يقدر على قطع هذه المسافة البعيدة بهذه الجيوش المظيمة)) . (رحلة التيجاني ، ص ص: 346/347) .

(3) ـ أورد التيجاني بعض الامثلة التي يفهم منها ضعف الانضباط في الجيش الحفصي في هذه الفترة ، من ذلك قوله حين مر هذا الجيش بمزرعة لبعض المرابطين :(((ووجدنا

ومن الامثلة التي تبرز عدم فعالية الجيش الذى يعتمد أساسا على القبائل ماحدث لبعض سلاطين بني حفص (1) وبني عبد الواد (2) وبني مرين (3) من الخذلان الذى تسببت فيه القبائل التي تتشكل منها جيوشهم . ويدخل في هذا الاعتبار ايضـــا خذلان القبائل للمتأخرين من خلفاء الموحدين (4) .

(3) ــ الامر الثالث الذى يبرز من خلاله التناقض بين نظم الدولة والانساق القبليـة في الميدان العسكرى هو المذهب الحربي . ان المذهب الحربي لدى الدولــة يكون مقننا ومدروسا دراسة محكمة . اما القبائل فمذهبها تلقائي، ولا يخضع لأيـــة قيود . وبصورة عامة يمكن تحديد المذهب الحربي لدى قبائل المغرب الاسلامـي آنئذ ضمن ما يعرف بمذهب الكر والفر (5) . اما دول هذه البلاد فقد حاولـت تنظيم حروبها بادخال اصلاحات جديدة على المذهب المتبع عند القبائل . وربمـا تم ذلك في الدولة الموحدية ثم الدول الوارثة لتراثها . ولما كانت دول المغرب الاسلامي غير مستغنية عن المقاتلين من القبائل الامازيغية والعربية . وهـــذه

= بعض المرابطين قد زرع على احد جانبيه (اى وادى مجسر) زرعا بلغ في ذلك الزمن أن يكون للبهائم مرعى ،وقد قام عليه ليمنعه من الجيش ،مدلا برباطه فأثــرت دهماء الاجناد رعي الزرع على رعيه ،وانجلى الامر على ابطال كدح المرابط وسعيه)) . (الرحلة ، ص: 133) . وفي موضع آخر يذكر التجاني حادثة أخرى كالاولـــى حدثت في بلاد نفزاوة فقال : ((فنزلنا بمنزل يعرف بمجزم وهي قرية كبـيرة وعليها غابة نخل ممتدة ، وبها قصور ومنازل ضخمة بالنسبة الى مباني البادية، ووجد الاجناد أهلها قد فروا عنها جلاء ، وتركوها خلاء ، فانطلقت أيديهـم بالعيث في ربوعها ، والرعي لزروعها . وكثيرا ما كانوا يحتفرون ارضا فيجدون أهلها قد أودعوا هنالك ما صعب عليهم نقله ،واثقلهم من الاثاث حمله ، فأذهبوا بالافساد رسمها ،ولم يبقوا منها في الحقيقة الا اسمها)) . (نفسه ص: 141) .

(1) ــ انظر ابن خلدون : العبر ،مج : 6 ،ص ص: 680ـ691ـ693ـ696ـ734 .

(2) ــ ابن خلدون : نفسه ،مج : 7 ،ص ص: 269/270ـ273ـ277 .

(3) ــ ابن خلدون : نفسه ،مج : 7 ، ص ص: 365ـ507ـ573ـ583ـ588ـ619ـ635 .

(4) ــ ابن ابي زرع : روض القرطاس ،ص ص: 172ـ173 . ابن خلدون : العبر ،مج : 6 ، ص ص: 541ـ543 .

(5) ــ يصنف ابن خلدون مذاهب الامم آنذاك في العمليات الحربية ضمن صنفـــين =

القبائل تتبع مبدأ الكر والفر ،لذا فقد لجأت هذه الدول الى الاستعانة ببعض المقاتلين من الافرنج لضرب المصاف امام السلطان عليكونوا رادعا للمقاتلين من أهل الكر والفر (1) .

واذا كانت الدول الاسلامية في المشرق والاندلس قد تخلصت من هذا المبدأ السائد في القتال ،واتبعت مذهب التعبئة بالكراديس ،فان أثر القبلية في بلاد المغرب ، والاعتماد الكلي للدولة على القبائل عطلها عن التطور في مذهبها القتالي . وحتى لو اتبعت بعض الدول التعبئة في بعض الاحيان ،فان ذلك لا يتعدى الجند النظاميين ، وهم قلة بالنسبة لحشود القبائل .

ومن الامثلة البارزة عن الاثر السلبي الذى يتسبب فيه مبدأ الكر والفر في جيش دول المغرب ، ما حدث في عهد يوسف بن المؤمن الموحدى ببلاد الاندلس،وذلك أن ابن صاحب الصلاة قد أورد خبرا مفاده أن القبائل العربية امتنعت عن المشاركة في القتال الذى دار بين المسلمين والنصارى في منطقة جبلية ، بحجة أنهم لم يتعودوا القتال في تلك الظروف الطبيعية التي تتميز بتضاريس جبلية . وقالوا ((ان حربهم تحتاج الى انفساح في الارض، حيث يروحون ، ويتصرفون في الطول والعرض)) (2) . وبالطبع فان هذه العبارة تتفق مع ما قرره ابن خلدون في : ((فصل في أن العرب(3) . لا يتغلبون الا على البسائط)) (4) .

ب ـ <u>النظام المالي</u>: ليس الهدف هنا دراسة النظام المالي من جميع

= رئيسيين فيقول : ((وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين : نوع بالزحف صفوفا ،ونوع بالكر والفر .اما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم ، على تعاقب اجيالهم . واما الذى بالكر والفر فهو قتال العرب ،والبربر من أهل المغرب . وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر)) . (<u>المقدمة</u> ،ج :2 ،ص:823) .

(1) ـ يتخذ أهل الكر والفر عادة حيواناتهم وظعائنهم خلفهم . فتكون ملجأ للفرسان اثناء كرهم وفرهم ،فتشتد عزائمهم وتحثهم على الصبر والثبات.وقد وجد سلاطين المغرب بأن هذا غير مجد ،مثل الصفوف التي تتخذ من المقاتلين انفسهم من أهل الزحف .وعليه فقد استعانوا بالافرنج في ذلك . (انظر ابن خلدون : <u>المقدمة</u> ،ج :2، ص ص: 829/823) .

(2) ـ ابن صاحب الصلاة : <u>المن بالامامة</u> ،ج :2 ، ص:507 .

(3) ـ بالطبع المقصود بالعرب ،ليس أهل الحضر من العرب . انظر ما قبله .

(4) ـ ابن خلدون : <u>المقدمة</u> ،ج :2 ، ص:623 .

جوانبه،بل المقصود هو التعرف على أثر القبلية في النظام المالي بدول المغرب الاسلامي ، خلال الفترة المحددة لهذا البحث . وعليه فان أثر القبلية على هذا القطاع الحيوى يمكن حصره ضمن : الموارد الجبائية الخاصة بالدولة لقائم اعطياتها ،والموارد الجبائية الخاصة بالقبائل ،وفي الاخير موقف القبائل من الضرائب المفروضة عليهم من قبل الدولة أو من طرف قبيلة أخرى .

(1) — **الموارد الجبائية واعطيات الدولة** : ثمة — بالطبع — موارد مالية عديدة تستفيد منها الدولة . والذى يهم هنا هي الموارد ذات الطابع الضرائبي من اتاوات ومغارم مختلفة . مثل :الغنائم ،والفيء ،والزكاة ،والخراج ،والعشر ،والجزية ، والمكوس . اما الاعطيات فأهم ما يقدم للحامية من جند وقبائل على أن يتكفل جميعهم بالذود عن حياض الدولة ، وقهر اعدائها .

ومن هنا يتحدد المجال المقصود . وذلك أن الدولة عندما تكون قوية وذات سيادة قاهرة لرعيتها ، تتحكم في جباية الاموال أكثر من الدولة الضعيفة . وبالتالي فالدولة التي تكون جبايتها مضبوطة تنمو مداخيلها ،وتتضاعف أموالها . وهذا — بالطبع — يساعدها على الاكثار من عطاياها ،وبذلك تضمن ولاء الجند والانصار والمصطنعين . وهذا ما يمكن ملاحظته بيسر من خلال تتبع النشاط الجبائي بدول المغرب الاسلامي .

فالدولة الموحدية حرصت كل الحرص على ضبط جبايتها (1) ،ولم يكن خلفاء هذه الدولة ليتسامحوا مع أى خلل في ميدان الضرائب،بل كانوا صارمين تجاه عمال الدولة، وجباتها ،ومن هنا يتجلى مصدر قوة هذه الدولة التي كانت تستطيع تجنيد نصف مليون من الجند والانصار، وكل هؤلاء — بالطبع — يحتاجون الى مال وفير يضمن ولائهم واخلاصهم .

وقد ذكر المؤرخون بأن عهد عبد المؤمن بن علي وضع الخراج على أراضي المغرب وافريقية كافة ، من برقة الى السوس الاقصى ،وذلك أنه مسح تلك الاراضي بالاميال

(1) — وصلت الدولة الموحدية في حرصها الى حد المبالغة والتعسف في بداية الامر ، من ذلك ان الدولة تأخذ من القبائل خراج الارض سواء انتجت ام الحكس، كما أنها "

والفواسخ طولا وعرضا ،ثم اسقط ما يعادل الثلث وضاعف الجبال والمستنقعات والانهار .. الخ . ثم فرض الخراج على الثلثين ،بحيث طالب كل قبيلة بأن تقدم للدولة خراجا عن الاراضي التابعة لها (1) . ولما تراخى أحفاده عن الجباية ،وتركوها بين ايدى القبائل والعمال ،استفحل الطامعون من ابناء القبائل التي كانت تنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على الدولة ،وبالفعل أضحت قبائل عديدة كبني عبد الواد وبني مرين تستحوذ على جباية الاوطان وجباية القبائل الاخرى (2) . وبواسطة مداخيل الجباية المغتصبة من الدولة الموحدية تمكنت تلك القبائل من اقامة امارات لها ذات قوة واعتبار، تمكنت في النهاية من التهام الدولة الموحدية نفسها ، بعد أن افلست وعجزت عن تقديم العطايا لا نصارها ومصطنعيها .

وكان ابو زكرياء مؤسس الدولة الحفصية صارما في القضايا المالية، وحريصا كل الحرص على استخلاص الموارد الجبائية من رعايا الدولة والقبائل المنتشرة في ربوعها (3) .وقد سار على نهجه ابنه المستنصر . ولكن بدأ حزم الدولة تجاه القبائل يضعف بولاية أبي اسحاق بن ابي زكرياء الذى كان أول من أقطع البلاد الغربية من المملكة الى قبائل بني هلال (4) . ولما تولى أمر الدولة الحفصية ابو حفص عمر بن ابي زكرياء اقطع بلاد افريقية ومغارمها للقبائل العربية مكافأة لهم على اعانتهم له في استعادة

= تأخذ نصف الفواكه الصيفية والخريفية ،اما غلة الزيتون فتأخذ منها الثلثين (حركات: المغرب عبر التاريخ ،ص: 345 / 346 .) .

(1) ـ ابن ابي زرع : روض القرطاس ،ص: 129 . السلاوى : الاستقصاء ،ج :2 ،ص: 139 . حركات : المغرب عبر التاريخ ،ص: 345 . عبد الله علام : الدولة الموحدية ،ص: 253/ 254ـ265 .

(2) ـ ابن خلدون : العبر ،ج :6 ،ص: 537ـ540 . ج :7 ،ص: 129ـ150/ 151. 159ـ162ـ350/354ـ360ـ361ـ364 .

(3) ـ انظر ابن خلدون : العبر ،ج :6 ،ص: 596ـ598/ 599ـ605/ 607 .الزركشي : تاريخ الدولتين ،ص: 25ـ29/ 30 . العامرى : تاريخ المغرب العربي ،ص: 18ـ 20 .

(4) ـ انظر ابن القنفذ : الفارسية ،ص: 139 . الزركشي : تاريخ الدولتين ،ص: 43 . ويرى ابن خلدون بأن أول من اقطع البلاد في الدولة الحفصية الى القبائل العربية هوابو حفص عمر بن ابي زكرياء (انظر العبر ،ج :6 ،ص: 696) .

حكم الحفصيين من أيدى الدعى ابي عمـــــــارة (1) .

ومنذ ئذ استفحل أمر القبائل من بني سليم وهلال على الدولة،تبعا لا رتفـــاع مستوى معيشتهم ونموقدراتهم المادية، وبالمقابل ضعفت الدولة أمامهم، تبعـــا لشح مواردها المادية وتقلصها . وعلى الرغم من استحواذ القبائل على تلك الموارد المالية ،فانهم لم يتورعوا عن مطالبة الدولة بالعطايا التي تعودوا عليها من قبـل . وهنا وجدت الدولة نفسها في حرج كبير امام جشعهم . وهكذا عجزت الدولة عن ضمان ولاء اعضاء القبائل وشيوخها، ووصل بها الانحلال والتفكك الى الهاوية(2) . ولولا المحاولات المتكررة من طرف بعض السلاطين لاسترجاع ما ضاع من اراضي وموارد مالية لا نتهى أمر تلك الدولـة في أقصر وقـــت .

ودولة بني عبد الواد نشأت ـ كما هومعلوم ـ بفضل قبيل هذه الدولة. الــذى توصل الى الملك بعد تغلبه على الاقاليم التي اقتطعها من الدولة الموحدية. وقــد استفاد بنوعبد الواد في بداية الامر بالموارد المالية التي تدرها جباية تلـــك الاقاليم ،الامر الذى عزز قوة هذه القبيلة فامتلكت البلاد نهائيا ، واستبـــدت بمواردها وثرواتـــها .

وفي بداية الدولة تحكم سلاطينها الاولون بتلك الموارد،واستخلصوا جبايتـــها وفرضوا الضرائب والمغارم على الرعية،وعلى القبائل المتواجدة في تلك الربوع. ولمـــا تولى السلطان ابو حمو الثاني أمر الدولة اضطر في أواسط دولته على التنازل للقبائل الهلالية ،حيث اقطعهم جل البلاد الخصبة طمعا في ولائهم ومناصرتهم (3) . ولكـــن ذلك التصرف رجع عليه بالضرر ،حيث تقلصت موارده المالية،وبالتالي لم يجد ما يقدمه الى اولائك الانصار من عطايا أخرى تضمن ولاءهم الدائم . وكان من أهم الاسبـــاب في وهن الدولة العبد الوادية وضعف مجهودهـــا المالـــي .

(1) ـ ابن خلدون : العبر، مج : 6 ،ص: 694/696 .

(2) ـ ابن خلدون : العبر، مج : 6 ،ص: 715ـ869ـ871ـ900/901 .

(3) ـ ابن خلدون : نفسه ،مج : 6 ،ص: 92/93 ، مج : 7 ،ص: 271/272ـ278 / 280ـ290 .

اما الدولة المرينية فكانت - بدورها - في بداية عهدها قوية النفوذ كثيرة الانصار ، بحكم الموارد المالية التي تدرها جباية البلاد الخاضعة لها ،وبحكم الثروات التي تشتمل عليها اقاليمها . ولما اشتدت الخصومات العائلية والعشائرية داخل الدولة ، تبعا لتغلب بعض الوزراء واستبدادهم على السلاطين ، استفحلت بعض القبائل ذات القوة والنفوذ (1) . وهنا انفلت الامر من الدولة ، واخذت تلك القبائل في الاستبداد والاستحواذ بالجباية (2) ، وبالطبع انتهى الامر بتدهور الدولة ،تبعا لتقلص مواردها المالية .وكانت النهاية هي سقوط الدولة .

(2) - **الموارد الجبائية الخاصة بالقبائل** : ربما انطلقت هذه الفكرة من وجود شكلين من القبائل :الشكل الاول تمثله القبائل المخزنية التي أعفيت من الضرائب،في مقابل الولاء الذي تقدمه للدولة. والشكل الثاني تمثله القبائل الغارمة التي استغنت الدولة عنها كطمية ، تلجأ اليها الدولة عند ظهور الخطر .

ومن هذا المنطلق تتوصل القبائل بعد مدة الى مستوى تتمكن فيه من الاستحواذ بالجباية لنفسها . ويتم هذا - بالطبع - تدريجيا . ففي البداية تحظى القبيلة باقطاع ما تقدمه الدولة لها ، مكافأة على خدماتها . وقد يكون ذلك الاقطاع جماعيا للقبيلة كلها . ومن هنا يسعى شيخ القبيلة الى جباية الاراضي المقطوعة لقبيلته ، وتقديم جزء من الجباية للدولة . ومع الوقت تأخذ تلك الحصة في النقص حتى تنقطع عن الدولة تماما . وهذا ما تم في أواخر الدولة الموحدية من طرف بني عبد الواد . وفي الدولة الحفصية من طرف قبائل بني هلال وسليم . وفي دولة بني عبد الواد من طرف قبائل بني هلال . وفي الدولة المرينية من طرف عدد من القبائل الامازيغية والعربية .

ومن جهة أخرى فقد تلجأ القبائل - ايضا - الى فرض بعض المكوس على السابلة وعلى بعض الاسواق الخاضعة لنفوذهم . من ذلك الاتاوة التي سموها بالخفارة . وهذه الاتاوة شاع أمرها في بلاد المغرب الاسلامي ، بشكل واسع، كل ذلك كان يجرى في

---

(1) - انظر ابن خلدون :العبر،مج :7،ص: 620 وما بعدها .

(2) - كان السلاطين المرينيون الاولون متحكمين في امور الجباية والضرائب، حتى .

ظل الدولة التي لاتحرك ساكنا . كما فرضت بعض القبائل أيضا أتاوات علـــى أهل الذمة ، خاصة عندما يتعاطـون تجارة القـــوافـل .

اما القبائل الغارمة فهي تلك القبائل الضعيفة العصابة ، التي خضعت للدولـــة ، وبالتالي خضعت للقبائل القوية التي اطلقت يدها الدولة على جباية أموالهـــا ، واستخلاص الضرائب منهم لصالح الدولة في البداية ، ولكن مع الوقت تصبـــح تلك الضرائب من حق القبائل القوية كما سبق ذكره . وكمثال على هذا النوع من القبائل : قبائل الطبقة الاولى من زناتة التي اضحت في ظل الدولة الموحدية قبائل غارمـــة ، تستخلص جبايتها قبيلة بني عبد الواد في المغرب الاوسط . وقبائل المغـــرب الاقصى التي اعطت الغرائم الى المرينيين قـهرا وخضوعا . ثم قبائل هوارة الـــتي قدمت مغارمـــها الى اعراب سليم ببلاد افريقيـــــة (1) .

(3) — **موقف القبلية من اعطاء الضرائب** : ان ماسبق ذكره يقـود الى اعتبار الضريبـة — في المفهوم القبلي آنئذ — عامل ذل وقهر ومهانـة . ولم يكن ابن خلدون — في الحقيقة — مبالغا — كما اعتقد بعضهم (2) — عندما اعتبر المغارم احدى العوامـــل

= انهم كانوا يستقبلون العمال آخر كل سنة لتقديم الجباية وحساباتهم . وفي هـــذا يقول ابن خلدون : ((كان سنن السلطان ابو الحسن في دولته بالمغرب وفـــود العمال عليه آخر كل سنة ، لايراد جبايتهم والمحاسبة على اعمالهم ، فوفدوا عليه عامهم ذلك (الى افريقية) من قاصية المغرب ، ووافاهم خبر الواقعة (واقعة القيروان) بقسنطينة . . .)) . (العبر ، مج : 6 ، ص : 821) . ومن هنا يتضح مدى حرص سلاطين بني مرين على جباية الاموال . ولما احتل ابو الحسن افريقية لم يعجبه استبـــداد القبائل باموال الدولة ، واغتصابهم للمغارم لهذا سارع الى استعادة ما اقطعـــه الحفصيون لهم ، واكتفى بمنحهم اعطيات مقابل ولائهم ، وهنا ثارت ثورة القبائـــل وزحفوا اليه ، وكانت نكبته الشهيرة (العبر ، مج : 6 ، ص : 816 / 822 ، مج : 7 ، ص : 567 / 575) . والغريب في الامر ان ابا عنان ايضا ثارت عليه القبائل وانحـــرفت عنه عندما قرر استرجاع الاقطاعات ، وكف يدهم عن المغارم (العبر ، مج : 7 ، ص : 618 / 621 — 626 / 627) .

(1) — انظر ما قبلـــه .

(2) — انظر اعتراض طه حسين بخصوص هذا الموضوع في كتابه فلسفة ابن خلـــدون =

التي تسبب في ذل القبائل ، وفي تلاشي عصبيتهم (1) . لان الاحداث التاريخية والشواهد التي تنطق بها النصوص الصريحة تثبت هذه الظاهرة في بلاد المغرب على الأقل .

وربما يكون الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قد فطن الى هذا الامر قبل ابن خلدون ، حين اوصى بلكين (بلقين) بن زيرى بأن لا يرفع الجباية عن أهل البادية (2) . ويبدو أنه قصد من ذلك اخضاع قبائل البادية وقهرهم بمذلة الضريبة والغرامة ، فينهك بهذا القهر عصبيتهم ويفسدها .

وقد اتضح من خلال دراسة تاريخ قبائل المغرب بأن اشدها عصبية ، واقواها عصابة كانت تأبى تقديم الضرائب للدولة ،حتى ولو كانت في شكل زكاة . لان ذلك في عرفهم يعتبر من علامات الضعف والذل ، وقد اشار الى هذه الظاهرة مؤرخون آخرون بالاضافة الى ابن خلدون .

وجملة القول في باب المغارم والضرائب ، فان هذا الامر تسبب في افلاس كثير من القبائل ، وذلك أنهم تعرضوا للسلب من طرف الدولة من جهة ، ومن طرف القبائل القوية من جهة أخرى . وعليه فقد غيم عليهم الشقاء ،وظهرت عليهم التعاسة والفقر . وقد لاحظ هذا الامر الحسن الوزان خلال زيارته لبعض الاقاليم التي يسكنها اولائك التعساء كما وصفهم . (3) .

= الاجتماعية ، صص: 94/96 . انظر ايضا فصل العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية من هذا البحث .

(1) ـ انظر ابن خلدون : المقدمة ،ج :2 ، صص: 612/614 .

(2) ـ انظر ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم :3 ، ص: 65 .

(3) ـ انظر ما قبله .

الخــــــاتمــــة

شغل موضوع العصبية ـ كظاهرة اجتماعية مجردة ـ عددا مـــن الباحثين الذين انحصرت اهتماماتهم اساسا في الدراسات الخلدونية. ويرجع السبب في ذلك الى كون ابن خلدون هو المبتكر الاول لنظرية العصبية، حيث أعطاها المفهوم الحيوى الذى عرفت به فيما بعـــد. غير أن الابحاث والدراسات التي عرفت حتى الآن يمكن تصنيفهــا ضمن الدراسات الفلسفية والاجتماعية ، وعلاقاتها بالدراسات التاريخية لا تخرجها من الاطار الفلسفي والاجتماعي المجرد من ذكر الشواهـد والأحـــداث التاريخيـــة .

وبهذا يمكن ابراز أهمية هذا البحث الذى يقدم للدارســين والقراء شكلا جديدا من أشكال البحث عن مفهوم العصبية ، وذلــك أنه يطبق نظرية ابن خلدون بخصوص العصبية على مسرح الأحـــداث التاريخية ببلاد المغرب الاسلامي . وبهذا يتمكن الدارسون مـــن الحكم على صحة نظرية ابن خلدون أو بطلانها . فبقياسها مع ما كـان يجرى من طرف قبائل المغرب تجاه بعضهم بعضا ، وتجاه الـــدول الحاكمة تتجلى الرؤية، وتتدعم الفكـــرة .

ويبدوا أن تطبيق نظرية العصبية على الأحداث التاريخيـــة أصبح ضروريا ، بسبب ما تعرضت له هذه النظرية من نقد . وبمـــا أن انصار نظرية العصبية والرافضين لها اكتفوا بالابحــــاث والدراسات الفلسفية المجردة . فان طرح الموضوع بصورة سهلـــة مطابقة لحقيقة الاحداث التاريخية أضحى حافزا ملحا . وهذا ما تقدمه

هذه الاطروحـــة بكل تواضـــــــــــــع .

وظاهرة العصبية ـ كما لا يخفى ـ لايقتصر مجالها على الفـــترة الزمنية المحددة لهذا البحث ، كما أنها لا تقتصر على ديار المغـــرب الاسلامي ، بل تتجاوز تلك الحدود زمانا ومكانا . وقد تبين للباحـث بأنها هيمنت على المجتمعات القبلية منذ حقبة موغلة في القدم ، وقـد عرفت هذه الظاهرة على الخصوص في المجتمع العربي والامازيغـــي ، حيث خصصت عناية بالغة للانساب ، وحفظت الاعراف القبلية الـــتي تستند الى القرابات الدمويـــــــــة .

ولما كان المجتمع المغربي يتكون أساسا من قبائل امازيغيـــة وعربية فان ظاهرة العصبية برزت بقوة وجلاء في ربوع هذا المجتمع ، لان المجتمع القبلي بصورة عامة يعتبر أرضية خصبة لترعرع العصبيـــة ونموها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان تركيب المجتمـــع المغربي من قبائل عربية وامازيغية يضيف عاملا آخر للموضـــــوع ، بحكم أن العرب والامازيغ من الشعوب التي تميزت بظاهرة العصبيـة الجياشة . وقد صدق ابن خلدون حين ذكر بأن الاوطـــــــان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة (1) . وقـــد ضرب مثلا لذلك ببلاد المغرب الاسلامي ، حيث تتواجد القبائـــل الامازيغية ذات العصبية الفياضة ، وحيث الحياة البدوية الـــتي تميزهم وتغلب عليهم . أما القبائل العربية فلا يخفى على أحـــد ما لظاهرة العصبية بينهم . اذ كادت أن تكون من خصوصياتـــهم ، لما تضمنته دواوين الادب وكتبه من شواهد تثبت طغيـــــان

---

(1) ـ أنظـــر ما قبلـــه .

العصبية عليهم في بواديهم بأرض شبه الجزيرة العربية ، وببلاد المغرب ، والاندلس .

وقد تجلى أثر العصبية ودورها أكثر فأكثر بعدما زحفت قبائل بني هلال وسليم الى ديار المغرب ،اذ غدت المؤلفات التاريخية تزخر بالشواهد والامثلة التي توضح ذلك الاثر. وأهم الفترات التاريخية التي تبرز فيها العصبية القبلية بوجهها القبيح هي الفترة التي أتت بعد سقوط دولة الموحدين ، وبالتحديد في ظل الدول المغربية : الحفصية ، والعبد الوادية، والمرينية . غير أن هذه الظاهرة كانت سابقة لهذه الفترة ، ولكن عفونة الوضع لم تظهر بالشكل الذى عرفت به بعد الموحدين .

والشاهد هنا أن جل دول المغربان لم تكن كلها - قامت على كاهل القبائل ، وبفضل العصبية القبلية بالذات . والذى يهم في هذا المجال هي دولة الموحدين ، والدول التي قامت على انقاضها . فالدولة الموحدية نشأت بنص نجمع قبائل مصمودة ضمن حلف قبلي شمل قبائل عديدة . ولم يتم ذلك الا بواسطة القوة والغلبة المعززة بالتعاليم الدينية التي كانت بمثابة الضابط المنظم للعصبية . وقد استطاعت قبائل الموحدين تحقيق غايتها في الملك بعد أن أسقطت دولة المرابطين ، تلك الدولة التي قامت بدورها بفضل العصبية الصنهاجية المعززة بالمذهب المالكي .

وقد تعرضت دولة الموحدين لهزات عديدة نتيجة للادوار الهدامة التي قامت بها عصبيات أخرى ببلاد المغرب . وانتهى الامر بهذه الدولة الى السقوط والاندثار تحت أقدام قبائل وعصبيات قوية ،

أبرزها عصبية بني عبد الواد ، وعصبية بني مرين ، تم ذلك بعد مشاغبات عديدة انهكت قوى الدولة الموحدية ، ومصدر تلك المشاغبات هي قبائل بني هلال ، وسليم ، والمعقل . تلك القبائل التي انساقت مع بني غانية المسوفيين في فتنتهم ومخالفاتهم . ومن خواص القبائل المذكورة انهم كانوا محل استهواء واغراء من الخارجين عن الدولة القائمة ، مهما تباينت مقاصدهم ، ومهما تطرقت اهدافهم ، فيكفي أن تعلن جهة معينة عصيانها حتى تستقطب أولائك الأعراب وتستهويهم .

ولما ظهر الحفصيون والعبد الواديون والمرينيون وجدوا العصبية القبلية لبني هلال ، وسليم ، والمعقل في أوج قوتها . ولم تتمكن هذه الدول الفتية من كبح جماح العصبيات التي استفحل أمرها ، بل أضحت تلك الدول في موقف ضعيف يحتم عليها معاملة القبائل المختلفة بأسلوب لين ومغر ، لأن القوة والغلبة غير متوافرة لدى تلك الدول ، وعليه فقد أضحت دول المغرب آنئذ تحت رحمة القبائل التي كانت تتقلب في ولائها التكلي ، وغير الثابت ، وبذلك عرفت الاحداث التاريخية لدول المغرب خلال هذه الفترة الزمنية مهازل فضيحة قامت بها العصبية القبلية تجاه نظم الدول المتواجدة آنئذ . وكل ذلك تم شرحه ضمن فصول هذا البحث المتواضع .

ونتيجة لهذه الظاهرة التي تبرز التفكك الاجتماعي ببلاد المغرب ، وتظهر الضعف والانحلال الذى أصاب الدول بهذه الديار .. نتيجة لذلك كله أخذت مدن ساحلية عديدة تسقط واحدة

بعد الاخرى بين مخالب الصليبيين من الاسبانيين والبرتغاليـــين .
كل ذلك بسبب العصبية القبلية أولا ، ثم تأتي الأسباب الأخـــرى
التي تنحصر في عوامل دينيـة وثقافيـــة .

وجملة القـول ان العصبيـــة القبليـة في ديـــار المغـــرب
تسببت في خـراب العمـران الحضـري ، وانتشار العمران البـــدوي ،
كما عرقلت المجهودات المبذولـــة من طرف فئات عديدة لتأسيـــس
دولة قويـة يمكنها توحيـد بلاد المغرب في ظل سلطة سياسيـــة
واحـدة . وبالتالي فان العصبيـــة القبلية هي المسؤولة -بالدرجة
الاولى- على التخلـف الذى سـاد المجتمع المغربـي كما تتحمـــل
العصبية القبلية ايضا مسؤولية سقوط المدن الساحلية لبـــلاد
المغرب في أيـــدى الاسبانيين والبرتغاليـين . وذلك ما حـــــدا
بالباحـث الى اعداد اطروحتـه هـذه ، طمـعا في استخـــلاص
العـــبرة ، ونبذ كلما ينتمـي الى العصبيـــة من قريب أو من بعيـد .
واللـــه الموفق ، فهو المعـــين ، وهو المنيـــب .

هاتان قصيدتان الحقتا بالاطروحة ، بعد أن تم انتخابهما من بين مجموعة من القصائد التي نظمت في أغراض عديدة ، من طرف شعراء المغرب الاسلامي ، خلال الفترة المخصصة لهذا البحث .

فالقصيدة الاولى (1) – وهي من عيون الشعر البدوي آنئذ – قالها عنان بن جابر رئيس عشيرة مرداس ، من بني جامع بن عوف جوابا على قصيدة أخرى بعثها اليه الرئيس محمد بن أبي الحسين حاجب السلطان الحفصي ابي زكرياء يحي بن عبد الواحد ، يغريه فيها بالعودة الى طاعة سلطانه ، بعد أن تمرد وهاجر مع قومه مرداس الى بلاد المغرب الاقصى .

والذي يهم من قصيدة عنان بن جابر هو أسلوب نظمها الذي اتبع فيه أسلوب شعراء البادية من بني هلال وسليم الذي يتميز بمتانة اللغة وغريب الفاظها التي تذكر القارئ بالشعر الجاهلي . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان هذه القصيدة تخفي في ضمنها شحنات دفينة من طغيان العصبية القبلية ، لانها قيلت تعبيرا عن غضب رئيس قبيلة من سلطان الدولة الحفصية الذي فضل قبيلة اخرى ، وهي ((علاق)) على قبيلة الشاعر ((مرداس)) . وعليه فقد اجاب بقصيدته هذه حاجب السلطان مفتخرا بنفسه وبقبيلته ، مع التعرض للعشائر الاخرى المعادية لقبيلته .

اما القصيدة الثانية (2) فقد قالها شاعر يسمى ((الكفيف)) وهو

---

(1) – اكتفى ابن خلدون بالاشارة الى مطلعها في كتاب العبر . غير أن حسن حسني عبد الوهاب عثر على النص الكامل لهذه القصيدة ، حيث اثبتها بكتابه ورقات (ج :3 ، ص: 91/85) .

(2) – سجل ابن خلدون الابيات المعروفة حتى الان من هذه القصيدة

من زرهون بجهات مكناسة ، واشعاره تختلف عن شعر اعراب هلال وسليم ، وذلك أن اشعار ((الكفيف)) وامثاله نظمت بلغة دارجة وعامية ، يطغى عليها اللحن ، بالاضافة الى أنها متنوعة القوافي ، اذ يبدو عليها تأثير أهل الاندلس باشعارهم الملحونة وموشحاتهم . غير أن ابن خلدون يميز بين الشكلين : الاندلسي والمغربي ، ويقول بأنهم كانوا يسمون هذا النوع بعروض البلد ، وله انواع واصناف عديدة منها : المزدوج ، والكاري ، والملعبة والغزل ، هذا وينسب ابن خلدون هذا النوع من النظم في الحقيقة الى حواضر المغرب الاقصى . ولكنه يؤكد تأثره بطريقة اعراب بني هلال وسليم . ومع هذا فان ((الكفيف)) هذا لا ينتمي الى فئة الحضر ، بالمعنى الصرف ، لانه من بيئة ريفية ، وهي تنتمي الى البادية ، وان كانت بادية متقدمة عن بادية الصحراء .

وقصيدة ((الكفيف)) هذه وصف فيها حملة السلطان المريني ابي الحسن على بلاد افريقية ، وهزيمته الشنيعة امام اعراب تلك الديار بالقيروان . ومن خلالها يمكن استشفاف الاثر الكبير للعصبية القبلية على قوة الدولة .

= في مقدمته ، (ج :4، ص : 1470/1472) . وقد اتى ذكرها ايضا في كتاب ازهار الرياض للمقري : (ج :2، ص : 222/225) .

قصيدة عنان بن جابر المرداسي *

خَلِيلَيَّ عُوجَا بَيْنَ سِلْعٍ وَحَاجِرٍ (1) * بِعُوجٍ عَنَاجِيجٍ نَوَاحٍ ضَوَامِرِ (2)

قِلَاصٍ خِمَاصٍ شَازِبَاتٍ عِرَامِسٍ (3) * مَوَاضٍ نَوَاضٍ مُرْقِلَاتٍ عَوَابِرِ (4)

طِوَالِ الهَوَادِي لَا يَخِفْنَ تَنُوفَةً (5) * هَمَلَّعَةِ الأَطْرَافِ هُدْلِ المَشَافِرِ (6)

وَعُوجَا عَلَى دَارٍ لَنَا فِي جَنَابِهَا (7) * أَفَانِينُ لَهْوٍ دَائِمٍ غَيْرِ دَاثِرِ (8)

بِحَدٍّ وَشِيجٍ وَاخْتِلَافِ سَلَاهِبٍ (9) * وَمَجْمَعِ غَادَاتٍ وَغَانٍ وَسَامِرِ

وَقُولَا لِسُعْدَى وَالرَّبَابِ هَلِ انْتُمَا * عَلَى العَهْدِ أَمْ سَاعَدْتُمَا زَجْرَ زَاجِرِ

وَهَلْ فِيكُمَا مُوفٍ بِوَعْدِي وَقَلَّمَا * يَكُونُ الوَفَا مِنْ صَامِتَاتِ الأَسَاوِرِ (10)

خَلِيلَيَّ مَالِي كُلَّمَا رُمْتُ سَلْوَةً * دَعَانِي مُنَادِي الشَّوْقِ دَعْوَةَ جَابِرِ

وَلَمَّا رَأَيْتُ الوُدَّ قَدْ بَانَ وَانْقَضَى (11) * دَعَوْتُ وَنَارُ الشَّوْقِ تَغْزُو ضَمَائِرِي

(*) – يستحسن التنبيه هنا الى أنه قد تمت الاستعانة بمعجم لسان العرب لابن منظور في شرح الالفاظ الصعبة .

(1) – عوجا : انعطفا . سلع : شق في الجبل . حاجر : منابت العشب .

(2) – العوج : (جمع عوجاء) الضامر من الابل . عناجيج (مفردها عنجوج) : الرائع من الخيل والابل . نواح : من الانتحاء (أي الميل) . ضوامر (مفردها ضامر) : الابل التي علفت قوتا بعد سمنها) .

(3) – قلاص (جمع قلوص) :الفتية من الابل .خماص:ضوامر . شازبات : الضوامره عرامس (جمع عرموس) : الناقة الصلبة الشديدة .

(4) – مواض : المتقدمة المسرعة . نواض: المسرعة المنسلخة عن غيرها . مرقلات : الابل المسرعة (ضرب من سير الابل) . عوابر : الابل القوية على السير .

(5) – الهوادي (جمع هودة) : الاعناق وأصل السنام . تنوفة : المفازة ..

(6) – هملعة الاطراف: سريعة الاطراف . هدل المشافر : طويلة المشافر لحد الاسترخاء (وذلك مما يمدح به) .

(7) – جناب الدار : فناؤها وجانبها) .

(8) – افانين (مفردها فنن) : الغصن .

(9) – بحد وشيج : بحد مشتبك من نبات كالقصب وغيره .سلاهب (جمع سلهب) : الطوال من الخيل وغيره .

(10) – صامتات الاساور :الجوارى اللاتي لا يسمع صوت خلاخيلهن بسبب غلظ سيقانهن .

(11) – بان الود : المقصود هنا هو ضد الوصل .

أَلاَ أَيُّهَا الغَادِي عَلَى مَتْنِ ضَامِرٍ * سَلِيمِ القَرَى عَبْلِ الذِّرَاعَيْنِ فَاطِرِ (1)

يَزِفُّ زَفِيفَ الخَاضِبَاتِ وَيَنْثَنِي (2) * كَحِقْفٍ لَحَتْهَا لاَ فِحَاتُ الهَوَاجِرِ (3)

عَلَيْهِ غُلاَمٌ لاَ يَمَلُّ مِنَ السُّرَى * عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِالصُّوَى وَالمَخَاطِرِ (4)

تَحَمَّلْ إِلَى ((تَرْشِيشَ)) (5) عَنِّي تَحِيَّةً * كَمَا سَلَّمَ الأَحْبَابُ عِنْدَ التَّزَاوُرِ

(بِلاَدٌ بِهَا نِيطَتْ عَلَيَّ تَمَائِمِي * وَفِيهَا نَمَا عَقْلِي وَلُبِّي وَخَاطِرِي) (6)

وَبَلِّغْ لِنَدْبٍ أَرْيَحِيٍّ سَمَيْدَعٍ (7) * سَلاَماً يُؤَدَّى عَنْ عَنَانَ بْنَ جَابِرِ

إِلَى المَاجِدِ الأَسْنَى إِلَى فَارِسِ الوَغَى * مُرَوِّي القَنَا يَوْمَ الْتِقَاءِ العَسَاكِرِ

أَبِي عَابِدِ اللَّهِ الكَرِيمِ نِجَارُهُ (8) * حَلِيفِ الأَيَادِي وَالنَّدَى وَالمَآثِرِ

بَعَثْتُ أَبَا عَبْدِ الإِلَهِ بَدَائِعاً * مُحَبَّرَةً (9) مَنْظُومَةً كَالجَوَاهِرِ

تُذَكِّرُنِي الوُدَّ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * وَتَزْعَمُ أَنِّي سَالِيٌ غَيْرُ ذَاكِرِ

لَيَالٍ وَأَيَّامٍ نَعِمْنَا بِوَصْلِهَا * عَلَى كَرَمٍ مِنَّا وَحِفْظِ سَرَائِرِ

---

(1) ـ سليم القرى : سليم الظهر ، عبل الذراعين : ضخم الذراعين .

(2) ـ يزف زفيف الخاضبات : سريع كسرعة النعام .

(3) ـ حقف : ضبي .

(4) ـ الصوى : أعلام من الحجارة منصوبة في الفيافي والمفازة المجهولة ، يستدل بها على الطريق .

(5) ـ ترشيش : اسم قديم لتونس . (ح ح عبد الوهاب ، ورقات ، ج :3 ، ص : 87) .

(6) ـ اقتبس عنان بن جابر هذا البيت من قصيدة لابن ميادة (نفسه ، ج :3 ، ص : 87) .

(7) ـ يقال رجل ندب : خفيف في الحاجة ظريف ، نجيب ، أريحي : رجل واسع الخلق ، نشيط الى المعرف ، سميدع : كريم ، سيد ، جميل ، جسيم ، شجاع .

(8) ـ الكريم نجاره : ذو الاصل والحسب الكريم .

(9) ـ محبرة : حسنة .

وَكُنَّا إِذَا مَا الجَيْشُ صُفَّتْ جُنُودُهُ (1) * تَرَانَا عَلَى خَيْلٍ عِتَاقٍ ضَوَامِرِ
عِرَابٍ طِرَابٍ صَافِنَاتٍ سَلاَهِبٍ (2) * خِفَافِ التَّوَالِي مُدْمِجَاتِ الحَوَافِرِ (3)
نَجُرُّ القَنَا المُرَّانَ (4) فَوْقَ خُدُودِهَا * نُقَدِّمُهَا لِلطَّعْنِ لاَ عَنْ تَنَاجُرِ
نَخُوضُ وَغَاهَا وَالقَنَا تَقْرَعُ القَنَا * بِكُلِّ حُسَامٍ مَشْرَفِيٍّ وَبَاتِرِ
فَلَمَّا بَدَا لِي بَعْضُ مَا كُنْتُ أَتَّقِي * وَحَانَتْ أُمُورٌ ضَيِّقَاتُ المَصَادِرِ
وَعَادَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ حَلْقَةَ خَاتِمٍ * بِلاَ ذِلَّةٍ مِنِّي سِوَى طَوْعِ آمِرِ
رَأَيْتُ رِجَالاً مِنْ رِيَاحٍ وَمَالِكٍ * وَعَوْفٍ وَدُبَّابٍ وَزُغْبٍ وَمَاجِرِ
لَهُمْ مَقْرَبٌ دُونِي وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَهُمْ * بِسَيْفِي وَرُمْحِي فِي الوَغَى وَعَشَائِرِي
تَبَيَّنْتُ حَالاً لاَ أُطِيقُ احْتِمَالَهَا * فَحِدْتُ بِنَفْسِي عَنْ عَدُوٍّ وَجَائِرِ
وَسَلَّمْتُ أَرْضَ الشَّرْقِ لاَ عَنْ مَذَلَّةٍ * وَيَمَّمْتُ أَرْضَ الغَرْبِ لاَ عَنْ تَخَائِرِ
إِلَى بَلَدٍ لاَ يَعْرِفُ الذُّلَّ أَهْلُهُ * كِرَامُ السَّجَايَا مِنْ هِلاَلِ بْنِ عَامِرِ
فَسَقْيًا لَهَا مِنْ بَلْدَةٍ جَادَهَا الحَيَا * وَلاَ زَالَ فِيهَا وَاكِفَاتُ (5) المَوَاطِرِ
بِلاَدٌ بِهَا لِلْغَانِيَاتِ مَرَاتِعٌ * مُنَمْنَمَةٌ أَكْنَافُهَا (6) بِالأَزَاهِرِ
وَعِزٌّ يَصُونُ النَّفْسَ عَنْ طَارِقِ الأَذَى * وَيَحْمِي الفَتَى عَنْ جَوْرِ بَادٍ وَحَاضِرِ
تُوَافِي إِلَيْنَا كُلَّ يَوْمٍ قَبَائِلٌ * مُوَشَّحَةٌ بِالمَاضِيَاتِ البَوَاتِرِ
فَمِنْهَا صَدِيقٌ صَادِقُ الوُدِّ مُنْصِفٌ * وَمِنْهَا عَدُوٌّ كَاشِحٌ (7) غَيْرُ نَاصِرِ

---

(1) ـ عتاق : سوابـق .
(2) ـ عراب : معربة . طراب : تفزع الى اوطانها . صافنات : الخيل التي تقف على ثلاث قوائم وتثنى سنبك الرابعة .
(3) ـ التوالي : الذنب والرجلان . مدمجات الحوافر : سريعة الحوافر .
(4) ـ المران : الرماح الصلبة اللدنة .
(5) ـ واكفات : سائلة .
(6) ـ أكنافها : نواحيها .
(7) ـ كاشح : المعادي والمقاطع للود .

فَمَنْ كَانَ مِنَّا نَالَ عِزًّا وَرِفْعَةً * وَمَنْ حَادَ دُسْنَا أَرْضَهُ بِالحَوَافِرِ
فَلَا لَوْمَ أَنَّ الجَوْدَ فِيمَا فَعَلْتُهُ * فَلَلْمَوْتُ أَحْلَى فِي الحَشَا وَالحَنَاجِرِ
مِنَ الذُّلِّ إِنَّ الذُّلَّ عَنَّا بِمَعْزِلٍ * وَمَا شَأْنُنَا غَيْرُ اكْتِسَابِ المَفَاخِرِ
وَفِي الأَرْضِ أَوْطَانٌ وَمَأْوَى وَمَسْرَحٌ * وَفِي النَّاسِ مَنْ يُرْجَى لِدَفْعِ الضَّرَائِرِ
وَسَيْفِي وَرُمْحِي وَاعْتِزَائِي وَسَابِغِي * وَدِرْعِي وَقَوْمِي كَالأُسُودِ الهَزَابِرِ
حُمِيتَ ـ أَبَا عَبْدِ الإِلَهِ ـ مِنَ الأَذَى * وَلَازِلْتَ تَسْمُو فِي جَمِيعِ المَآثِرِ

هذه القصيدة من البحر الطويل

قصيدة الكهرباء

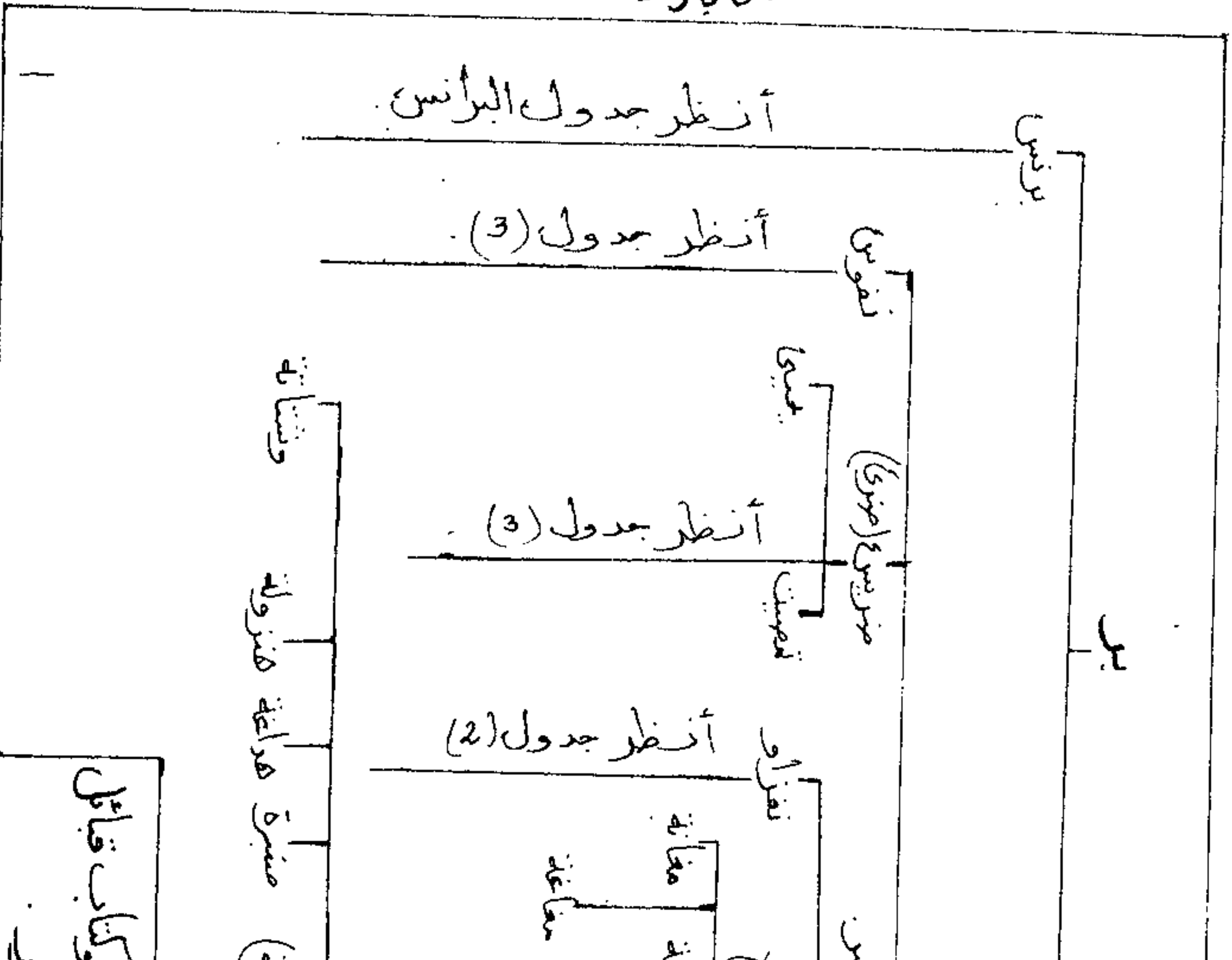
بدأ هذا الشاعر قصيدته بهذا المطلع الذى يتميز ببراعة الاستهلال .

سُبْحَانْ مَالِكْ خَوَاطِرْ الأُمَرَا * بِنْوَاصِيهَا فِي كُلّ حِينْ وَزْمَانْ
إِنْ طِعْنَاهْ أَعْظَمْ لَنَا نَصْرَا * وَإِنْ عِصِينَاهْ عَاقَبْ بِكُلّ هَوَانْ

ثم تخلص بعد ذلك الى قوله :

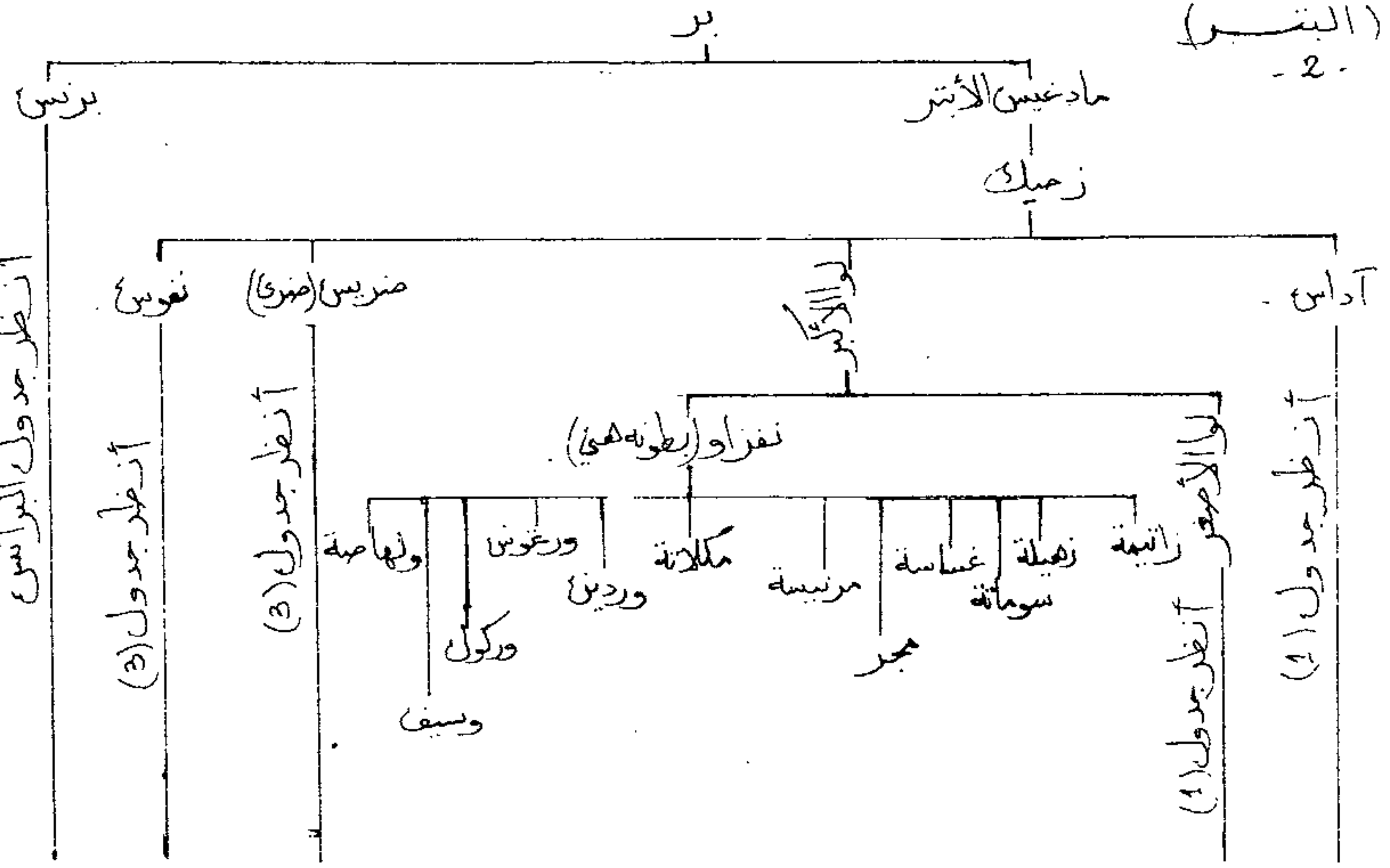
كُنْ مَرْعِي قُلْ وَلَاتَكُنْ رَاعِي * فَالرَّاعِي عَنْ رَعِيَّتْهُ مَسْؤُولْ
وَاسْتَفْتِحْ بِالصَّلَاةْ عَلَى الدَّاعِي * لِلْإِسْلَامْ وَالرِّضَا السَّنِي الْمَكْمُولْ
لِلْخُلَفَا الرَّاشِدِينَ وَالْأَتْبَاعْ * وَاذْكُرْ بَعْدَهُمْ إِذَا تحب وَقُولْ
أَحْجَاجاً تَخَلَّلُوا الصَّحْرَا * وَدَرُوا شَرْحَ الْبِلَادِ مَعَ السُّكَانْ
عَسْكَرْ فَاسْ الْمُنِيرَةِ الْغَرَّا * أَيْنَ سَارَتْ بِهِ عَزَائِمْ السُّلْطَانْ
أَحُجَّاجْ بِالنَّبِي الَّذِي زُرْتُمْ * وَقَطَعْتُمْ لُوكَلَا كِلِ الْبِيدَا
عَنْ جَيْشِ الْغَرْبِ جِيتْ نِسْأَلْكُمْ * الْمَتْلُوفْ فِي افْرِيقْيَا السُّودَا
وَأَمِيرْ كَانْ بِالْعَطَا يِزَوِّدْكُمْ * وَيَدَعْ بَرِيَّةَ الْحِجَازْ رَغْدَا
قَامْ كُلّ كَلَسَدْ صَادَفَ الْجَزْرَا * وَيِعْجَزْ مُوطْ بَعْدَمَا لِخْفَانْ
وَتَرَكُوا دَمْ وَلَهَبْ فِي الْغَبْرَا * أَدِي صَارْ إِذْ غَارْ لَهْ سَيَحَانْ
لَوْكَانْ مَا بَيْنْ تُونِسِ الْغَرْبَا * وَبْلَادِ الْغَرْبْ سَدّ الْإِسْكَنْدَرْ
مَبْنِي مِنْ شَرْقِهَا إِلَى غَرْبَا * طَبقاً بِحْدِيدْ وَثَانِياً بِصْفَرْ
لَابُدّ لِلطِّيْرْ كَانْ يِجِي بِنَبَا * أَوْيَاتِي الرِّيحْ عَنْهُمْ بِفَرْدْ خَبَرْ
مَا أَعْوَصْهَا مِنْ أُمُورْ وَمَا شَرَّا * لَوْتَقْرَا كُلّ يَوْمْ عَلَى الْوِيدَانْ
لَجَرَتْ بِالدَّمْ وَانْصَدَعْ حَجَرَا * وَهَوَتْ الأَجْرَافْ وَجَنَّتْ الْغُدْرَانْ
إِدْرِي لِي بِعَقْلِكْ الْفَحَّاصْ * وَتْفَكَّرْلِي بِخَاطِرِكْ جَمْعَا
إِنْ كَانْ يِعْلَم حمام ولَا رَقَّاصْ * عَنِ السُّلْطَانْ شَهْرْ وَقَبْلَهُ سَبْعَا

بِكتَابْ عَبْد المُهَيْمِنْ القَـــوَّاصْ * وَعَلاَمَاتْ تُنْشَرْ عَـلَى الصُّمْعَـــا
إِلاَّ قَوْم عَارْيِين بِلاَ سِـــتْرَا * مَجْهُولِينْ لاَ مكَانْ وَلاَ إِمْكَـــانْ
مَا يدْرِيوُا كَيْفْ يِصَوّرُوا الكَسْرَا * أَوْكَيْف دَخلوا مدِينَة القَـــيْرَوَانْ
أَمُولاَيْ بُو الْحَسَنْ خِطِينَا الْبَابْ * بقَضِية سِيْرِنَا إِلَـــى تُونَــــسْ
فِي غِنَى كُنَّا عَنِ الجَرِيدْ وَالـــزَّابْ * وايْشْ لَكْ بِحَرَبْ إِفْرِيقْيَة التَّوْنِس
مَابلَغَكْ عن عُمَرْ بِنِ الْخَطَّـــابْ * الْفَارُوق فَاتِح الْقُرَى الْمُونِـــسْ
مَلَكْ الشَّامْ وَالحِجَازْ وَتَاجْ كِسْرَى * وَلَمْ يَفْتَحْ مِنْ إِفْرِيقِيَةْ دُكَّـــانْ
كَانْ إِذَا تذْكَرْ لُهْ كِرِهْ ذِكْـــرا * وَيْقُولْ اسْمُهَا يُفَرّق الإِخْـــوَانْ
هَذَا الفَارُوقْ زُمْرُدْ الأَكْـوَانْ * صَحّ فِي افْرِيقْيَه بِذَا التَّصْرِيـــحْ
وَبقَتْ حِمَى إِلَى زَمَنْ عُثْمَـــانْ * وَفْتَحْهَا ابنْ الزُّبَيْر عَنْ تَصْحِيـــحْ
لَمَّا دَخَلَتْ غنَا يِعَمْهَا الدِّيـوَانْ * مَاتْ عُثْمَانْ وانقَلَبْ عَلِينَا الرِّيـــحْ
وَافْتَرَقْ النَّاسْ عَلى ثَلاَثْ أُمَرَا * وَبَقَى مَا هُو السُّكُوتْ عَنُّو إِيمَـــانْ
إِذَا كَانْ ذَا فِي مُدَّة السِّبْرَرَا * إِاشْ نعمِلْ فِي أَوَاخِر الأَزْمَـــانْ
وَأَصْحَابْ الجَفْرْ فِي كُتَيْبَاتَــــا * وَفِي تَارِيخْ كَاتْبَا وَكيوَانَـــــا
تُذَكّر فِي صُحْفِهَا وَأَبْيَاتَــــا * شِقّ وَسَطِيحْ وابْـن مَرَّانَـــــا
ابنْ مَرِينْ إِذَا انْكَبّتْ بَرَايَانَـــا * لِجْدَارْ تُونِسْ فَقَدْ سَقَطْ ثمَانَـــا
قَدْ ذَكَرْنَا مَا قَالْ سَيِّد الوُزَرَا * عِيسَى بن الحَسَنْ الرَّفِيعْ الشَّـانْ
قَالْ لِي رِينَا وَأنَا بِهَا أَدْرَى * لَكِنْ إِذَا جَا القَضَا عِمتْ الأَعْيَـانْ
وِيقُولْ لَكْ مَا رَمَى المَرِينِيَّـــا * مِنْ حَضْرَةْ فَاسْ إِلَى عَرَبْ دِيَــابْ
رَادْ المَوْلَى يِمُوتْ أَبُو يَحْيَــــى * سُلْطَانْ تُونِسْ وَصَاحِب العَنَّـابْ
وَلَقَدْ كَانْ قَبْل ذَا الانْبِيَـــــا * جَعَلْ اوْلاَدْ أَبُو الحَسَنْ انْسَابْ



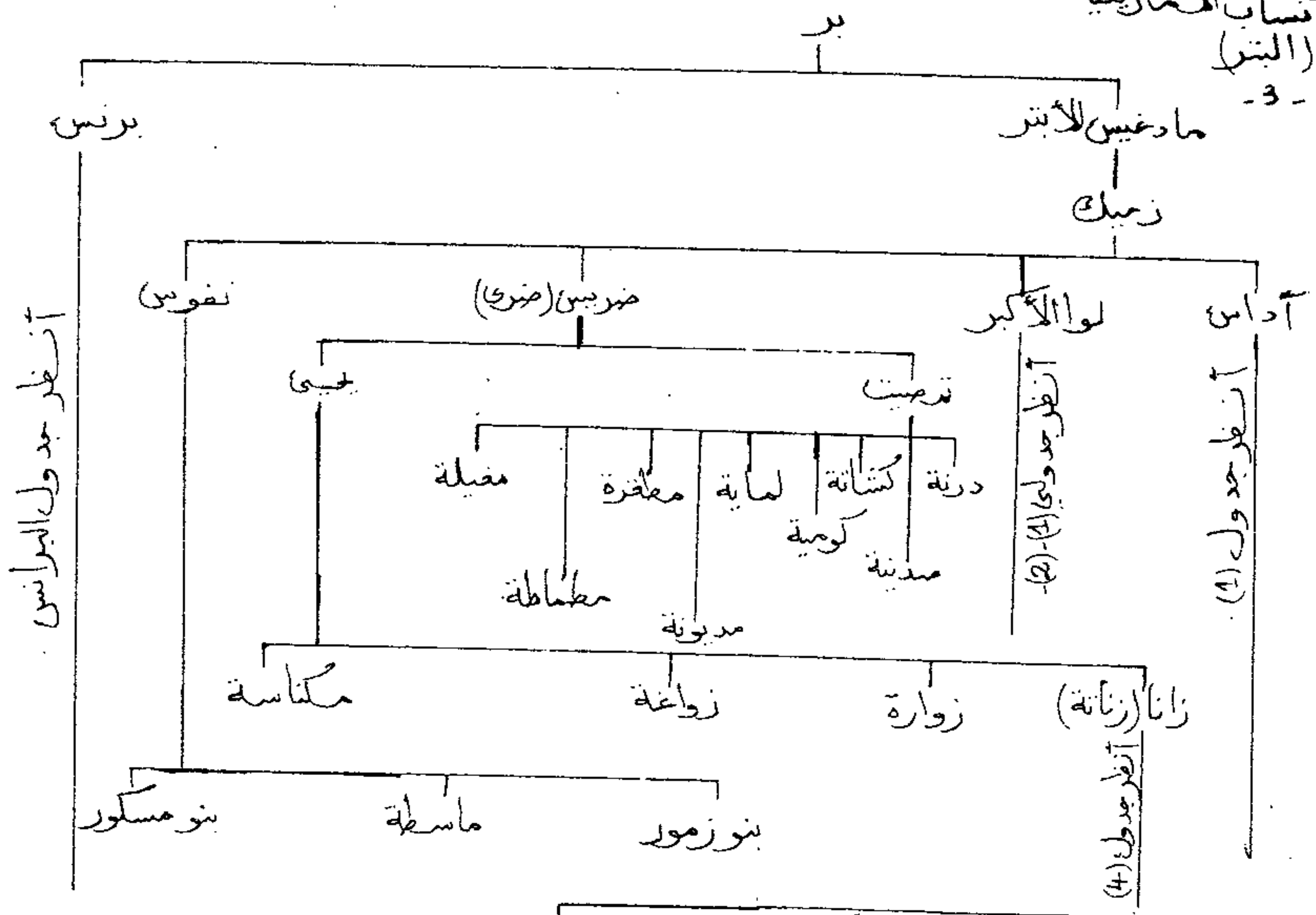
عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور.

الأنساب الأمازيغية
(البتر)
- 2 -

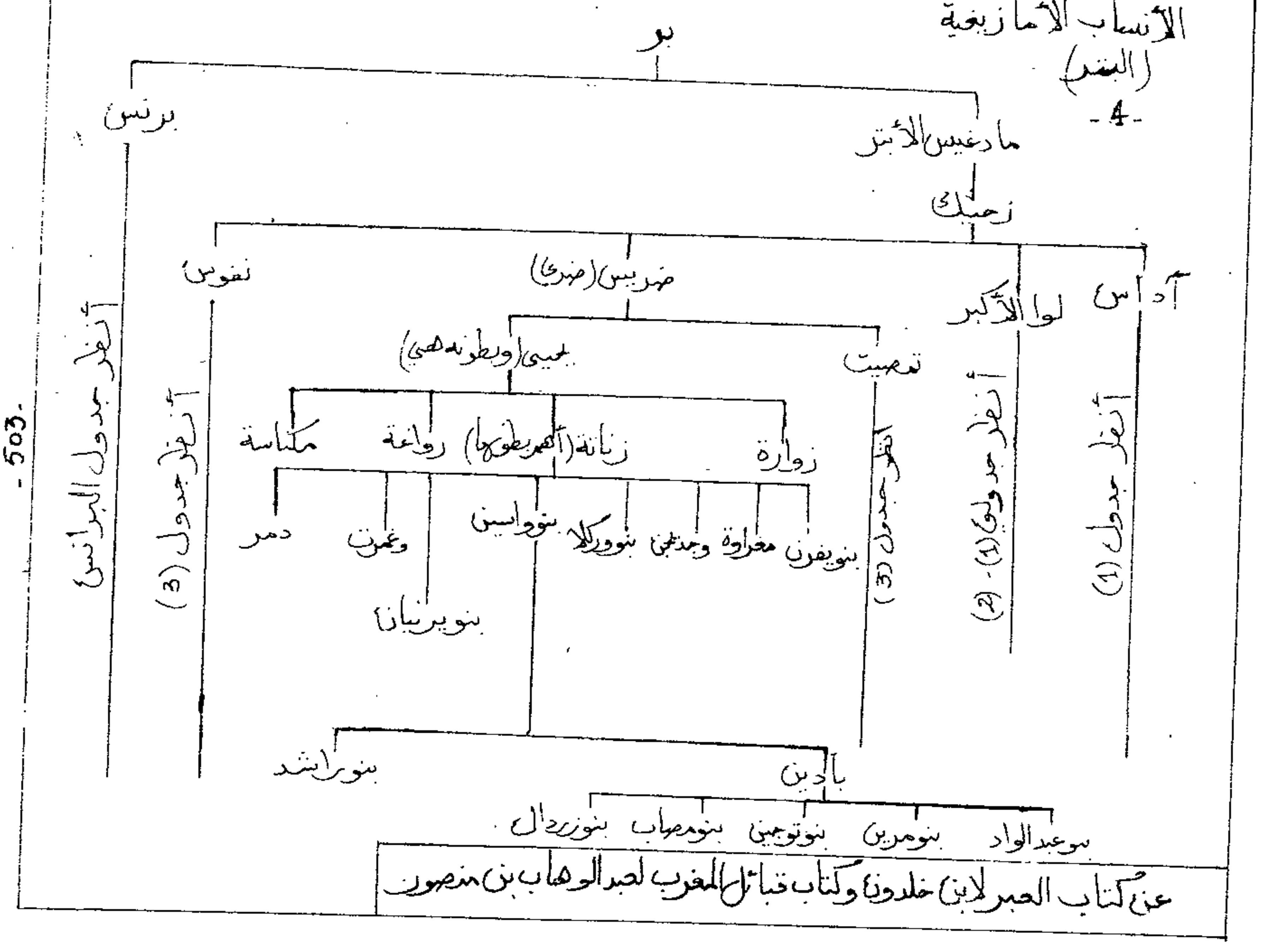


عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب
لعبد الوهاب بن منصور

الأنساب الأمازيغية
(البتر)
-3-

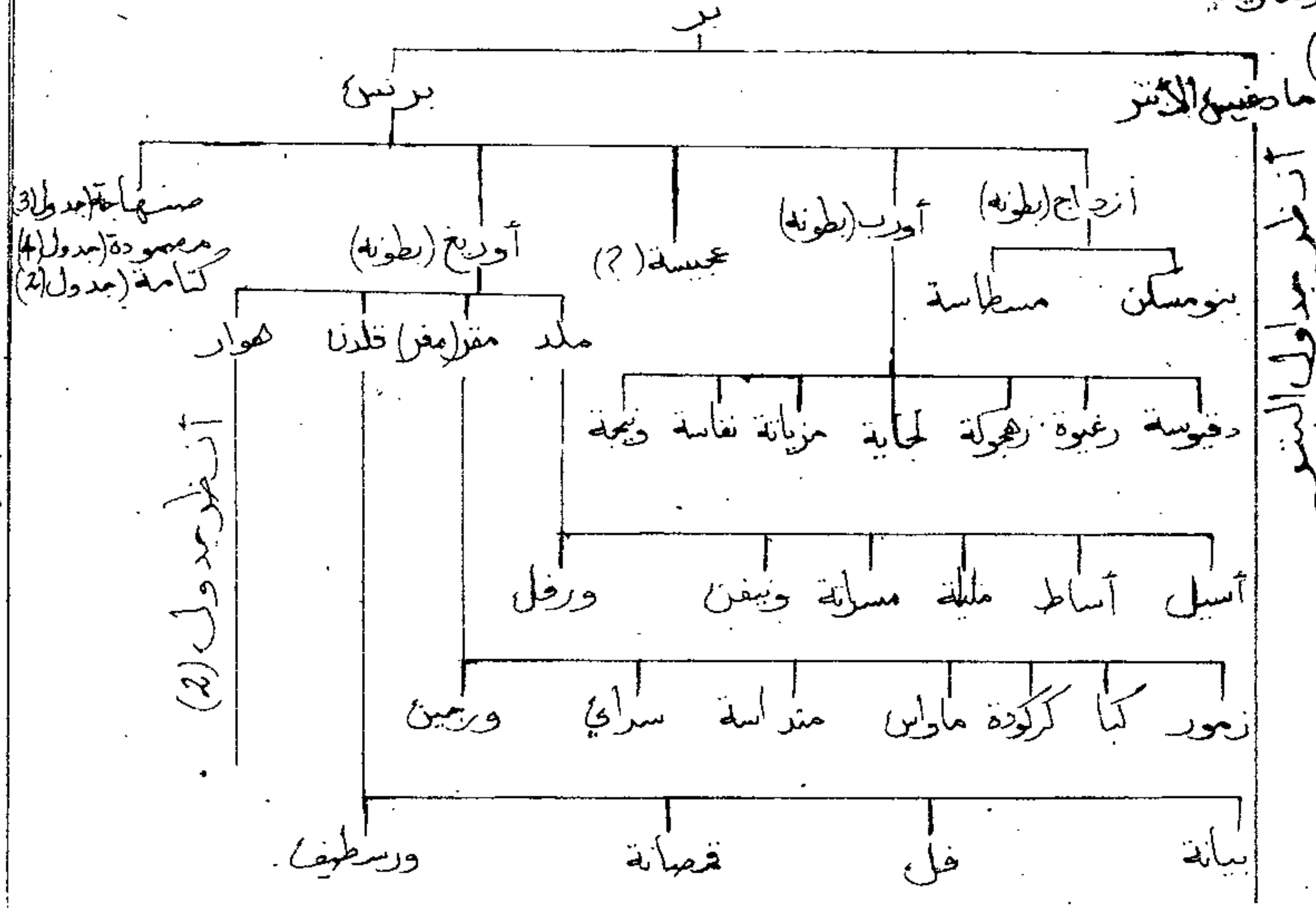


عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور-


الأنساب الأمازيغية
(البتر)
- 4 -
بر
برنس
أنظر جدول البرانس
ما دغيس الأبتر
زحيك
نفوس
أنظر جدول (3)
ضريس (ضرى)
لوا الأكبر
أنظر جدولي (1) - (2)
أداس
أنظر جدول (1)
يحيى (وبطونه هي)
نفصيت
أنظر جدول (3)
مكناسة
زواغة
زناتة (أكبر بطونها)
زوارة
دمر
وغمرت
بنو برنيان
بنو واسين
بنو وركلا
وجديجن
مغراوة
بنو يفرن
بنو راشد
بادين
بنو زردال
بنو مصاب
بنو توجين
بنو مرين
بنو عبد الواد
عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور

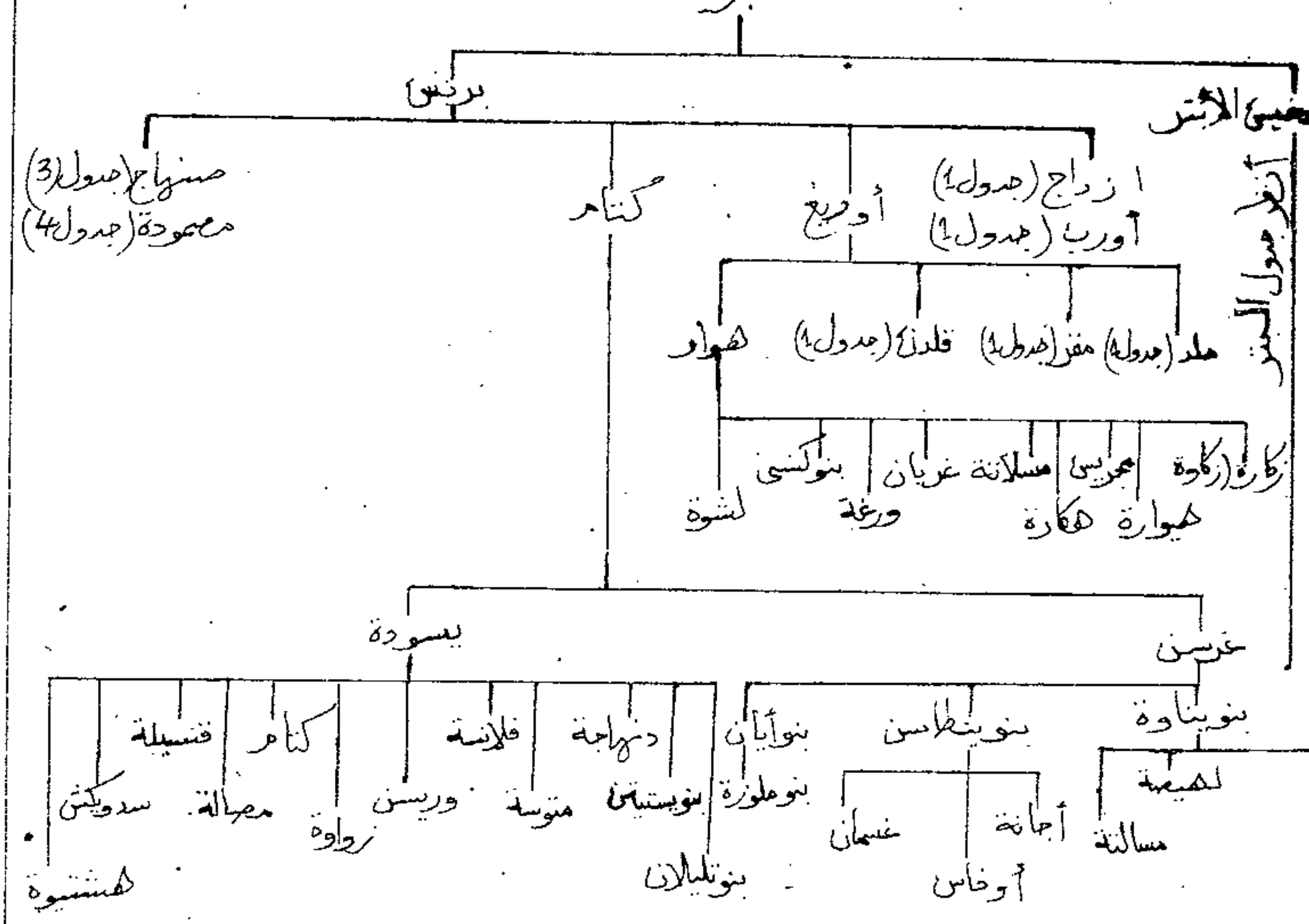
الأنساب الأمازيغية (البرانس)

1.

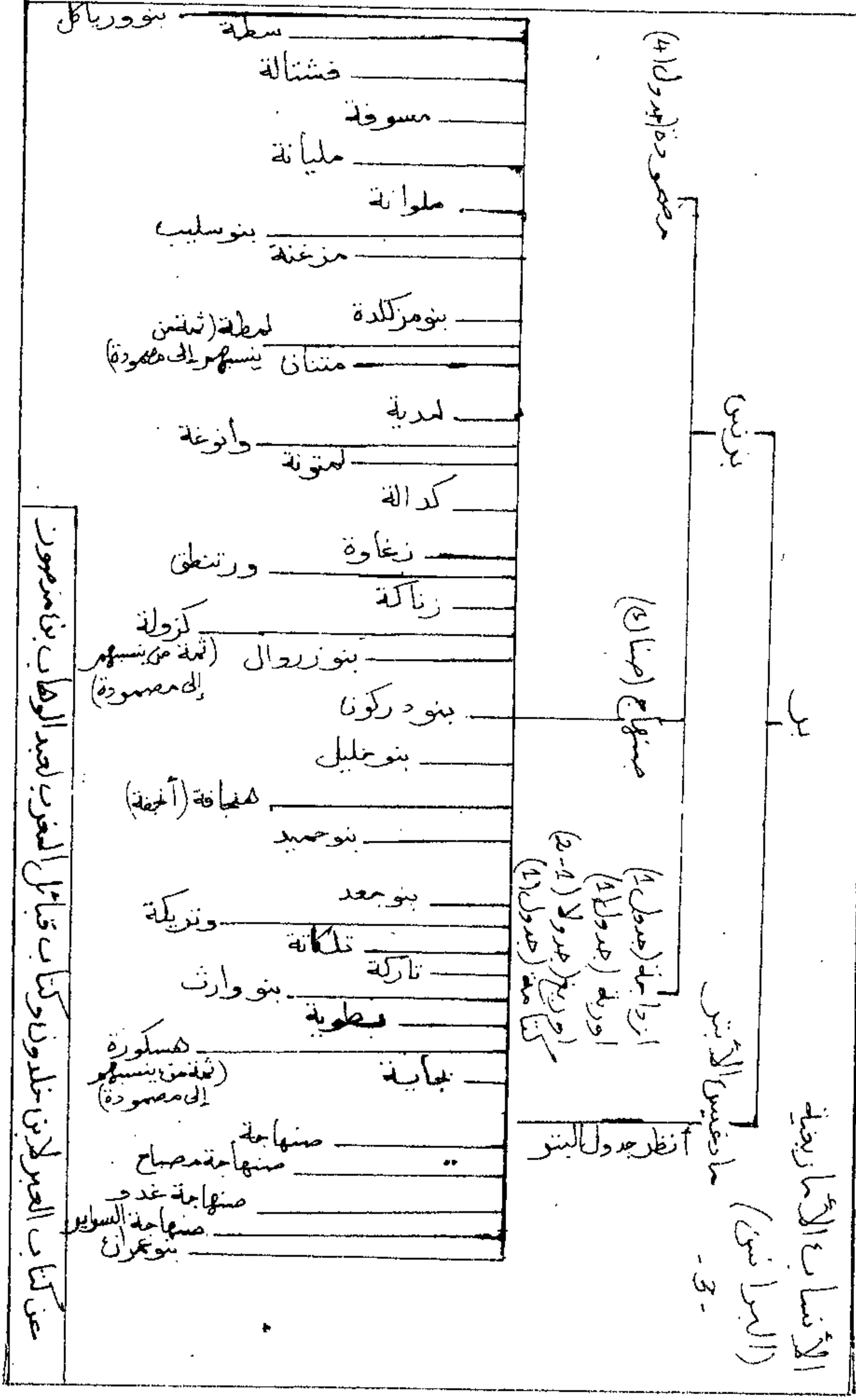


عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور.

الأنساب الأمازيغية (البرانس) -2-



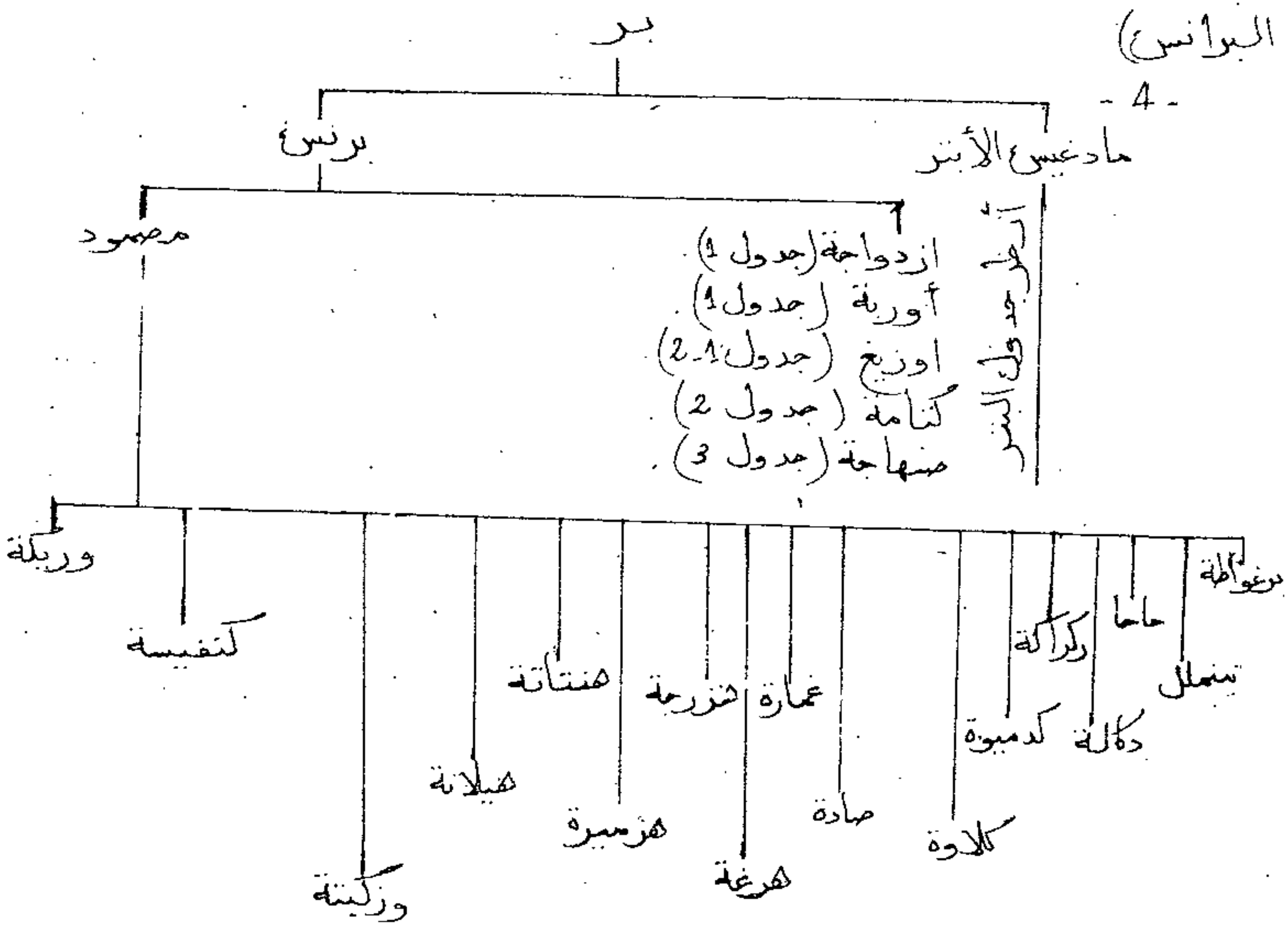
عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور.


الأنساب الإجمالية لزناتة (البرانس) -3-
برنس
مصمودة (جدول 4)
صنهاج (جدول 3)
ازداجة (جدول 1)
اوربة (جدول 1)
اوريغة (جدول 1-2)
كتامة (جدول 1)
عجيسة الأبتر
أنظر جدول البتر
بنو ورياكل
سطة
فشتالة
مسوفة
مليانة
ملوانة
بنو سليب
مزغنة
بنو مزكلدة
لمطة (ثمة من ينسبهم إلى مصمودة)
متنان
لمدية
وانوغة
لمتونة
كدالة
زغاوة
ورتنطق
زناكة
كزولة
بنو زروال (ثمة من ينسبهم إلى مصمودة)
بنو دركونا
بنو خليل
هجافة (آخجفة)
بنو حميد
بنو جعد
وتزيكة
تلكاتة
تاركة
بنو وارث
بطوية
هسكورة (ثمة من ينسبهم إلى مصمودة)
لجاية
صنهاجة
صنهاجة مصباح
صنهاجة غدو
صنهاجة السوايير
بنو عمران
عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور

الأنساب الأمازيغية

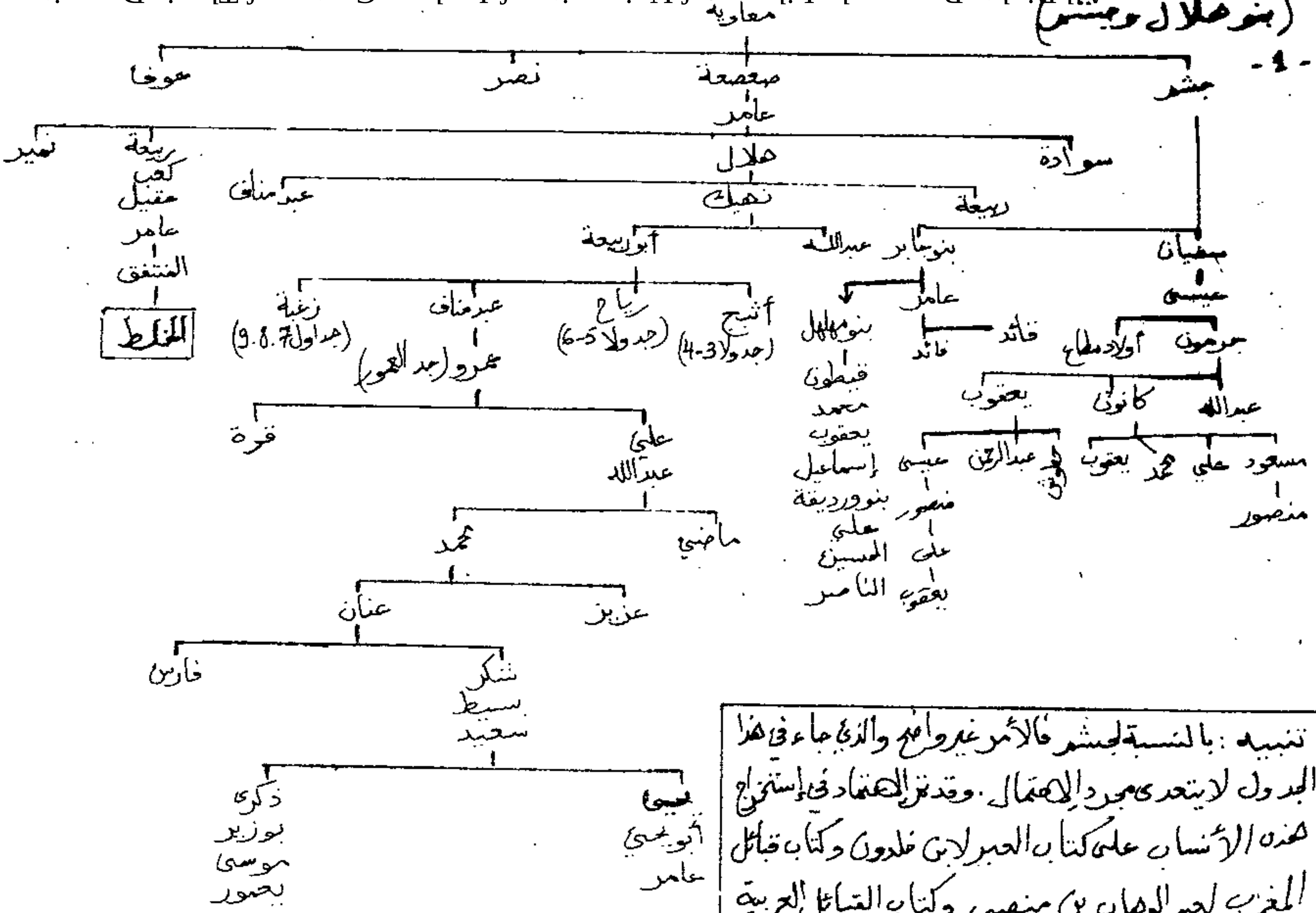
(البرانس)

- 4 -



عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور

-1- (بنو هلال وجشم)

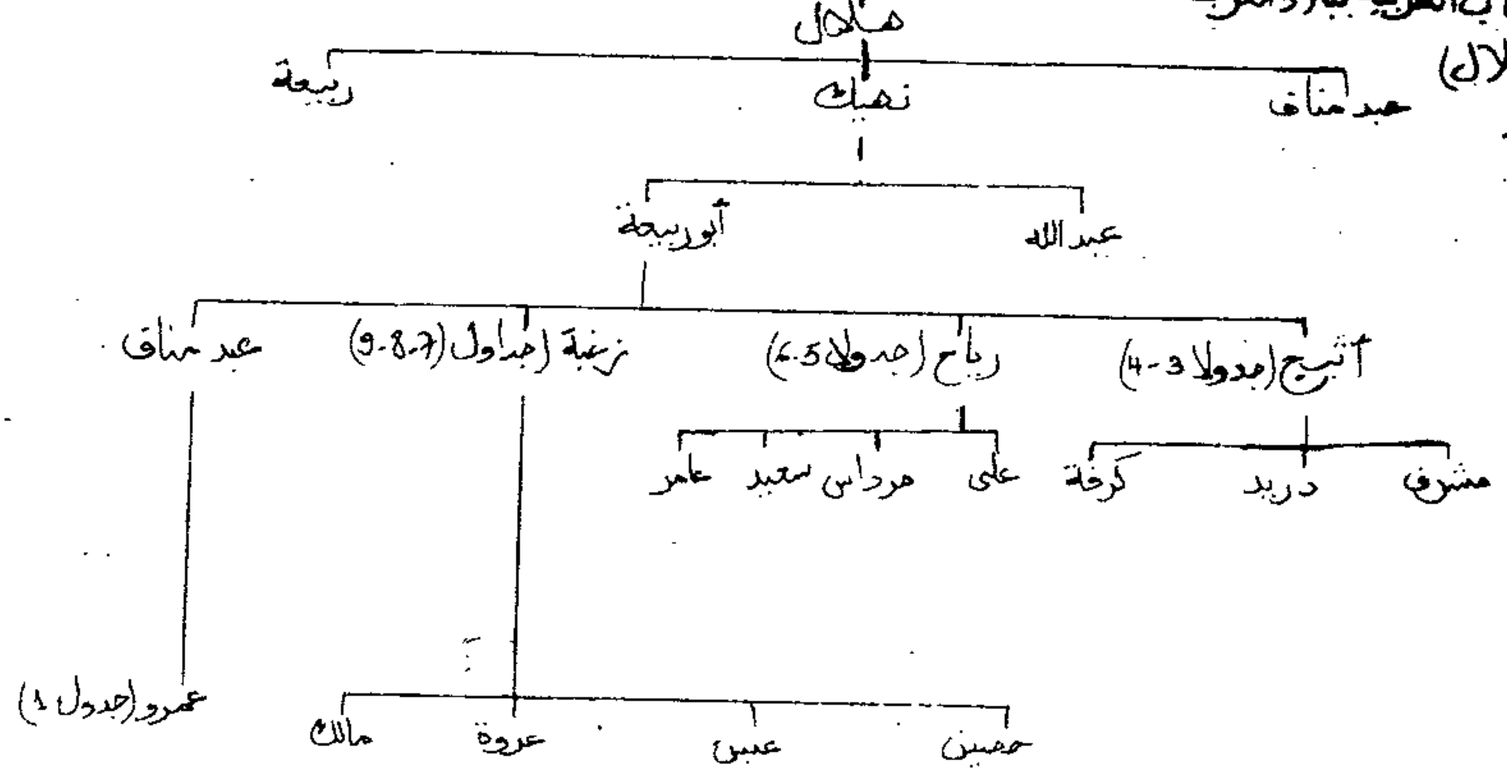


تنبيه : بالنسبة لجشم فالأمر غير واضح والذي جاء في هذا الجدول لا يتعدى مجرد الإحتمال. وقد تم الإعتماد في إستخراج هذه الأنساب على كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور وكتاب القبائل العربية في المغرب لمصطفى أبي ضيف.

الأنساب العربية ببلاد المغرب

(بنو هلال)

-2-

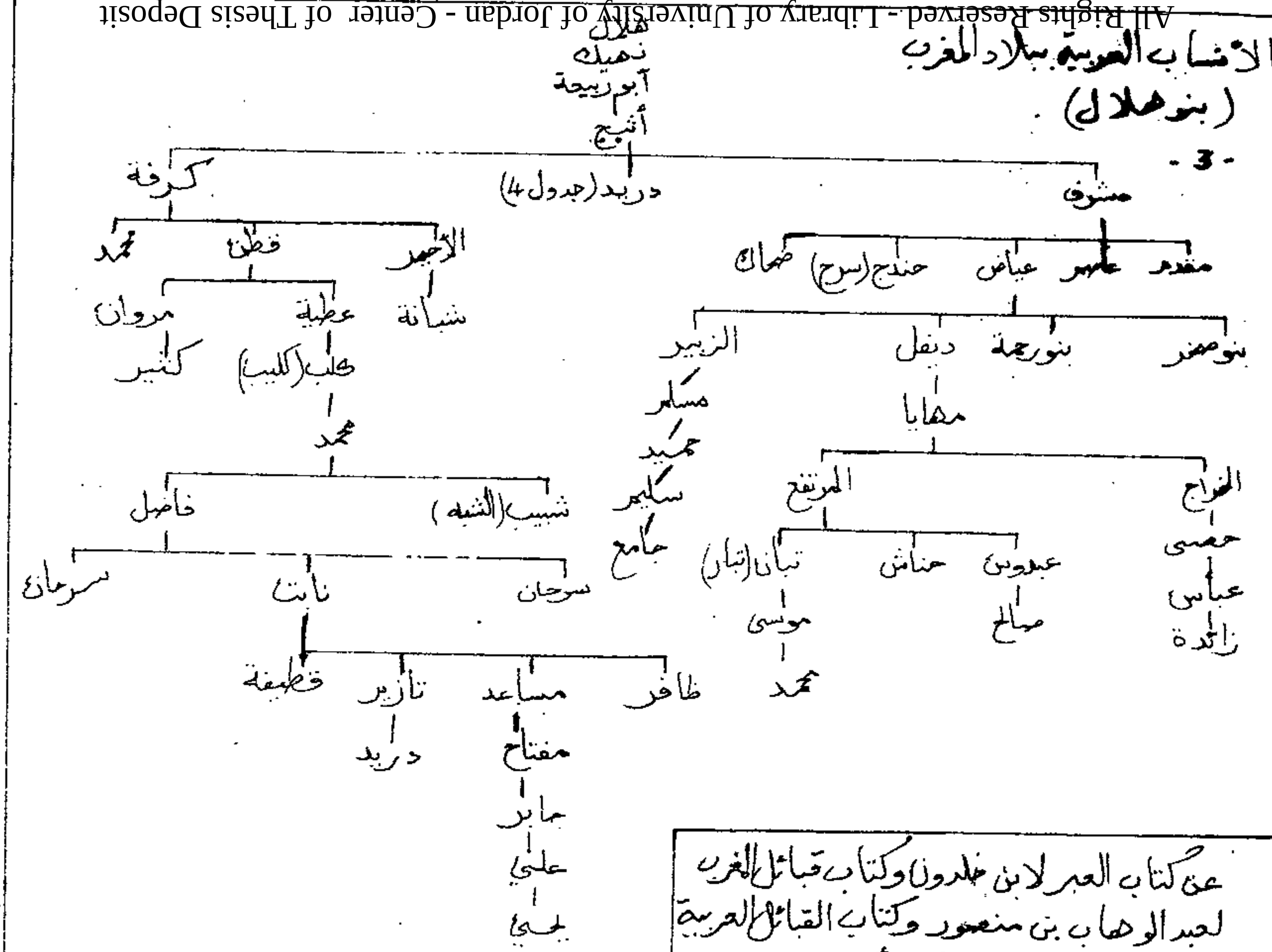


عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور وكتاب القبائل العربية في المغرب لمصطفى أبو ضيف.

الأنساب العربية ببلاد المغرب

(بنو هلال)

- 3 -

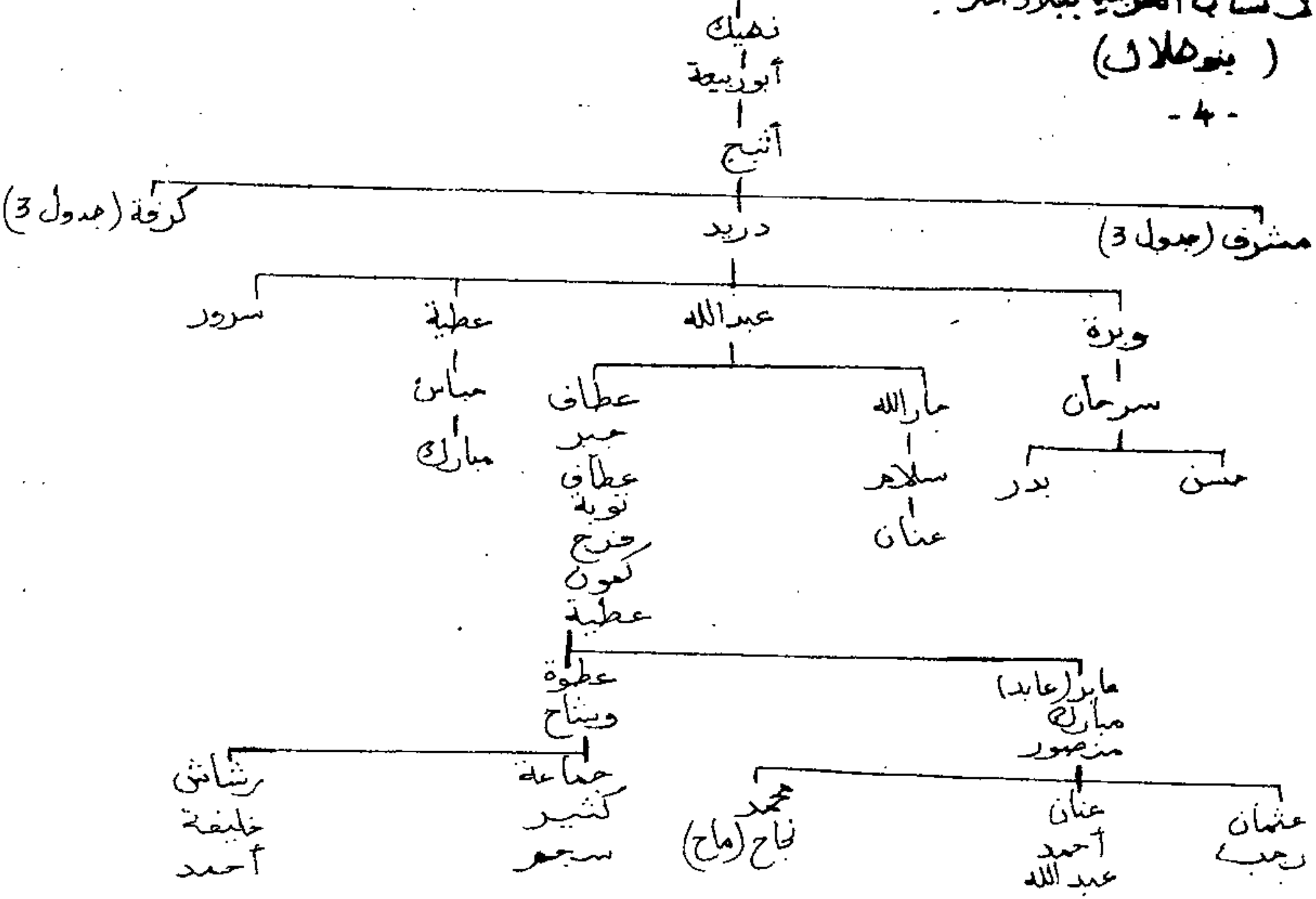


عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور وكتاب القبائل العربية في المغرب لمصطفى أبو ضيف.

الأنساب العربية ببلاد المغرب

(بنو هلال)

- 4 -

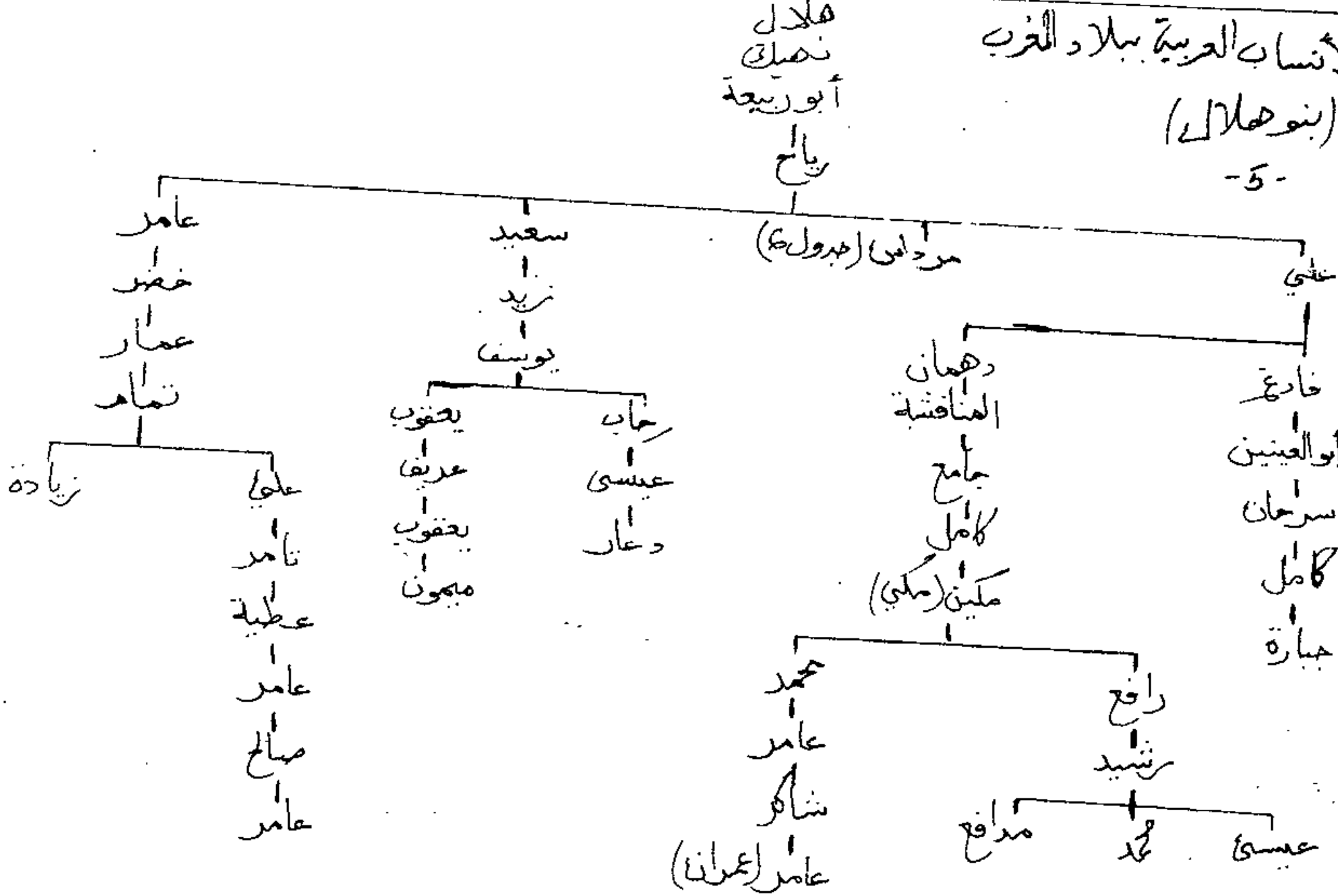


عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور وكتاب القبائل العربية في المغرب لمصطفى أبي ضيف .

الأنساب العربية ببلاد المغرب

(بنو هلال)

- 5 -

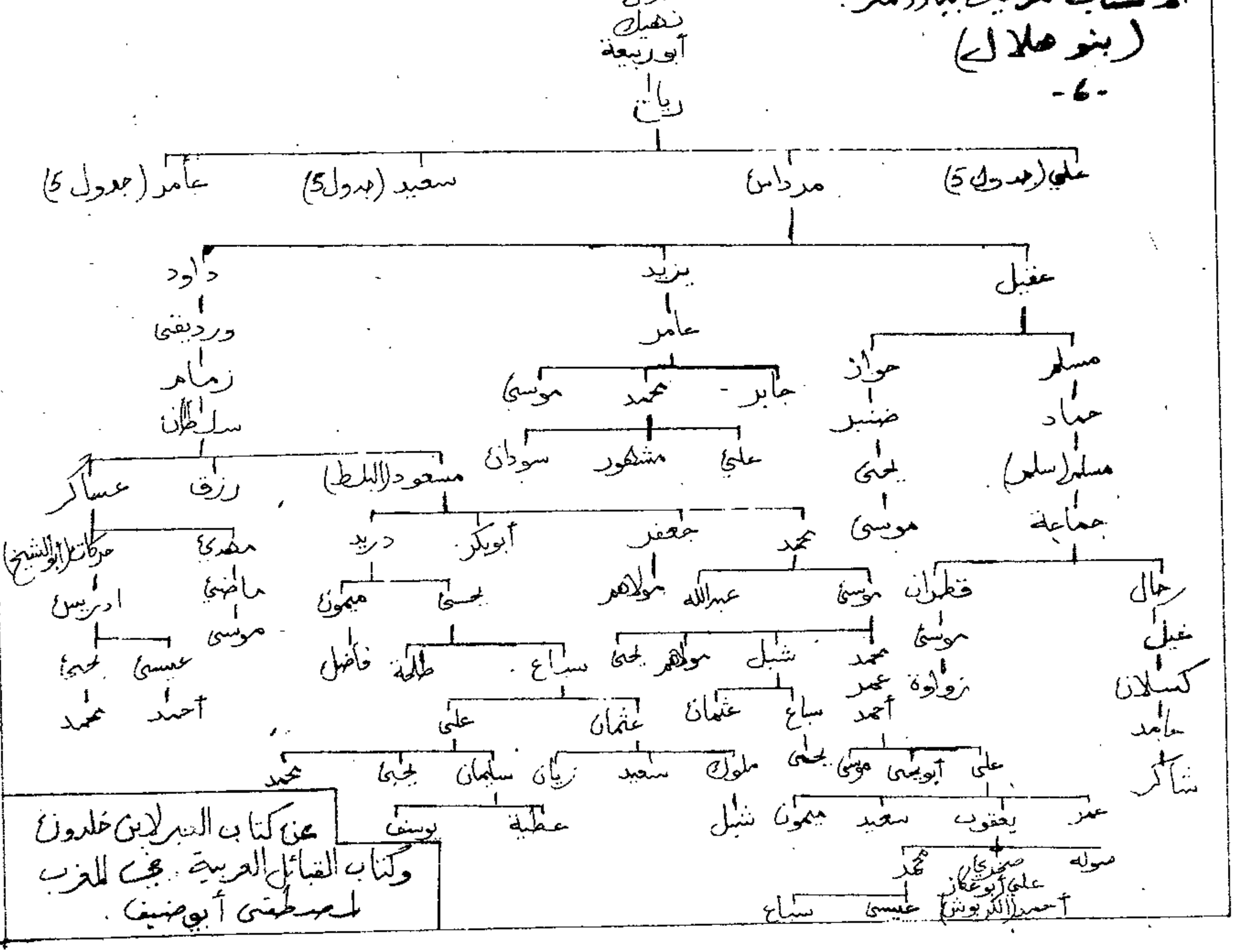


عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب القبائل العربية في المغرب لمصطفى أبو ضيف.

الأنساب العربية ببلاد المغرب

(بنو هلال)

-6-

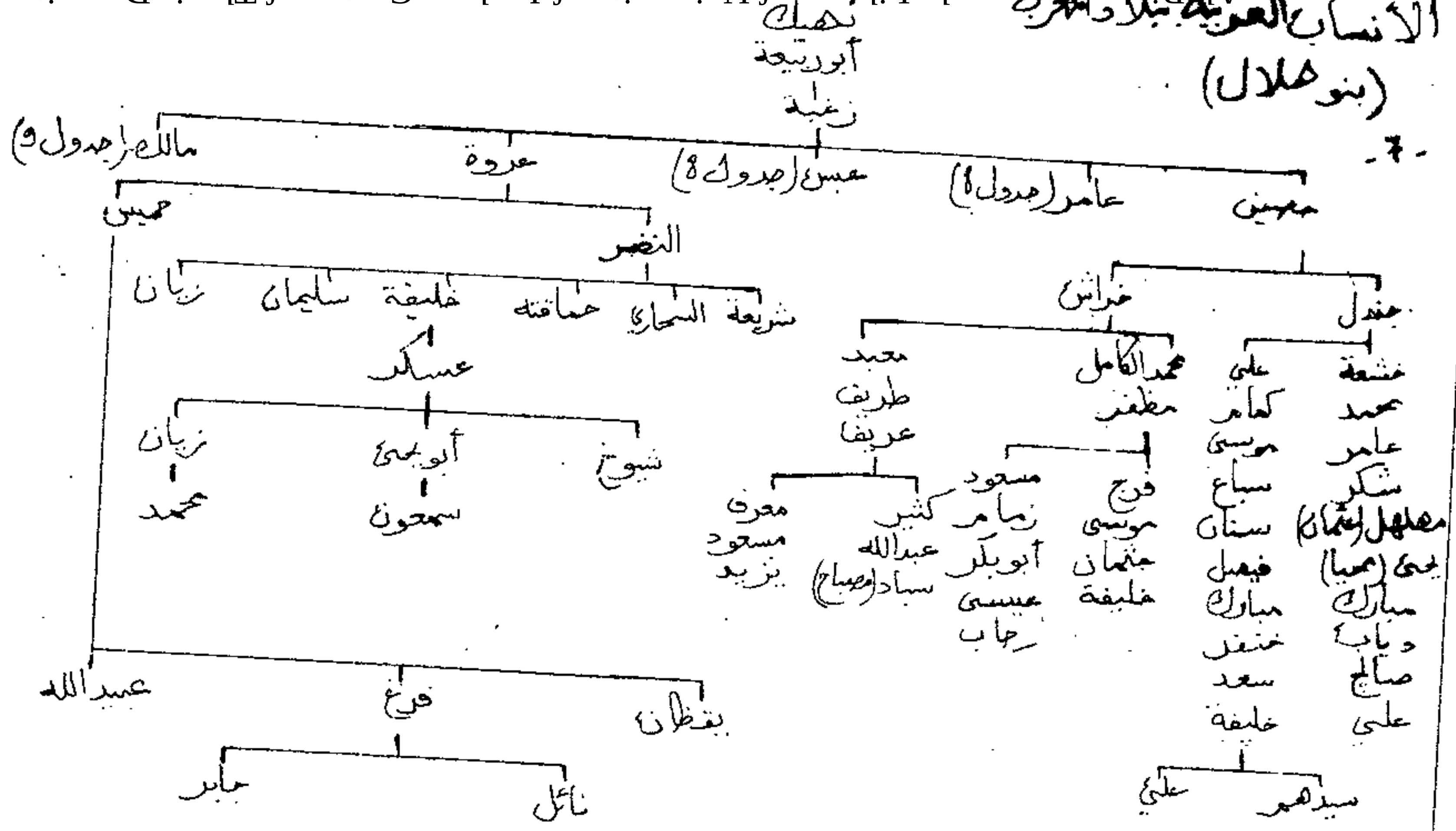


عن كتاب العبر لابن خلدون
وكتاب القبائل العربية في المغرب
لمصطفى أبو ضيف.

الأنساب العربية ببلاد المغرب

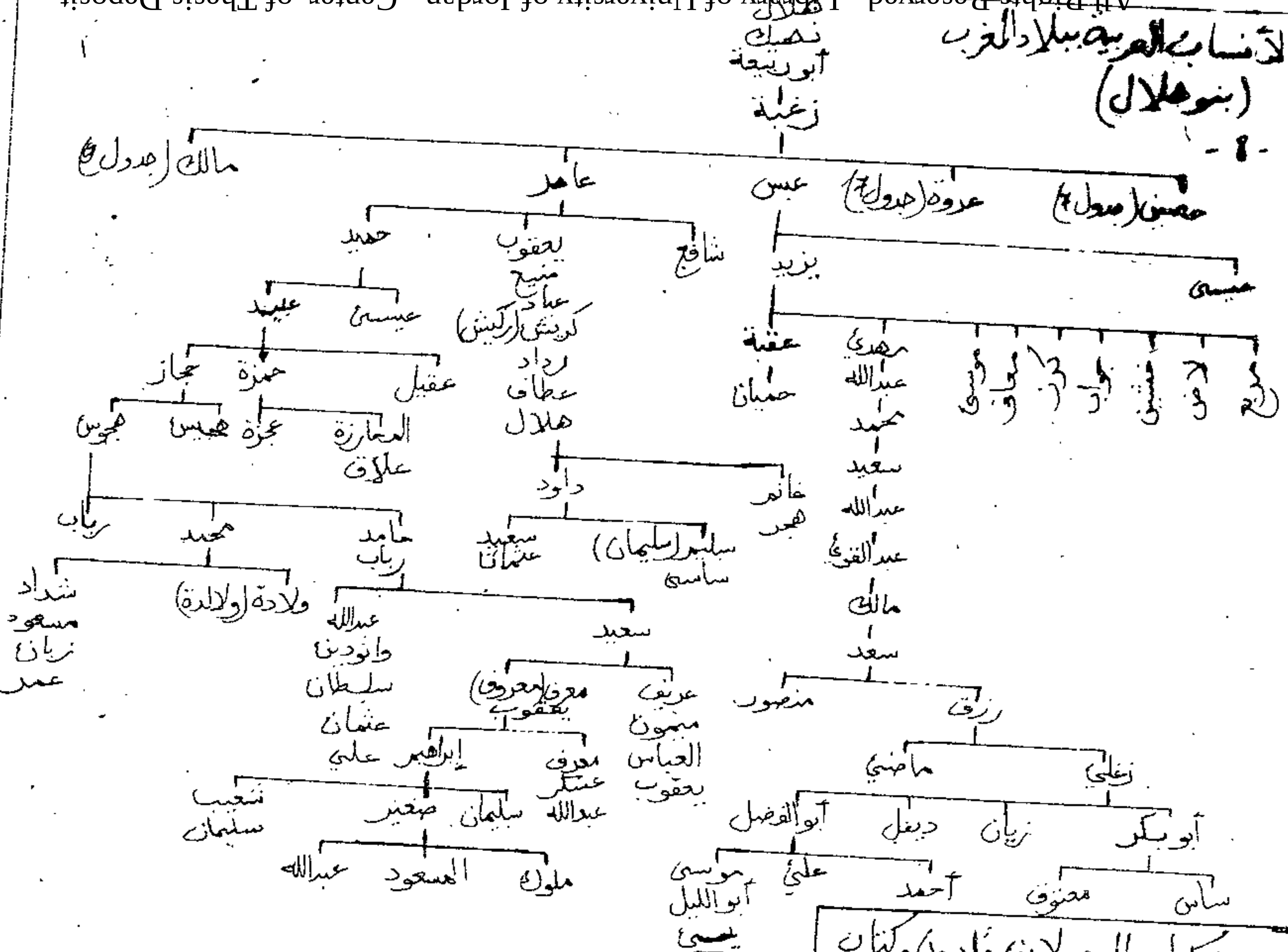
(بنو هلال)

- 7 -



عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب القبائل العربية في المغرب لمصطفى أبو ضيف.

الأنساب العربية ببلاد المغرب
(بنو هلال)
- ٨ -

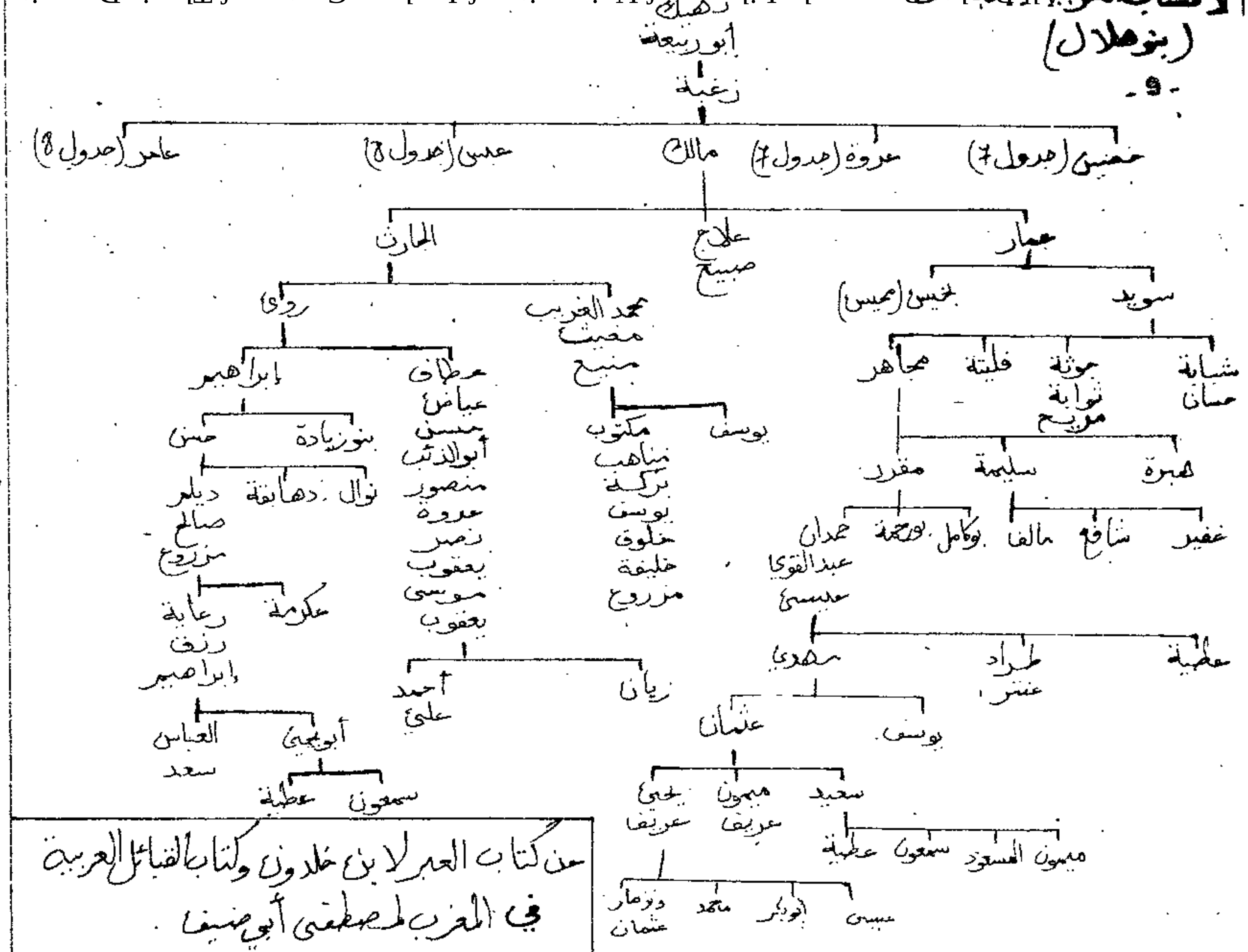


عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب
القبائل العربية في المغرب لمصطفى أبو ضيف

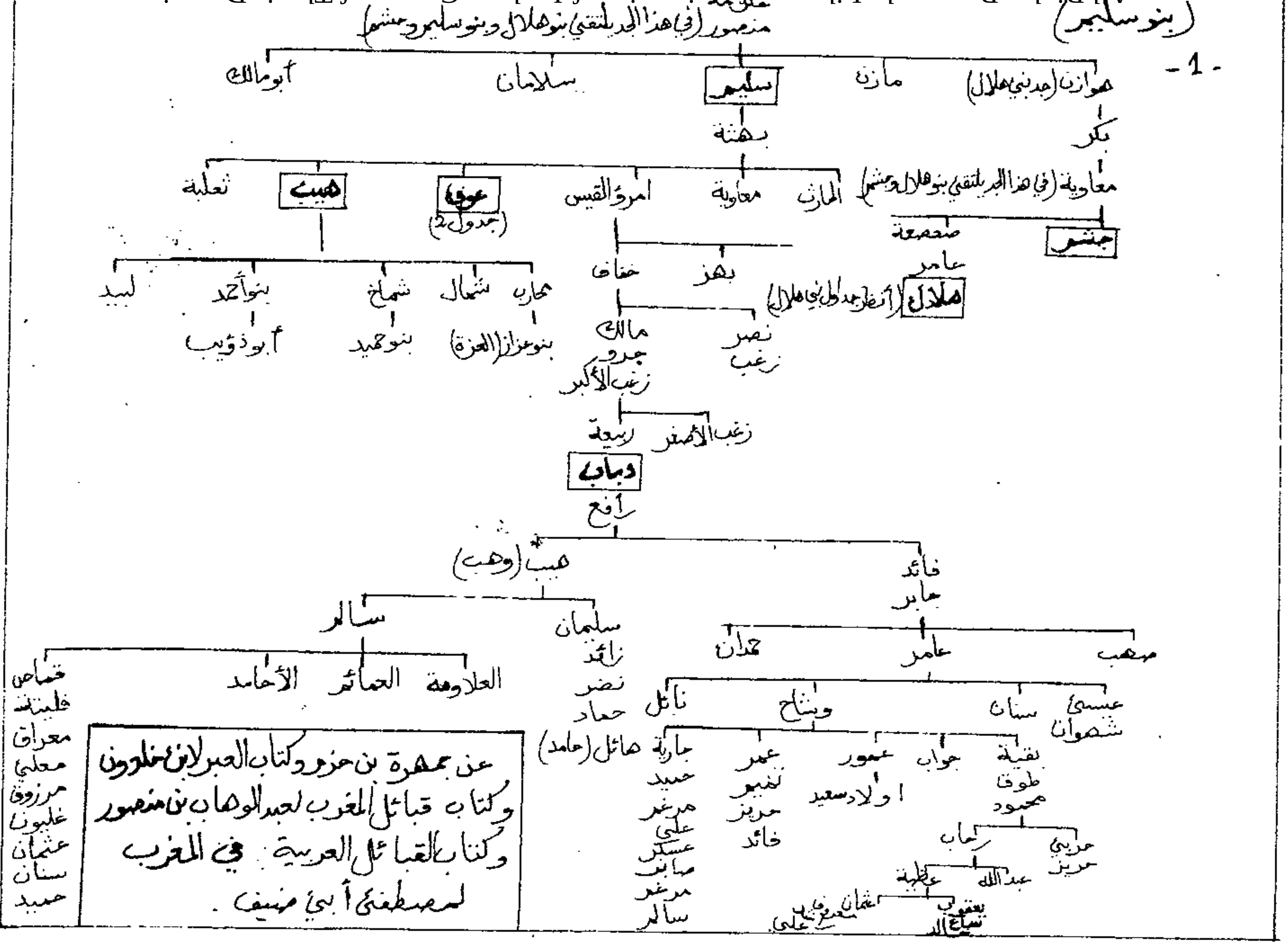
الأنساب العربية

(بنو هلال)

- 9 -

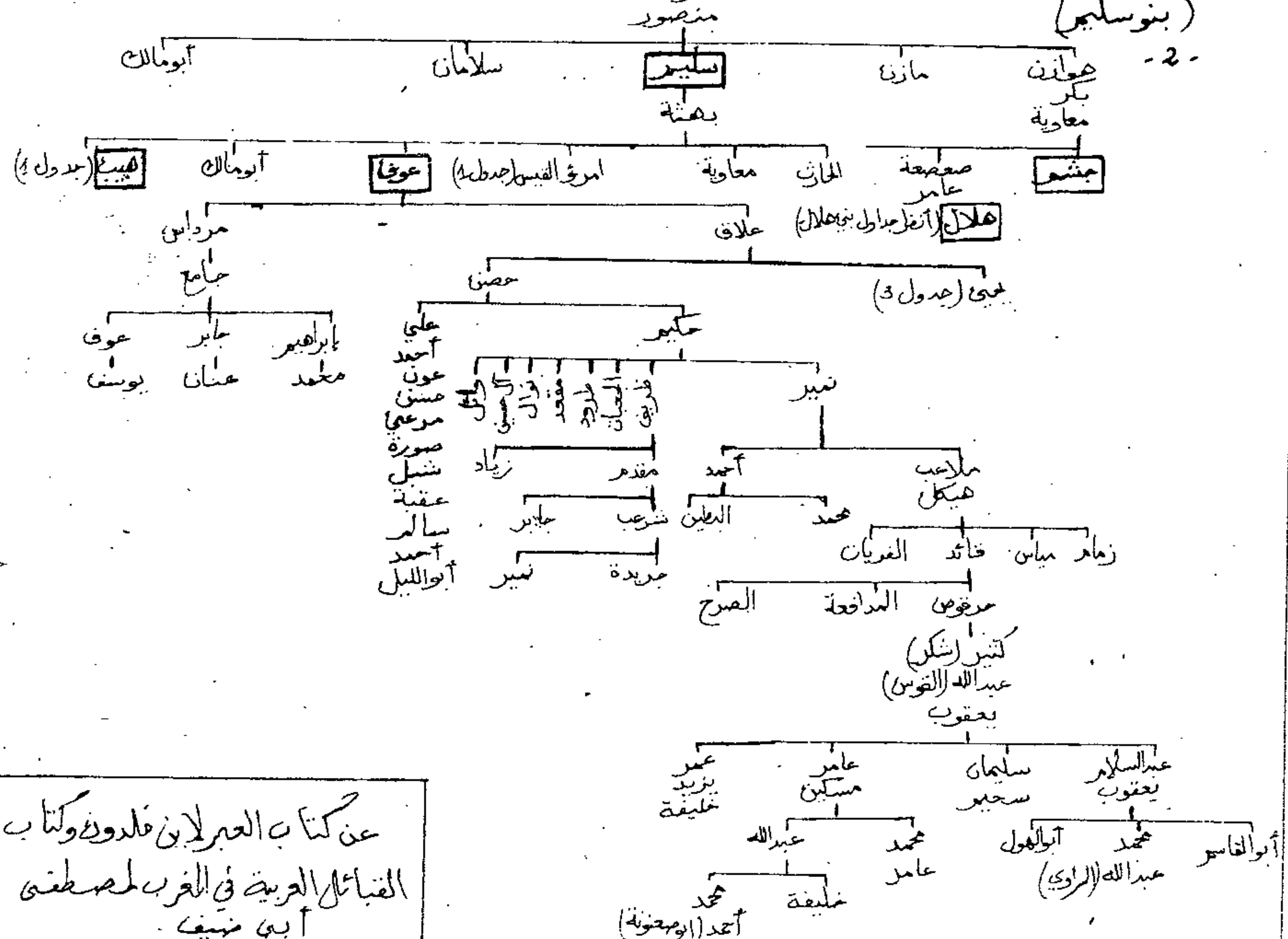


من كتاب العبر لابن خلدون وكتاب القبائل العربية في المغرب لمصطفى أبو ضيف .

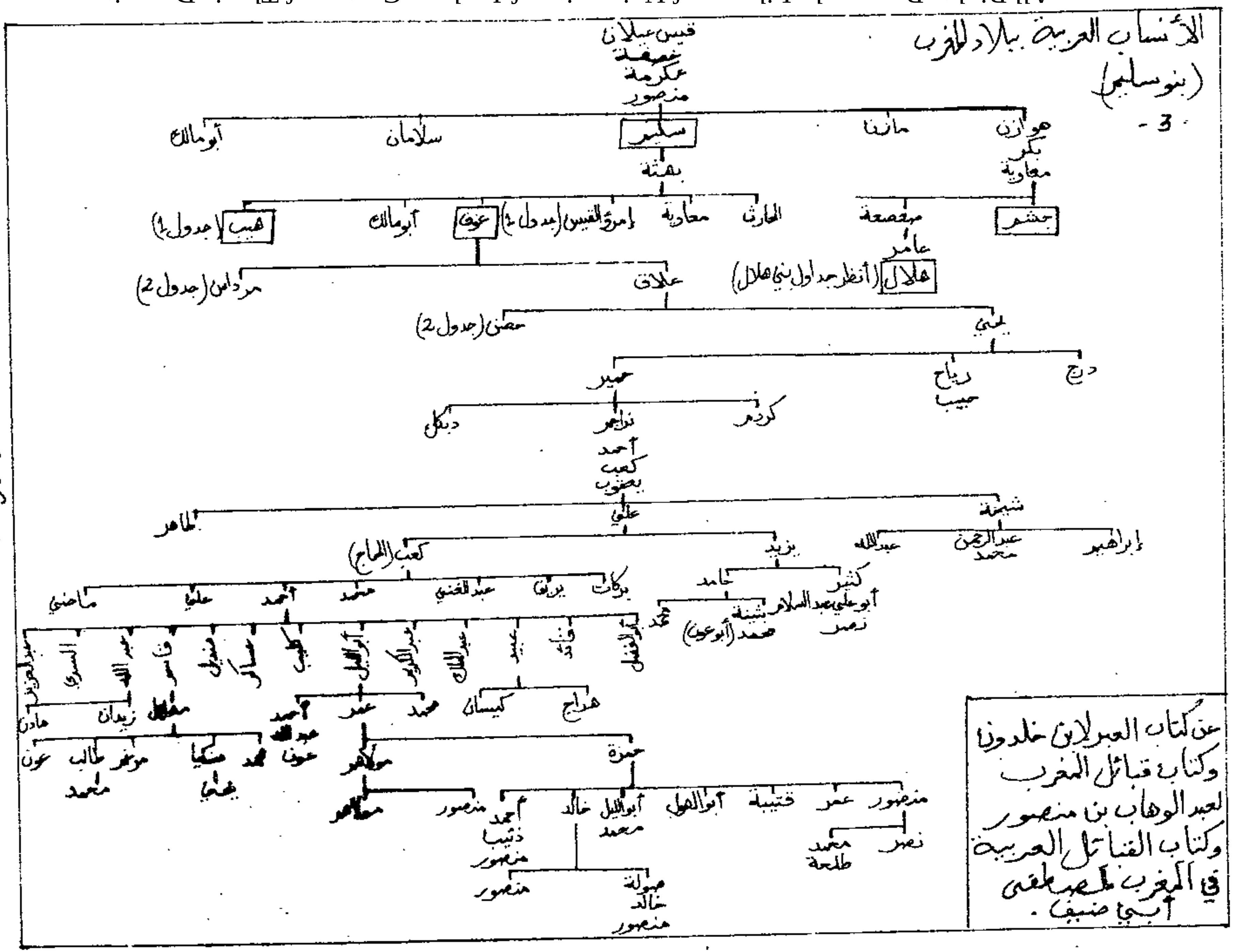

(بنو سليم)
منصور (في هذا الجد يلتقي بنو هلال وبنو سليم وجشم)
هوازن (جد بني هلال)
مازن
سليم
سلامان
أبو مالك
بكر
بهثة
معاوية (في هذا الجد يلتقي بنو هلال وجشم)
الحارث
معاوية
امرؤ القيس
عوف (جدول 2)
هيب
ثعلبة
جشم
صعصعة
عامر
هلال (أنظر جدول بني هلال)
بهز
خفاف
نصر
زغب
مالك
جرو
زغب الأكبر
زغب الأصغر
ربيعة
دباب
رافع
محارب
شمال
شماخ
بنو أحمد
لبيد
بنو عزاز (العزة)
بنو حميد
أبو ذؤيب
فائد
جابر
هيب (وهب)
سلمان
زائد
نصر
حماد
سالم
العلاونة
الحمائم
الأحامد
مهذب
عامر
حمدان
عيسى
شعوان
سنان
وشاح
نائل
نفيلة
طوقا
محمود
حوبي
حريز
رحاب
عبد الله
عطية
يعقوب
شياع الله
غنمان وفايد
معيز علي
جواب
عمور
أولاد سعيد
عمر
نمير
حريز
خائد
جارية
حميد
مرغم
علي
عسكر
صابر
مرغم
سالم
هائل (حامد)
خماص
خليفة
معراق
معلى
مرزوق
غلبون
عثمان
سنان
حميد
عن جمهرة ابن حزم وكتاب العبر لابن خلدون
وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور
وكتاب القبائل العربية في المغرب
لمصطفى أبي ضيف .

- 2 -

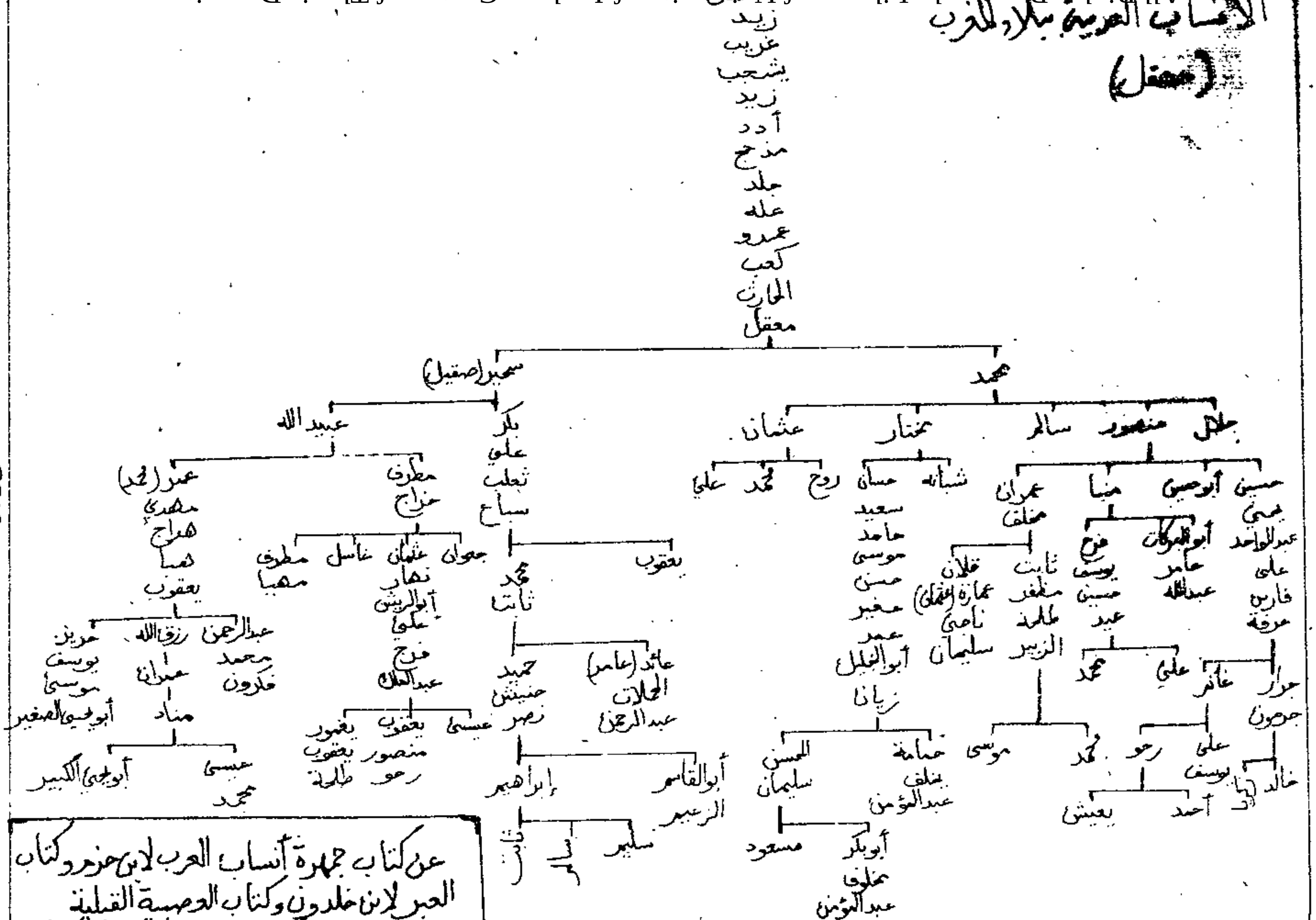
(بنو سليم)



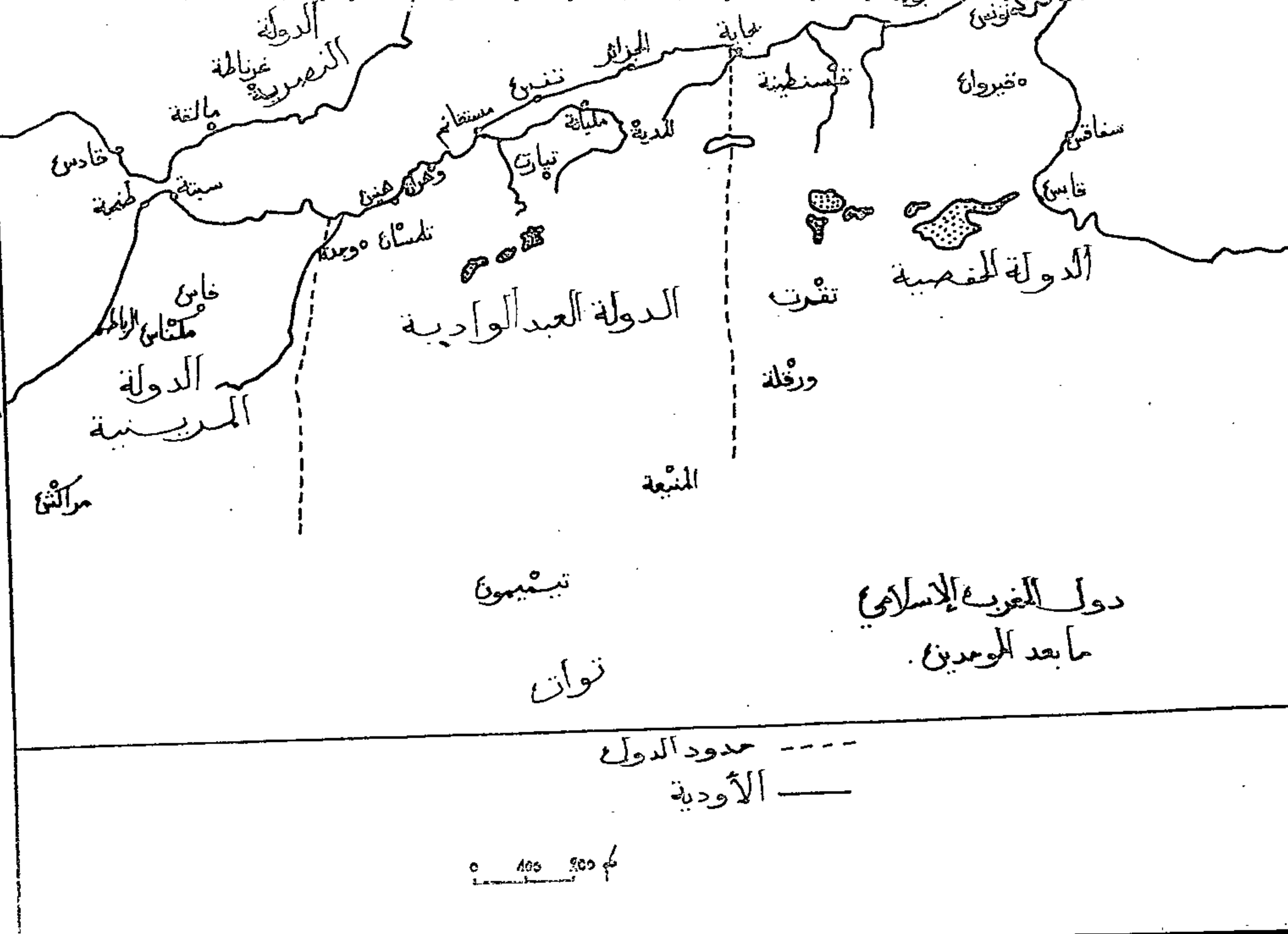
عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب القبائل العربية في المغرب لمصطفى أبي ضيف

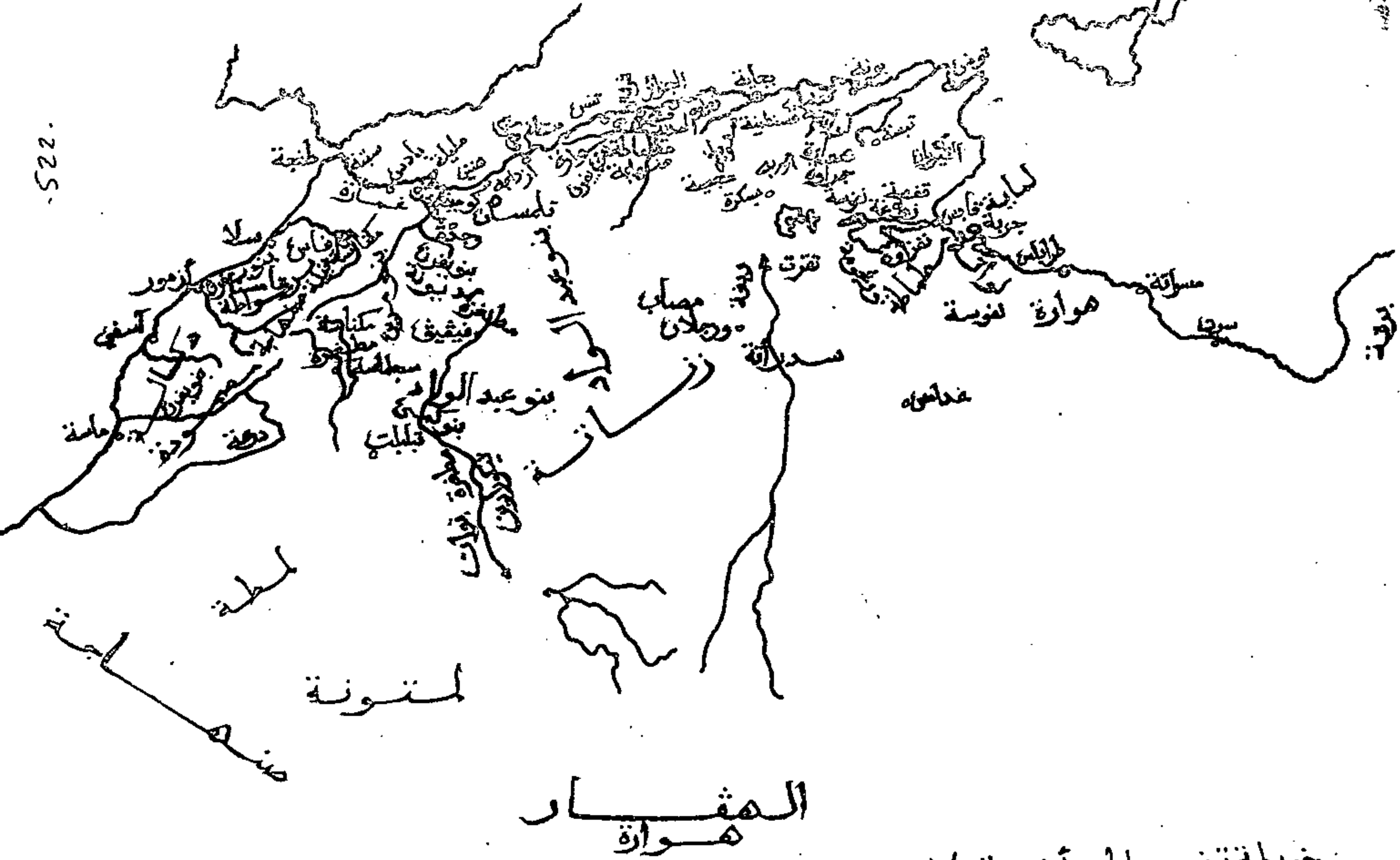

الأنساب العربية ببلاد المغرب
(بنو سليم)
- 3 -
قيس عيلان
خصفة
عكرمة
منصور
هوازن
بكر
معاوية
مازن
سليم
سلامان
أبو مالك
بهثة
جشم
صعصعة
عامر
هلال (أنظر جداول بني هلال)
الحارث
معاوية
امرؤ القيس (جدول 1)
عوف
أبو مالك
هيب (جدول 1)
علاق
مرداس (جدول 2)
يحيى
حصن (جدول 2)
دج
رياح
حبيب
حمير
كردم
نزاجو
دبكل
أحمد
كعب
يعقوب
شبيبة
علي
الماهر
إبراهيم
عبد الرحمن
محمد
عبد الله
يزيد
كعب (الماج)
كثير
حامد
أبو علي
عبد السلام
شيبة
محمد (أبو عون)
نصر
محمد
بركات
بريق
عبد الغني
محمد
أحمد
علي
ماضي
عبد العزيز
السري
عبد الله
فاسر
منديل
عساكر
كليب
أبو الليل
عبد الكريم
عبد الملك
عبيد
فائد
أبو الفضل
هادن
زيدان
عمر
محمد
كيسان
هراج
عون
طالب
محمد
مرغم
حمزة
منصور
عمر
قتيبة
أبو الهول
أبو الليل
محمد
خالد
أحمد
ذئيب
منصور
نصر
محمد
طلحة
صولة
خالد
منصور
منصور
عن كتاب العبر لابن خلدون وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور وكتاب القبائل العربية في المغرب لمصطفى أبي ضيف.

الأنساب العربية ببلاد المغرب
(معقل)

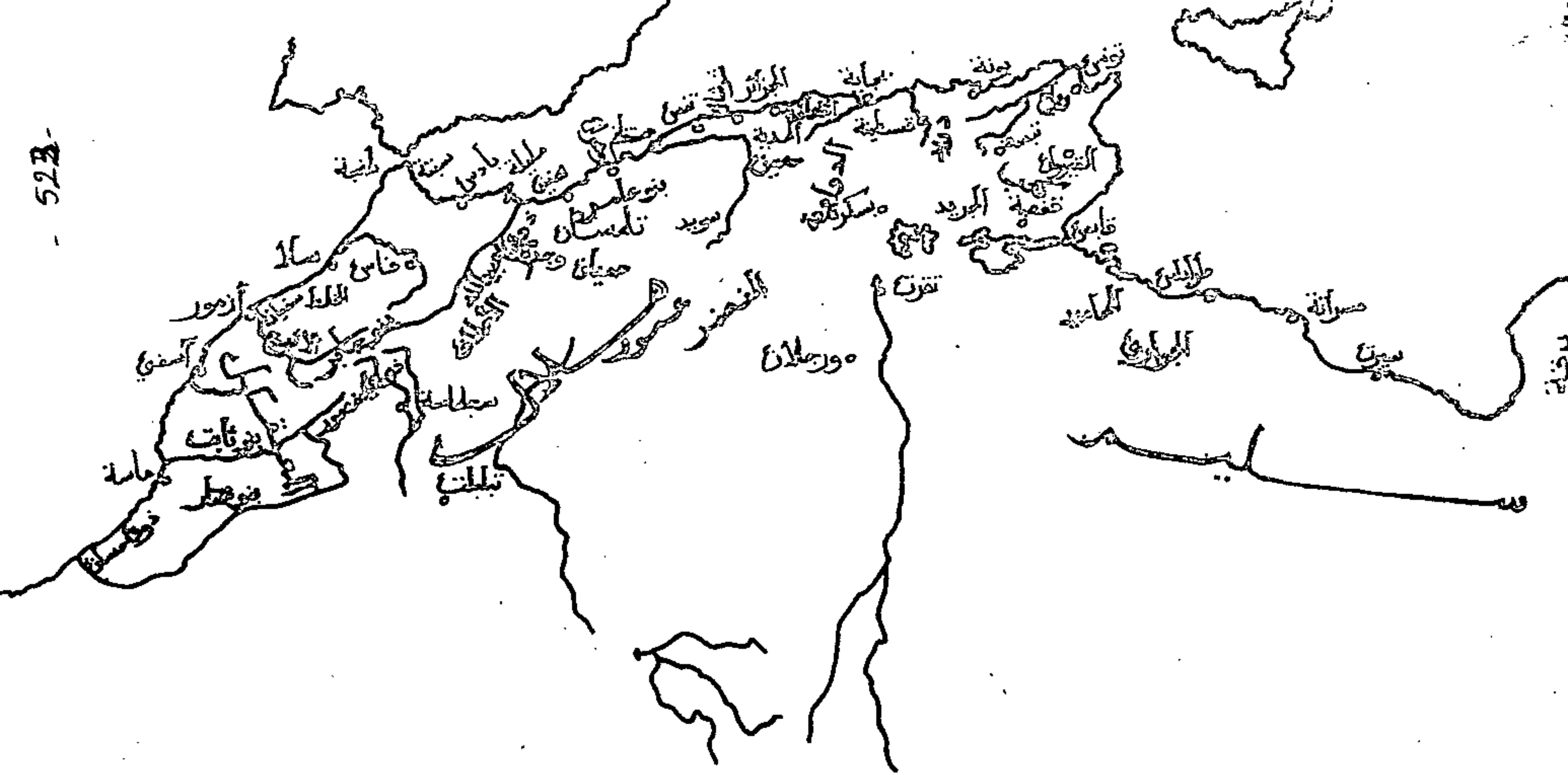


عن كتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم وكتاب العبر لابن خلدون وكتاب الدوحة القبلية لإحسان النص، وكتاب قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور وكتاب القبائل العربية في المغرب لمصطفى أبي ضيف.

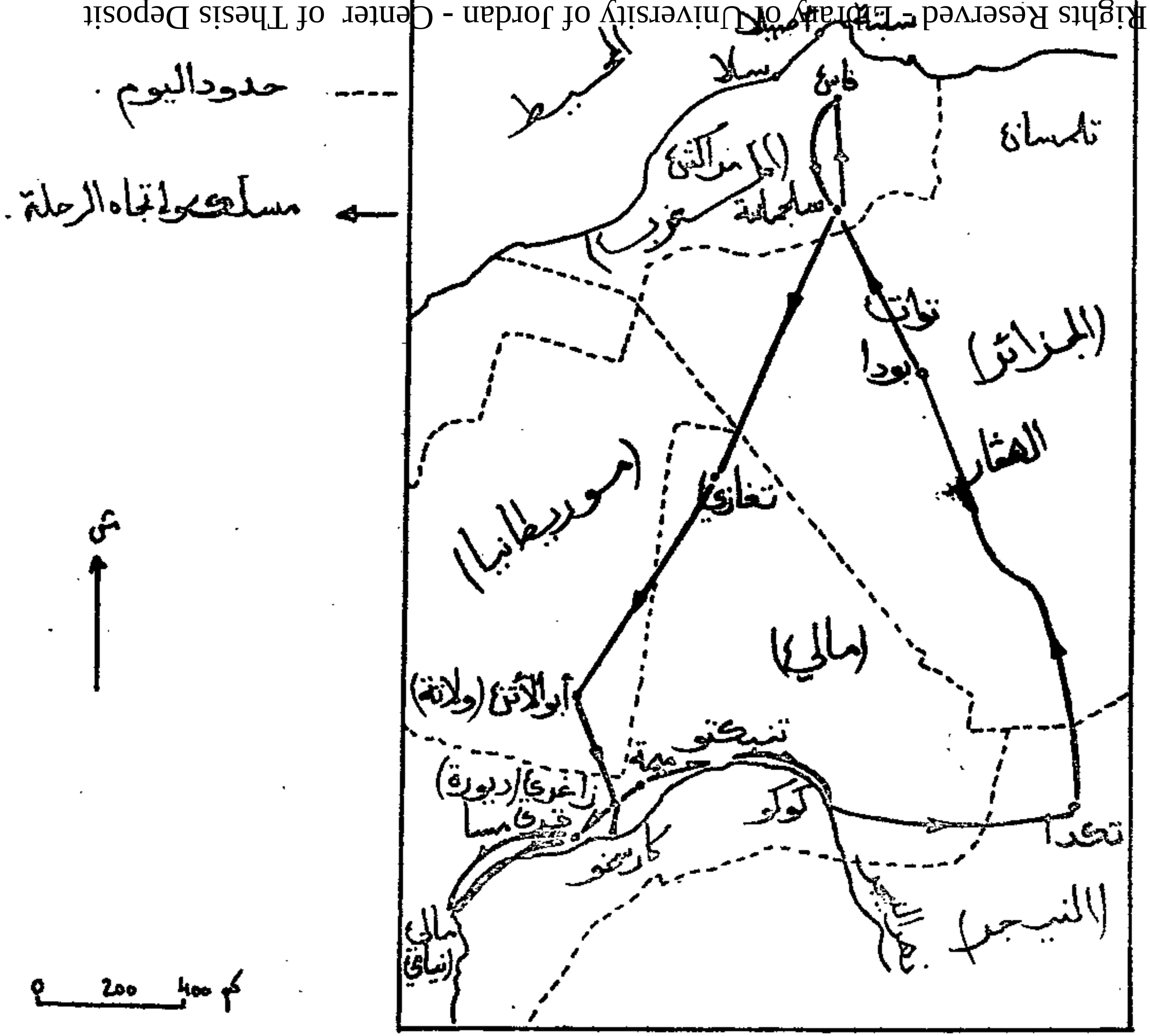

دول المغرب الإسلامي
ما بعد الموحدين.
الدولة النصرية
غرناطة
مالقة
قادس
طنجة
سبتة
فاس
مكناس الزيتون
الدولة المرينية
مراكش
تلمسان
وجدة
وهران
هنين
مستغانم
تنس
الجزائر
تيارت
مليانة
المدية
بجاية
قسنطينة
بونة
تونس
قيروان
سفاقس
قابس
الدولة العبد الوادية
الدولة الحفصية
تقرت
ورقلة
المنيعة
تيميمون
توات
حدود الدول
الأودية
كم 900 400 0



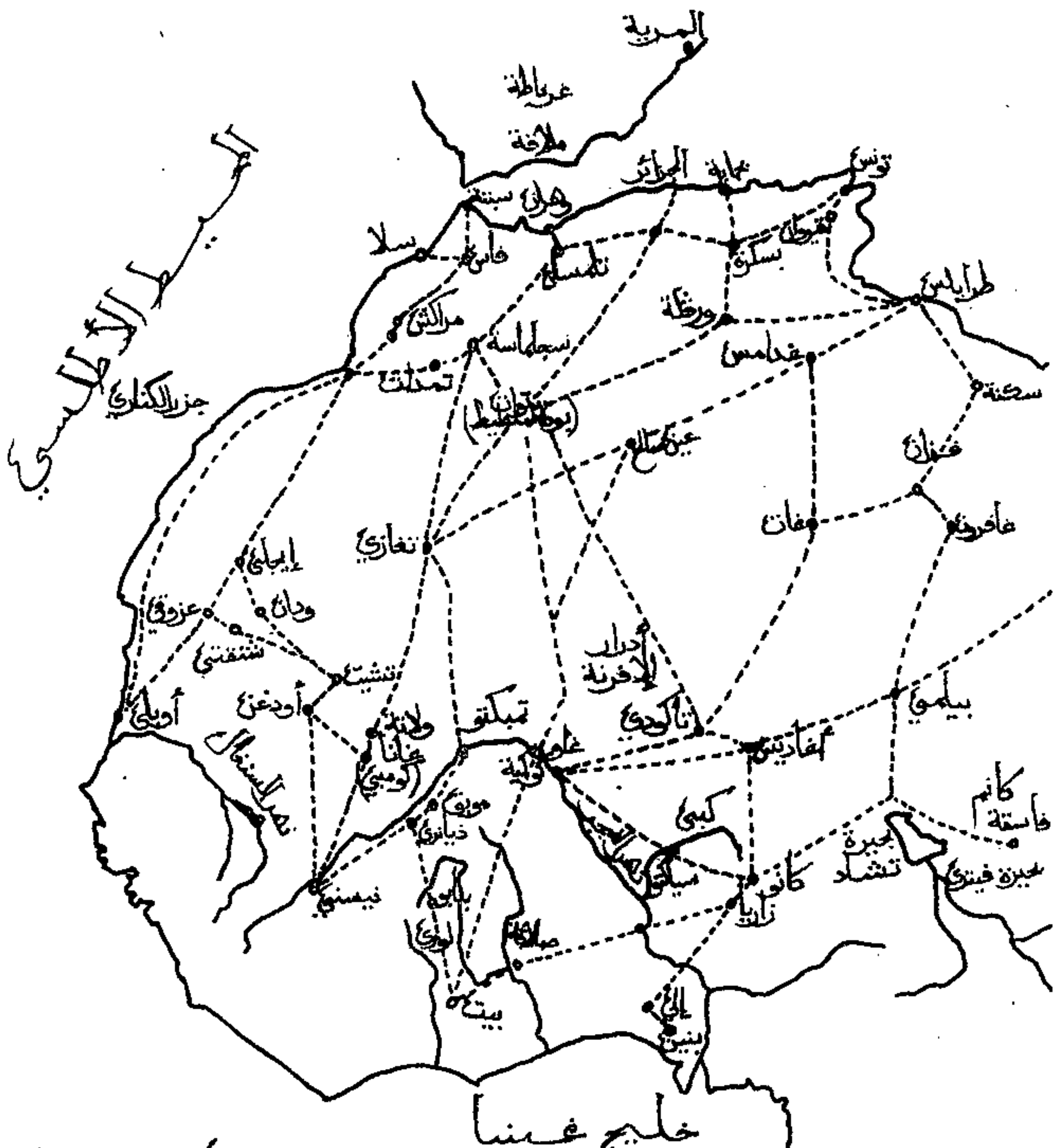
خريطة توضح مواطن أشهر القبائل
الأمازيغية قبل سقوط الدولة الموحدية



خريطة توضح مواطن القبائل العربية
في العهد الموحدي وما بعده.



- الطريق الذي سلكه ابن بطوطة في ذهابه إلى مالي وإيابه.



. الطرق التجارية عبر الصحراء في القرون الوسطى.

المصادر والمراجع

مصادر ومراجع مهمة
ومفيدة

أباضة ، ابراهيم دسوقي :

- الاقتصاد الاسلامي (مقوماته ومناهجه) دار لسان العرب ، بيروت .

ابن أبي حديد ، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد (ت 656 هـ/ 1258م) :

- شرح نهج البلاغة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1400 هـ/1979م .

ابن أبي زرع ، أبو الحسن علي بن عبد الله ، وربما محمد بن صالح بن عبد الحليم :

- الانيس المطرب بروض القرطاس . مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر .

- الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس ، تحقيق كارل يوحنا تورنبرغ ، دار الطباعة المدرسية ، أوبسال ، بالسويد ، 1359 هـ/1943م .

ابن أبي الضياف ، أبو العباس أحمد بن عمر (ت 1291 هـ/1845م) :

- اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، والدار التونسية للنشر ، 1396هـ/1976م .

ابن الاثير ، أبو الحسن علي بن أبي المكارم الجزائرى (ت 630 هـ /1332م) :

- الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1400 هـ/1980 م .

ابن الأزرق ، أبو عبد الله محمد بن علي الاندلسي (ت 896 هـ/1491 م) :

- بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق محمد بن عبد الكريم . الدار العربية للكتاب . ليبيا ، تونس ، 1398 هـ/1927م .

ابن اشنهو ، عبد الحميد بن أبي زيان :

- دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر ، الطباعة الشعبية للجيش ، الجزائر 1392 هـ/1972م .

ابن بطوطــــة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتـــي (ت 779هـ/1377م):

ـ رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفـار)، حققه علي المنتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة،بيروت،1395هـ/1975م .

ابن بكـــــاره محمد بلهاشمي بن أبي بكر الحسني الغريسي :

ـ مجموع النسب والحسب والتاريخ والادب، (في أربعة كتـــب) المطبعة الخلدونية ، تلمسان ، 1381 هـ/1961م .

ابن تاويـــت ، محمد، و محمد الصـادق عفيفي :

ـ الأدب المغربي . دار الكتاب اللبناني ، بيروت، 1389 هـ/1969 م.

ابـن تومـــرت ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله المغربي السوسي المهدي (ت 524هـ/ 1129م) :

ـ أعـز ما يطلب ، حققه عمار طالبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1406هـ/1985م .

ابن حماد الصنهاجي، أبو عبد الله محمد بن علي (ت 626هـ/1230م) :

ـ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، حققه جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1405هـ/1984م .

ابـن الخطيـــب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني (ت 776هـ / 1374م) :

ـ الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، (القسم الثالث، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) . تحقيق أحمد مختاري العبادي و محمد ابراهيم الكتاني ، دار الكتاب ، الدار البيضاء بالمغــــرب، 1384هـ/1964م .

ابـن خلـــــــدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1405م) :
- ابن خلدون و رحلته غربا ، و شرقا . تحقيق محمد بـــن تاويت الطنجي ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشـــر، القاهرة 1300هـ/1951م .
- العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجـــم و البربر و من عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ، دار الكتـــاب اللبناني ، بيروت ، 1404هـ/ 1983م .
- المقدمة : تحقيق علي عبد الواحد وافي ، لجنة البيـــان العربي ، القاهرة ، 1378هـ/1958م .

ابـن خلـــــــدون ، أبو زكرياء يحي بن محمد (ت780هـ/1378م) :
- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيـــق آل فرديل ، و الغوثي ابو علي ، مطبعة غرناطة ، الجزائـــر، 1328هـ/1910م - 1329هـ/1911م .
- بغيـة الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقـــيق عبد الحميد حاجيات ، الجزء 1 ، المكتبة الوطنية بالجزائر، 1400هـ/1980م .

ابـن خلكـــــان ، أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر (ت 681 هـ/ 1282م) :
- وفيات الاعيان و أنباء أبناء الزمان ، تحقيق احســـا ن عباس ، دار صادر ، بيروت .

ابـن دريـــــد ، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ/ 933م) :
- الاشتقاق ، مؤسسة الخانجـــي ، بمصـــــر ، 1378هـ/1962م .

ابن سعيـــــــد ، أبو الحسن علي بن موسى المغربي : (ت 685هـ/1274م) :
- كتاب الجغرافيا ، حققه اسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1403هـ/1982م .
- المغرب في حلي المغرب ، حققه شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، 1384هـ/1964م .

ابـــن ســـــــودة ، عبد السلام بن عبد القادر :
- دليل المؤرخ في المغرب الاقصـــى ، دار الكتاب بالـــــدار البيضاء ، بالمغرب ، 1380هـ/1960م .

ابن صاحب الصـلاة ، أبو مروان عبد الملك بن محمد الباجي (كان حيا سنة 594 هـ / 1198م) :
- تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم اللـــــه ائمة وجعلهم من الوارثين ، وظهور المهدي بالموحديـــن على الملثمين وما في مساق ذلك من خلافة أمير المؤمنيـــن وأخيرا (بعض) الخلفاء الراشدين ، تحقيق عبد الهادي التازي ، الجزء الثاني ، دار الاندلس للطباعة والنشر ، بيروت 1383 هـ / 1964م .

ابـــن الطفيـــل ، عامـــر (ت 11 هـ/ 632م) :
- ديوان عامر بن الطفيل ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1379هـ/1959م .

ابن عبد الحكـــم ، عبد الرحمن بن عبد الله : (ت 257هـ/871م) :
- فتوح افريقيا و الاندلس ، حققه عبد الله أنيس الطبـــاع ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1384هـ/1964م .

ابن عبد ربـــــه ، أبو أحمد بن محمد الاندلسي (ت 940هـ/1533م) :
العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وآخـــــرون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1384هـ/1965م).

ابـن عـــذاري ، أبو العباس محمد المراكشي (ت 669هـ/1278م) :
ـ البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، وكولان واحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، 1400هـ/1980م.

ابـن العمــاد ، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلـــي :
(ت 1089هـ/1678م) :
ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الكتب العلمية ، بيـــروت .

ابـن عمـــار ، الصغيـــر :
ـ التفكير العلمي عند ابن خلدون ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1398هـ/1978م .

ابـن عميـــرة ، محمد :
ـ دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1405هـ/1984م.

ابـن القنفـــذ ، أبو العباس أحمد بن الحسين القسنطيني (ت 810هـ/1406م) :
ـ الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ، 1389هـ/1968م.

ابـــن قتيبـــة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ/889م) :
ـ عيون الاخبار ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1343هـ/
1925م .
ـ كتاب المعارف ، حققه ثروت عكاشة ، دار المعـــارف
بمصر ، 1388هـ/ 1969م .
ابـــن مـــرزوق ، أبو عبد الله محمد (الرابع) بن أحمد العجيسي التلمسانـــي
(ت 781هـ/ 1379م) :
ـ المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبـــي
الحسن ،تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا ، الشركـــة
الوطنية للنشر والتوزيع ،الجـــزائر ، 1401هـ/1981م .
ابـــن مريـــم ، أبو عبد الله محمد الشريف المليتي المديوني التلمساني
(كان حيا سنة 1025هـ/ 1611م) :
ـ البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ، حققـــه
محمد بن أبي شنب ، المطبعة الثعالبية ، الجـــزائر ،
1326هـ/1908م .
ابـــن منصـــور ، عبد الوهـــاب :
ـ قبائل المغرب ، المطبعة الملكيـة ، الرباط ، 1388هـ/
1968م .
ابـــن منظـــور ، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الانصـــاري
(ت 711هـ/1311م) :
ـ لسان العرب المحيط ، تصنيف واعداد يوسف خياط ،
دار لســـان العرب ، بيروت .

ابــــن المؤقــــت ، أبو عبد الله محمد بن محمـــد :

- مجموعة اليواقيت العصرية ، مطبعة مصطفـــى البــابي الحلبي وأولاده ، بمصر ، سنـــة 1349هـ/1930م .

أبــو تمام ، حبيـب بن أوس الطائي (ت 231هـ/845م) :

- ديوان الحماسة ، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهــرة ، 1335 هـ/1916م .

أبــو حمــو الثانـــي ، موسى بن يوسف الزياني (ت 791هـ/1388م) :

- واسطة السلوك في سياسة الملوك ، مخطــوط بالمكتبة الوطنية بالجزائــر .

- واسطة السلوك في سياسة الملوك ، مطبعـــة الدولة التونسيـــة ، 1279هـ/1862م .

أبــو زكريـــاء ، يحي بن أبي بكر الورجلاني (ت 471هـ/1078م) :

- كتاب سير الائمة وأخبارهم (تاريخ أبي زكرياء ، حققه اسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1405هـ/1984م .

أبــو ضيـــف ، أحمــد عمر :

- القبائل العربية في المغرب (في عصري الموحديـن وبني مريـن) ، ديوان المطبوعات الجامعيـــة ، الجزائـر ، 1403هـ/1982م .

أبــو مديـــن ، شعيـــب بن الحسين وآخرون (ت بعد 594هـ/1197م) :

- كتاب الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمســان ، حققه عبد الحميد حاجيات ، الشركة الوطنية للنشــر والتوزيع 1394هـ/1974م .

أبـو النصـر ، عمـر :
- تغريبة بني هلال ورحيلهم الى بلاد المغرب وخروجهم مع الزناتي خليفة ، دار عمر أبو النصر وشركاه ، بيروت، 1391هـ/1971 م .

الأبهيـشي ، شهاب الدين أبو الفتوح محمد بن أحمد (ت850هـ/1446م
- المستطرف في كل فن مستظرف ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، 1371هـ/1952م .

الادريـسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحمودى السبتي (كان حيا في 548هـ/1154م) :
- مقتبس من نزهة المشتاق (القارة الافريقية وجزيرة الاندلس) . تحقيق اسماعيل العربي ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، 1404هـ/ 1983م .

آدم ، متـز :
- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة في الاسلام ،ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، دار الكتاب العربي ،بيروت ، 1387هـ/1967 م .

أرسطـو :
- دستور الآثينيين ، ترجمة الاب أوغسطينس بربارة ، اللجنة الدولية لترجمة الروائع ، بيروت ، 1387هـ/1967م .
- نظام الآثينيين ، ترجمة طه حسين ،دار المعارف بمصر، 1304هـ/1921م .

اسماعيـل ، أبو الوليد بن يوسف بن محمد بن الاحمر (ت 807هـ/ 1406م) :
- روضة النسرين في أخبار بني مرين ،حققه جورج مارسي ،وغوشي بوعلي ، باريس ، 1336هـ/1917 م .

اسماعيل العربي :
- دولة الادارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1404هـ/1983 م .
- دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ، 1401هـ/1980 .
- المدن المغربية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1405هـ/1984 م .
الاصبهاني ، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب(ت 502هـ/1108م):
- محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1381هـ/1961 م .
الاصفهاني ، عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد (ت 597هـ/1200 م) :
خريدة القصر وجريدة العصر ، حققه محمد المرزوقي ، وآخرون ،الدار التونسية للنشر ،تونس ، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1393هـ/1973م .
أعمال مهرجان ابن خلدون :
المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، 1073هـ/ 1962م .
أمين ، أحمد : 1398هـ/1977م .
- ضحى الاسلام ،دار الكتاب العربي ، بيروت .
- فجر الاسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- يوم الاسلام ، مؤسسة الخانجي ، 1378هـ/1958م .

انجلــــــس ، فريـــد ريـــك :
- أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة ، ترجمة أديـــب يوســـف ، دار الفارابي ودار الكتاب العربية ، دمشـــق ، 1378هـ/1958م .

أنيـــــس ، ابراهـــيم وغـــيره :
- المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية) ، القاهـــرة ، 1392هـ/1972م - 1393هـ/1973م .

بـاجيـــــــه ، صـــالح :
- الاباضية بالجريد في العصور الاسلامية الاولى ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، 1396هـ/1976م .

البــــــاروني ، أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن يحي (ت 1359هـ/1940م)
- مختصر تاريخ الاباضية ، مكتبة الاستقامة ، تونـــس ، 1357 هـ/ 1938م .

بروكلمـــــــان ، كـــارل :
- تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين فـــارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت .

البســـتانـــــي ، بطـــرس :
- دائرة المعـــارف ، دار المعرفة ، بيروت .

البســـتانـــــي ، فـــؤاد أفـــرام :
- ابن خلدون (سلسلة الروائع) ، منشورات دار المشـرق ، بيروت ، 1398هـ/1977م - 1403هـ/1982م .

بوروييـــــة ، رشيـــــد :
- ابن تومرت ، ترجمة عبد الحميد حاجيات ، ديـــوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1403هـ/1982م .
- الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، ديوان المطبوعات الجامعيـــة ،المركز الوطـني للدراسات التاريخية ،الجزائر ،

بـــوزيانـــي ، الدراجــــي :
- تطور نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الـــواد (أطروحة جامعية) (1402هـ/1981م) .

بـــونـــار ، رابـــح :
- المغرب العربي (تاريخـه وثقافتـــه) ، الشركة الوطنيـــة للنشر والتوزيـــع ، الجزائـــر ، 1388هـ/1969م .

البيـــــذق ، أبو بكر الصنهاجـــي :
- كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، تحقيق ليفي بروفنسال ، طبع بولس كنز ، باريس 1347هـ / 1928م .
- كتاب أخبار المهدي بن تومرت ،تحقيق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، 1394هـ/1974م.

بيضـــون ، ابراهـــيم :
- الدولة العربية في اسبانيا ، دار النهضة العربيـــة للطباعـــة والنشـــر ، بيروت ، 1401هـ/1980 .

التنســـي ، أبو عبد اللـه محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمساني (ت 899هـ/1493م) :
- نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكـــر ملوكهم الاعيان ومن ملك من اسلافهم مما مضى من الزمـان ، مخطوط ، الخزانة العامة بالربـــاط .

التــــوراة :
- جمعيات الكتاب المقدس المتحدة ، كومبريدج ، بريطانيــا ،
1386هـ/1966م .

التيجانـــــي ، أبو محمد عبد الله بن محمد (ت 717هـ/1317م) :
- رحلة التيجاني ، تحقيق حسن حسني عبد الوهــاب ،
الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، 1402هـ/1981م .

الجـــابـــرى ، محمـــد عابـــد :
- العصبية والدولة (معالم نظرية خلدونية في التاريخ
الاسلامي) ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغـــرب ،
1391هـ/1971م .

الجــاحـــظ ، أبــو عثمان عمرو بن بحر (ت 255هـ/869م) :
- رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هــارون ،
مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1383هـ/1964م - 1385 هـ /
1965 م .
- كتــاب الحيــوان ، حققـــه عبد الســلام محمـــد
هــارون ، 1388هـ/1969م .

جـــاد المولى ، محمـــد وآخـــرون :
- أيام العرب في الجاهلية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي
وشركـاه ، بمصـر ، 1342هـ/1961م .

الجزائـــــرى ، محمد بن عبد القادر :
- تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والامير عبد القـــادر ،
دار اليقظة العربيـة ، بيروت 1384هـ/1964 م .

جغلول عبد القادر :
- الاشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون ، ترجمة فيصل عباس ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1403هـ/1982 م .
- مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط ، ترجمة فضيلة الحكيم ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1403هـ/1982م .

جمعة ، محمد محمود :
- النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1369هـ/1949 م .

جواد علي :
- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ومكتبة النهضة ببغداد .

جودت ، عبد الكريم يوسف :
- العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1405هـ/1984م .

جوليان ، شارل أندري :
- تاريخ افريقيا الشمالية ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1398هـ/1978م - 1404هـ/ 1983م .

الجوهري ، محمد وآخرون :
- دراسات في علم الاجتماع الريفي والحضري ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، 1400هـ/1979م .

الجيلالي ، عبد الرحمن بن محمد :
- تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بالجزائر ودار الثقافة ببيروت ، 1402هـ/1982م .

حاجيات ، عبد الحميد :
- أبو حمو موسى الزياني (حياته وآثاره) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1394هـ/1974م .

الحبابي ، محمد عزيز :
- ابن خلدون معاصرا ، ترجمة فاطمة الجامعي الحبابي دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1405هـ/1984م .

حتي ، فيليب :
- تاريخ العرب (مطول) ، ترجمة أدوارد جرجي وجبرائيل جبور ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، 1381هـ/1961م .

حجاب ، محمد فريد :
- المهدي المنتظر بين العقيدة الدينية والمضمون السياسي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1405هـ/1984م .

حركات ، ابراهيم :
- المغرب عبر التاريخ ، مطبعة دار السلمى ، بالدار البيضاء ، بالمغرب ، 1384هـ/1965م .

خوجة ،حمدان بن عثمان الجزائري (ت 1255هـ/1840م) :
- المرآة ،تحقيق ابن محمد عبد الكريم ،منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1392هـ/1942م.

خورشيد ،عبد الله :
- القبائل العربية في مصرفي القرون الثلاثة الاولى للهجرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، 1387هـ/1967م.

دبوز ،محمد علي :
- تاريخ المغرب الكبير ،مطبعة عيسى البابي والحلبي وشركاه، القاهرة ،1383هـ/1963م- 1393هـ/ 1974م.

دروزة ، محمد عزة :
العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجري، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، دمشق ، 1380هـ/ 1960م.

دوزي ، رينهارت :
- تاريخ مسلمي اسبانيا (الحروب الأهلية) ،ترجمة حسن حبشي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، 1383 هـ/ 1963م.
- معجم مفصل في أسماء الالبسة عند العرب ،مطبعة لبنان ، 1261هـ/ 1945م.

ديتلفنيسن :
- التاريخ العربي القديم ،ترجمة فؤاد حسنين علي ،مكتبة النهضة المصرية ، بالقاهرة ، 1378هـ/1958م.

ديـــــــورنت ، ول :

- قصة الحضارة ، ترجمة زكي نجيب محمد ومحمد بـــدران ،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،القاهرة ، 1385هـ/1965م .

الرقيق القيـــرواني ، أبو اسحاق ابراهيم أبو القاسم (ت 417هـ/1026م) :
- تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق المنجي الكعبي ، نشـــر
رقين السقطي ، تونس ، 1388هـ/1968م .

روســـــــــو ، جان جـاك (ت 1405هـ/1984م .) :

- العقد الاجتماعي ، ترجمة بولس غانم ، اللجنـــة اللبنانيـة
لترجمة الروائع ، بيروت ، 1392هـ/1972م .

الزركشـــــــــي : أبو عبد الله بن ابراهيم اللؤلؤي (كان حياسنة 894هـ/
1488م) .

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ،
المكتبة العتيقة ، تونس ، 1386هـ/1966م .

الزركلـــــــــي ، خير الدين :

- الاعلام (قاموس ، تراجم لأشهر الرجال والنساء) ،مطبعة
كوستا تـــوماس وشركـاه ، 1373هـ/1954م - 1378هـ/
1959م .

زيـــــانـــــي ، محمد سلام :

- الاسلام (والتقاليد القبلية في افريقيا ،دار النهضة العربية
للطباعة والنشر ،بيروت ، 1389هـ/1969م .

زيـــــدان ، جورجـــي :
ـ تاريخ التمدن الاسلامي ، منشورات مكتبة دار الحيـــاة ، بـــيروت ، 1387هـ/1967 م .
ـ العرب قبل الاسلام ، منشورات دار مكتبة الحيـــاة ، بيروت ، 1386 هـ/1966 م .

الســــراج ، أبو عبد اللـه محمد بن محمد الاندلسي (ت 1149هـ/1736م)
ـ الحلل السندسيـة في الاخبـار التونسيـة ، تحقيــق محمد الحبيـب الهيله ، الدار التونسيـة للنشـــر بتونـــس ، 1390هـ/1970 م .

سعـد اللـــه ، أبـو القاسـم :
ـ تاريخ الجزائر الثقافـي ، الشركة الوطنيـة للنشـــر والتوزيـع ، الجزائـــر ، 1402هـ/1984 م .

سعـــــدي ، عثمـان :
ـ عروبة الجزائر عبر التاريخ ، الشركة الوطنية للنشـــر والتوزيـع ، الجزائـر ، 1403هـ/1982 م .

سفيتـلانـــا ، باتسيـفا :
ـ العمران البشري في مقدمة ابن خلدون ، ترجمـــة رضوان ابراهيم ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونـــس ، 1398هـ/1978 م .

الســـلاوي ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت 1315 هـ/1897 م) :
ـ الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، دار الكتاب بالدار البيضاء ، المغرب ، 1374هـ/1954 م .

الـويـــــدى ، محمـــد

- بدو الطـــوارق بين الثبات والتغير ، المؤســـسة الوطنية للكتـــاب ، الجزائر ، 1407هـ/1986 م .

السيــــــد ، عبد العزيز ســالم :

- تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، دار النهضة العربيـــة للطباعـة والنشر ، بيروت ، 1391 هـ/1971 م .

شــــــاوش ، محمد بـــن رمضـــان :

- الـدر الـــو قـاد من شعر بكر بن حماد التاهرتـــي ، المطبعة العلوية بمستغانم ، 1385هـ/1966م .

الشـــايـــــب ، أحمـــد :

- تاريخ الشعر السياسي ، مكتبة النهضة المصريـــــة ، 1396هـ/ 1976م .

- تاريخ النقائض في الشعر العربي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1374هـ/1954 م .

شــريــــــط ، عبـد اللـــه :

- الفكر الاخلاقي عند ابن خلدون ، الشركة الوطنيـــة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1395هـ/1975 م .

- نصوص مختارة من فلسفة ابن خلدون ، المؤســــسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1405هـ/1984 م .

شعـــــيرة ، محمد عبـد الهـــادى :

- المرابطون تاريخهم السياسي ، مكتبة القاهــــرة الحديثـــة .

شكـــــــرى ، فيصـــــل :
- المجتمعات الاسلامية في القرن الاول (نشأتها ومقوماتـها ، تطورها اللغوى والادبي ، دار العلم للملايـــين ، بـــيروت ، 1393هـ/1973 م .

شلبــــــــي ، أحمـــــــد :
- الحياة الاجتماعية في التفكير الاسلامي ، مكتبة النهضـــة المصرية ، القاهرة ، 1393هـ/ 1973 م .
- التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، مكتبة النهضـــة المصرية ، القاهرة ، 1389هـ/1969م .

الشـــهرستانـــي ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت 548هـ 1153 م) :
- الملل والنحل ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، بمصر ، 1387هـ/1967 م .

الطـــالــــبي ، محمــــد :
- الدولة الاغلبية ، (التاريخ السياسي) ، دار الغـــرب الاسلامي ، بـــيروت ، 1406هـ/1985 م .

الطـــــبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/ 923 م) :
- تاريخ الامم والملوك ، مكتبة خيـاط ، بـــيروت .

الطمـــــــار ، محمد بن عمرو :
- تلمسان عبر العصور ، (دورها في السياسة وحضـــارة الجزائر) ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1405هـ/1984م
- الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، الشركة الوطنيـــة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1404هـ/ 1983 م .

طــه حسـين :
- فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، دار الكتاب اللبناني ،
بيروت ، 1395هـ/1975م .

العـامـري ، محمد الهادي :
- تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار
والذبول ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، 1393هـ /
1974م .

العبـادي ، أحمد مختار :
- دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، مؤسسة شباب
الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع .

عبد الرزاق ، علي :
- الاسلام وأصول الحكم ، تحقيق ممدوح حقي ، منشورات
دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1380هـ/1960م .

العبـدري ، أبو عبد الله محمد بن محمد علي البلنسي (ت 688 هـ /
1289م .) :
- الرحلة المغربية (ما سما اليه الناظر المطرق
في خير الرحلة الى بلاد المشرق) ، تحقيق أحمد بن
جدو ، كلية الاداب ، بالجزائر .

عبد السلام ، أحمد :
- دراسات في مصطلح السياسة عند العرب ، نشر الشركة
التونسية للتوزيع ، 1399هـ/1978م .

عبد الوهاب ، حسن حسني :
- ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ، جمع واشراف محمد العروسي المطوى ، مكتبة المنار بتونس ، 1386هـ/1966م - 1396هـ/1972م .

العدوى ، ابراهيم أحمد :
- بلاد الجزائر تكوينها الاسلامي والعربي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، 1390هـ/1970م .
- النظم الاسلامية (مقوماتها الفكرية ومؤسساتها التنفيذية في صدر الاسلام والعصر الاموى) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، 1392هـ/1972م .

علام ، عبد الله علي :
- الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، دار المعارف ، بمصر ، 1391هـ/1971م .

علي فؤاد ، أحمد :
- علم الاجتماع الريفي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1402هـ/1981م .

عماد الدين خليل :
- ابن خلدون اسلاميا ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، 1405هـ/1955م .

عنان ، محمد عبد الله :
- ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، 1372هـ/1953م .
- دولة الاسلام في الاندلس (العصر الاول من الفتح الى الدولة العامرية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1389هـ/ 1969م .

- دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1380هـ/1960 م .

- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1383هـ/1964 م .

- نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1386هـ/1966 م .

الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت 505هـ/1111م) :

- ميزان العمل ، حققه سليمان دنيا ، دار المعارف ، بمصر ، 1385هـ/1965 م .

الغزالي ، علي مصطفى :

- تاريخ الفرق الاسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، 1378هـ/1959 م .

الغبريني ، أبو العباس أحمد بن أحمد (ت 704هـ/1304 م) :

- عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، حققه رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1402هـ/1981 م .

فرج محمود فرج :

- اقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1398هـ/1977 م .

فروخ ، عمر :

- تاريخ الجاهلية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1384هـ/1964 م .

- تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1392هـ/1972 م .

فلهـــــوزن ،يوليـــوس :
ـ أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الاســلام (الخوارج والشيعة) ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ،مكتبــة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1378هـ/1958 م .

الفنـــــــدى ، محمد ثابــت وآخــرون :
ـ دائرة المعارف الاسلامية ، (اعتمد في الترجمة العربيــة على الاصلين الانجليزى والفرنسي) ، القاهرة ، 1352 هـ/ 1933 م .

الفـــــــوال ، صـــلاح مصطفـى :
ـ تنمية المجتمعات الصحراوية (أسس نظرية) ، مكتبــــــة القاهرة الحديثة ، 1388هـ/1968 م.
ـ تنمية المجتمعات الصحراوية (تطبيقات ميدانية) ، مكتبــــة القاهرة الحديثة ،1388هـ/1968 م.
ـ علم الاجتماع البدوى ،دار النهضة العربية ،1394هـ / 1974 م.

الفيروز أبـــــادى ، أبو الطاهر محمد بن يعقوب الشيرازى (ت 817هـ / 1414 م) :
ـ القاموس المحيط ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلـــبي ، القاهرة ، 1371هـ/1952 م .

فيـــــلالـــــي ، عبد العزيــز :
ـ العلاقات السياسية بين الدولة الاموية في الاندلــس ودول المغرب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1403هـ/1982 م .

القاضي النعمان ، أبو حنيفة بن أبي عبد الله محمد بن حيون بن محمد (ت 363هـ/973م) :
- رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضي ، دار الثقافة ، بيروت ، 1390هـ/1970م .

القرآن الكريم .

قربان ، ملحم :
- خلدونيات (السياسة العمرانية) ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1404هـ/1984م .

قدوره ، زاهية :
- الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الاسلامية في العصر العباسي الاول ، دار الكتاب ، بيروت ، 1392هـ/1972م .

القسطلاني ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد (ت 923هـ/1517م) :
- ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1323هـ/1905م .

القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (821هـ/1418م) :
- صبح الاعشى في صناعة الانشا ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، 1383 هـ/1963م .
- نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1379هـ/1959م .

كحالة ، عمر رضا :
- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1395هـ/1975 م - 1399هـ/1978 م .

كرو ، أبو القاسم محمد :
- العرب وابن خلدون ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا تونس ، 1398هـ/1977 م .

كوماس جوان وآخرون :
- العرقية ازاء العلم ، ترجمة أنطوان بطرس خوري ، منشورات الأونيسكو ، وطبع دار الثقافة ، بيروت .

لاكوست ، ايف وآخرون :
- الجزائر بين الماضي والحاضر ، ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1405هـ/1984 م .
- العلامة ابن خلدون ، ترجمة ميشال سليمان ، دار ابن خلدون للطباعة والنشر ، بيروت ، 1394 هـ/1974 م .

لطفي ، عبد الوهاب يحي :
- العرب في العصور القديمة (مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الاسلام) ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، 1400 هـ/1979 م .

لقبال ، موسى :
- دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها الى منتصف القرن الخامس الهجري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1400هـ/1979 م .

- المغرب الاسلامي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1402هـ/1981 م .

لقبال موسى وبورويبة رشيد وحاجيات عبد الحميد ، ودهينة عطاء الله ، وبلقراد محمد :

- الجزائر في التاريخ (العهد الاسلامي من الفتح الى بداية العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1405هـ/ 1984 م .

ماجد ، عبد المنعم :

- التاريخ السياسي للدولة العربية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، 1387هـ/1967 م .

المالكي ، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله (كان حيا سنة 484هـ/ 1091 م) :

- كتاب رياض النفوس ، تحقيق بشير البكوش ، دار الغرب الاسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ، 1401هـ/1981 م - 1403هـ/1983م .

الماوردي ، علي بن محمد حبيب البصري (ت 450هـ/1058 م) :

- الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1404هـ/1983 م .

المبارك ، محمد :

- نظام الاسلام (الحكم والدولة) ، دار الفكر ، بيروت ، 1400هـ/1980 م .

المبرد ، أبو العباس محمد بن زيد النحوي (ت 285هـ/898 م) :

- الكامل في اللغة والادب ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة .

مجهـــــــول :

- أخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر امرائها يرحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم ، مطبعة ريبد نسيرا ، نشر مكتبة المثنى ببغداد ، 1284هـ/1867 م .

- زهر البستان في دولة بني زيان ، مخطوط بمكتبة مانشيستر ، بريطانيا ، الجزء الثاني .

- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، حققه محمد ابن أبي شنب ، وطبع بمطبعة جول كربونل ، الجزائر ، 1339هـ/1920 م .

- نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى (منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، تحقيق ليفي بروفنسال ، 1302هـ/1934 م .

المجـــذوب ، عبد العزيز :

- الصراع المذهبي بافريقية الى قيام الدولة الزيرية ، الدار التونسية للنشر ، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1395 هـ/1975 م .

المجـــذوب ، عبد الرحمــن : (ت 976هـ/1568 م) :

- القول المأثور ، تصنيف نور الدين عبد القادر ، المطبعة الثعالبية والمكتبة الادبية ، الجزائر .

المحـــاسب ، جمـــال :

- علم الاجتمـــاع الريفي ، دار اليقظة ، دمشق ، 1375هـ/1955 م .

محمـد علي محمد :
- دراسات في علم الاجتماع السياسي ، دار الجامعات المصرية بالاسكندرية ، 1398هـ/1977م .

محمـود اسماعيل :
- الخوارج في المغرب الاسلامي ، (ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، موريطانيا) .

المدنـي ، أحمد توفيق :
- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ، 1492هـ / 1792م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1397 هـ / 1976م .

المراكشـي ، محي الدين عبد الواحد بن علي التميمي (كان حيا سنة 621 هـ/1224م) :
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، 1368هـ/1949م .

مرعشلـي ، نديم وآخرون :
- الصحاح في اللغة والعلوم (تجديد صحاح الجواهري والمصطلحات العلمية والفنية للمجامع والجامعات العربية) ، دار الحضارة العربية ، بيروت ، 1394هـ/1974م .

مرمـول ، محمد الصالح :
- السياسة الداخلية للدولة الفاطمية في بلاد المغرب الاسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1404هـ/ 1983م .

مزيـــــان ، عبد المجيـــد :
ـ النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون ،الشركة الوطنيـة للنشر والتوزيع ،الجزائر ، 1402هـ/1981 م .

المسعـــــودى ، أبو الحسن علي بن الحسين علي (ت 346هـ/957 م):
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق شارل باربيـه (C. BARBIER ...) وبافي دى كورتيل (Pávet deCourtelli)

المشرفـــــي ، أبو المكارم عبد القادر الجزائرى (ت 1192هـ/1778 م):
ـ بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الاعراب كبني عامر ،دار مكتبة الحياة ، بيروت .

مصطفـــى غالـــب :
ـ تاريخ الدولة الاسماعيلية ،دار الاندلـــس .

معمـــــر ،علي يحيـــى :
ـ الاباضية في موكب التاريخ ،مكتبة وهبـه ، القاهـــرة .

مغربـــــي ، عبد الغـــني :
ـ ابن خلدون حياته وأعماله ، الشركة الوطنية للنشـــر والتوزيـــع ، الجزائر ، 1311هـ/1971 م .

المفضـل الضبـــي ، أبو العباس بن محمد بن علي بن عامر(ت حوالي 168هـ/ 784م) :
ـ المفضليات ، حققه أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمـد هـارون ،دار المعارف ، بمصر ، 1383هـ/1963 م .

المقـــــرى ، أحمد أبو العباس بن محمد التلمساني :(ت ١٠٤١هـ ـ ١٦٣١م)
ـ أزهار الرياض في أخبار عياض ،حقق الاجزاء الثلاثة الاولى لجنة مصطفى السقـا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبي ،مطبعـة التأليف والترجمة والنشر ،القاهرة ، 1358هـ/1892م ـ 1361هـ 1942م .

- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1388هـ/1968م .

المقريزي ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت 845هـ/1441م) :
- اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1367هـ/1948م .
- البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، مطبعة عالم الكتب ، القاهرة ، 1381هـ/1961م .

مؤنس ، حسين :
- فجر الاندلس الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1379هـ/1959م .

الميلي ، مبارك بن محمد :
- تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1396هـ/1976م .

النجار ، عبد المجيد :
- المهدي بن تومرت (حياته وأراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب) ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1303هـ/1983م .

النص ، احسان :
- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي ، دار الفكر ، بيروت ، 1393هـ/1973م .

نويهض ، عادل :
- معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية ، بيروت، 1400هـ/1980م .

الهاشمي البغدادي ، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو (ت 245هـ/859
- كتاب المحبر ، حققه ايلزه ليختن شتيتر ، المكتبة التجارية للطباعة والنشر و التوزيع ، بيروت، 1381هـ/1961 م .

هامرتن ، السيرجون :
- تاريخ العالم ، مكتبة النهضة المصرية .

وافي ، علي عبد الواحد :
- عبقريات ابن خلدون ، دار عالم الكتاب ، القاهرة .

الوردي ، علي :
- منطق ابن خلدون في ضوء حضارته و شخصيته ، الشركة التونسية للتوزيع ، 1398 هـ/1977 م .

ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ/1229م) :
- معجم البلدان ، مكتبة خياط ، بيروت .

مـــــراجـع باللغة الأجنبية :

- ABOU OBEID EL-BEHRI :

- Description de l'afrique septentrionale. Traduit par MAC GUCKIN DE SLONE LIBRAIRIE D'AMERIQUE et d'ORIENT ADRIEN - MAISONEUVE PARIS , 1965.

-BARGES (J.J.) :

- TLEMCEN Ancienne capitale du royaume de ce nom. Librairie de l'institut et de la Bibliothéque impériale , PARIS, 1959.

- BEL - ALFRED :

- La réligion musulmane en Berberie (Espuisse d'histoire et de sociologie religieuses). PARIS, 1938.

- BOUSQUET (G.H.) :

- Les Berberes .
(Presses universitaires de france 1967).

- BREMOND (G.R.):

- Berberes et arabes , payot PARIS,1950.

- BRUMSCHRIG ROBERT :

- La Berberie orientale Sous les hafsides (des origines à la fin du XVeme siécle " Librairie d'amérique et d'orient , ANDRIEN - Maisonneuve , PARIS, 1982.

- Deux récits de voyage inedits en afrique du nord .
(Abdelbasit BENKHALIL et adorne, PARIS , 1936).

- DHINA ATALLAH :

- Les états de l'occident Musulman.
(aux XIIIème , XIVéme, XVéme siécles).
Office des publications universitaires,
Alger , 1984.

- Le royaume Abdelouadide à l'époque d'Abou
Hammou Moussa 1er , et d'Abou TACHFIN 1er,
office des publications universitaires
ALGER, 1985.

- DJEGHLOUL Abdelkader :

- Trois (3) études sur IBN KHALDOUN
Centre de documentation des Sciences
humaines - ORAN , 1980.

- GAUTIER (EMILE .F.):

- Le passé de l'afrique du nord.
(Les siecles obscures) payot ,
PARIS, 1952.

- IBN KHALDOUN : Discous sur l'histoire universelle.
(Traduction nouvelle , par VINCENT
MONTEIL . Edition sindbad, PARIS 18éme.

- IDRIS (H.R.) :

- La berberie Orientale .
Sous les Zirides (Xéme , XIIéme,siécle)
librairie d'amérique et d'orient ADRIEN
Maisonneuve , PARIS , 1981.

- JEAN LEON :

- L'afrique , Description de l'afrique.
librairie d'amérique et d'orient ADRIEN MAisonneuve , PARIS , 1981.

- JULIEN (CHARLES ANDRE):

- Histoire de l'afrique du nord , PARIS, 1966 .

- LACOSTE (Y) :

- IBN KHALDOUN :

- Naissance de l'histoire passé du tiers monde .

- LEVI - PROVINCAL :

- Documents Interdits .

- D'histoire almohade, librairie orientaliste 1928.

- MARCAIS GEORGES :

- La berberie Musulmane et l'orient .
Au moyen âge , édition montaigne , PARIS.

- Les arabes en berberie .
(du XIéme - au XIVéme siécle).
Constantine et Paris , 1913.

- MAGHERBI (A) :

- La pensée sociologique d'IBN KHALDOUN.
Entreprise nationale du livre , ALGER , 1983. -

تنويه

تم حذف بعض المفردات التي ورد ذكرها في البحث بشكل مكثف وواسع ، ففي فهرس الأعلام حذف اسم عبد الرحمن بن خلدون ، الوزان ، وفي فهرس القبائل حذفت المفردات التالية : الأمازيغ ، بنو سليم ، بنو حفص ، بنو عبد الواد ، بنو مرين ، بنو هلال ، زناتة ، صنهاجة ، العرب ، مصمودة ، الموحدون ، وفي فهرس الأماكن تم الاستغناء عن : افريقية ، الأندلس ، تلمسان ، تونس ، فاس ، المغرب الاسلامي ، المغرب الأقصى ، المغرب الأوسط .

فهرس الأعلام

— ت —

— ث —

— ج —

— ح —

— ع —

- ى -

فهرس القبائل

فهرس الاماكن

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهـرس المـواضيع

الصفحـــة .

المقـــدمـة :

الفصل الثالث

الفصـــــل الـــرابـع

قبائـل المغرب الاسلامـي و مواطنهـــا .

الفصل الخامس

الفصـــــل السادس .

الفصـــــل السابـــــع

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
3	2	الوسطي	الوسطى
3	3	أضحي	اضحى
4	19	انتهي	انتهى
9	20	معني	معنى
11	12	منتهي	منتهى
13	23	لان كتابة التاريخ هذا	لان كتابة تاريخ هذه
14	8	وتعالي	وتعالى
15	11	والمعا	والمعاش
19	5	مورخ	مؤرخ
21	13	بعد سنة 667 هـ/1268م هذا وقد .	بعد سنة 667 هـ/1268 م. نشر محمد بن تاويت التطواني وابراهيم الكتاني بالرباط وهو موجود بمكتبة الجامعة المركزية بالجزائر هذا وقد .
24	10،7	التجاني	التيجاني
25	19،11	القلقشندى	القلقشندي
27	4	مقتبس من نزهة المشتاق	مقتبس من نزهة المشتاق
28	17	القلقشندى	القلقشندي
31	12،9	ابن الضياف	ابن أبي الضياف
32	5	الاسياسية	الاساسية
32	8	عبد القادر دجغلول	عبد القادر جغلول

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
32	18	الاسپاسية	الاسبانية
33	15	من الاسپانيين	مع الاسبانيين
35	3	اقتني	اقتنى
39	5	المرتجم	المترجم
40	7	ابن الضياف	ابن ابي الضياف
45	1	لبعد الله	لعبد الله
47	5	وطية	وطيه
54	هامش 3	والبيان المغرب	البيان المغرب
59	16	لم يصل	لم يطل
60	هامش 1	ى دبوز	طي دبوز
64	3	يتسائل	يتساءل
71	20	الرستمية	الرستمية
72	هامش 5	داميها	داعيتها
78	هامش 1	انظر عذاري	انظر ابن عذاري
80	هامش 1	ج 1، صرنج 1، ص 74/75.	ج 1، ص 74/75.
83	هامش 1	ابن عذارى	ابن عذاري
87	3	وهكذا اسينشمل	وهكذا سينشغل
87	12	تهجة	نهجه
93	15	باندلس	بالاندلس
93	19	المهمين	المهيمن
96	هامش 5	ابن عذارى	ابن عذاري
97	3	كتامته	كتامه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
97	هامش 4	سنة 945 / 334	سنة 334هـ/945م
101	2	والسب	والسبب
121	11	للهذا	لهذا
126	هامش 1	دجفلول	جفلول
127	8	تضحي	تضحى
133	هامش 3	دجفلول	جفلول
138	20	جائزة	جائره
139	21	تذلر	تضر
140	4	هزولاء	هؤلاء
147	9	يفقد	ينفذ
152	10	لما تلى	لما تلا
157	9	ونهاية هذا	وبنهاية هذا
159	14	صلى اللة	صلى الله
161	6	مهذبه	مهذبه
161	15	كثيرون من درسوا	كثيرون ممن درسوا
163	11	همال افريقيه	شمال افريقيا
165	10	هدفه	خدشه
166	3	ابن خلدون حكمة	ابن خلدون حكمه
177	12	والزراهه	والزرامه
189	13	سفان	سفيان
191	5	الى رئيهه	الى رئيسه
192	3	تلى الجسذم	تلي الجذم

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
192	4	أو ترفع الشعب بعد ازدحامه	أو تفرغ الشعب بعد ازدحامه
193	1	وبجدد	وبحدد
211	7	كمكسيا	كمكسا
221	10	الذين	الذى
234	15	النصراتية	النصرانية
236	هامش2	عبد القادر المشرفي	عبد القادر المشرفي
241	4	اجمادات	اتحادات
242	18	ودرعة	ودرعه
244	13	المعرفين	المعروفين
256	9	سيرة المظفرى	ميسرة المظفرى
267	9	اغتفروا	استغفروا
267	15	حيث ابوا تاشفين	حيث عين ابو تاشفين
269	5	الملية	المسيلة
269	9	بديهة	بدايهة
270	6	مسوغة	مسوفة
271	19	اعتادات	اعتادت
285	9	بجيابة	بجاية
288	10	افيريقية	افريقية
294	هامش4	التجاني	التيجاني
295	1،8،هـ4	التجاني	التيجاني
305	21	البدو والغلبة	البدو الغلبة
315	هامش1،2	التجاني	التيجاني
318	21	التجاني	التيجاني
323	15	مستغلة	مستقلة
339	هامش5	احدى الطرق الصيد	احدى طرق الصيد

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
341	7	بعضهم بانه	بعضهم بأن
347	هامش 3	الأوساق	الأسواق
348	10	بالطبابع	بالطابع
350	5	ومتنوجات	ومنتوجات
351	18	الى السمالك	الى المسالك
352	4	كتب السمالك	كتب المسالك
356	5	الديار اللهة	الدهيار الليهية
364	14	وعلى احوله الزهد	وعلى احواله الزهد
366	1	القبروان	القيروان
374	16	وطرق التعلليم	وطرق التعليم
379	4	والجهبة	المجهة
392	14	ضد الأعراب	ضد أعراب
392	هامش 5	انظر ابن منظ	انظر ابن منظور
397	9	وغيرة	وغيره
399	هامش 2	انظر ترجمة	أنظر ترجمته
412	12	لم يلفت	لم يلتفت
429	22	التجاني	التيجاني
430	19	انظر عبد الله علام	انظر عبد الله علي علام
433	5	واروبه	وأوربه
442	2	انظم	انضم
465	17	أقلها	أقطعها
469	10	منكاسة	مكناسة
469	15	التهلاء	الاستهلاء
472	19	المجتملت	المجتمعات
474	15	على قامل	على عامل

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
48	06	عن الناد ولـــــة	عن الد ولـــــة
52	12	آلفرد.بل ، والغوثي	آلفردبل والغوثي
53	20	البستاني ،فؤاد أفرام	البستاني ،فؤاد أعرام
53	05	البكرى ،أبو عبيد الله بن عبد العزيز .	البكرى ،أبوعبيد عبد الله بن عبد العزيز
54	02	تحقيق ابن محمد عبد الكريم	تحقيق محمد بن عبد الكريم
54	08	عيسى البابي، والحلبي	عيسى البابي الحلبي
54	20	ديتلفنيسن	ديتلف نيسن وآخرون
54	10	الزركشي ،أبو عبد الله بن ابراهيم	الزركشي ،أبوعبد الله محمد بن ابراهيم .
54	11	عبد الرزاق ، دلي	عبد التزازق ، علي
54	14	(ت : 683 هـ	(كان حيا سنة 688هـ
56	04	De slone	De slane ,
56	13	Espuisse	ESquisse
56	26	Brumschrig	Brunschvig
56	01	Jean leon	Jean leon l'africain
56	02	- L'Afrique, Description	Description
56	13	- Documents Interdits	Documents Inedits
الملخص	20	Exaustif	Exhaustif
"	38	A Portée	A porter

ملخص باللغة الفرنسية

UNIVERSITE D'ALGER

INSTITUT D'HISTOIRE

l'açabya tribale et son influence sur les institutions et les relations dans le maghreb islamique du VIème au IXème siècle de l'hégire

SOUTENANCE DE THESE

DE MAGISTER EN HISTOIRE ISLAMIQUE

présenté par

BOUZIANI Derradji

Sous la direction du Professeur: Dr. MOUSSA LAKBAL

II

ANNEE UNIVERSITAIRE

1987 - 1988

RESUME

L'açabiya, considérée comme l'un des concepts dont IBN KHALDOUN a été le précurseur, revêt à la fois un sens singulier et profond. Sa définition linguistique, restrictive, se limitait à expliquer certaines situations, caractéristiques ou faits établis tels que: lier, plier, contourner, ceindre (se ceindre la tête d'un turban) ou encore réunion, cohésion. Ce vocable connut un emploi et un intérêt particulièrement en rhétorique.

Par ailleurs, l'une des principales définitions données à l'açabiya avait trait à l'incitation à soutenir les parents et les proches "qu'ils eussent tort ou raison". De là se profile la motivation du choix fait par IBN KHALDOUN, quant à l'élaboration de sa théorie sur l'açabiya.

Au fil des études et recherches diverses, ce concept s'est avéré comme l'une des préoccupations majeures de bon nombre de chercheurs contemporains dont les occidentaux, pionniers de la recherche Khaldounienne, viennent en tête compte tenu des progrés qu'ils ont réalisé dans ce domaine.

Cependant, il n'est pas nécessaire d'être plus exaustif sur la définition de cette théorie, ni sur l'opinion de ses exégètes ou de ses détracteurs, puisque tel sera l'objet du deuxième chapitre de la thèse Il est néanmoins utile de souligner au passage les controverses et divergences apparues dans les études faites par les orientalistes et par les chercheurs arabes qui ont puisé aux oeuvres de ces derniers. L'origine de ses controverses réside dans les définitions variées de l'açabiya. Certains y voient un sectarisme tribal; d'autres, les liens du sang, une descendance agnatique; ou encore un esprit de cohésion, une noblesse, une solidarité sociale, une àme collective, des liaisons de clan, une conscience nationale...etc

Toutes ces explications ont pour point de départ dans leurs divergences multiples, l'opacité du sens réel de l'açabiya comme terme sociologique, au point de vue des orientalistes dont les élèves arabes n'ont fait que suivre la trace alors qu'ils auraient pu s'éviter tant de peine, s'ils avaient seulement consulté le patrimoine arabe à portée de leurs mains. Car si les hésitations des orientalistes à définir avec précision l'açabiya sont susceptibles d'être justifiées par l'absence d'un phénomène parallèle dans leurs sociétés respectives, par contre, aucune justi-

./.

fication n'est admise pour les chercheurs arabes, d'autant plus que ce phénomène persiste jusqu'à nos jours et règne encore sur la société arabe.

De là, la motivation de l'auteur à élaborer cette thèse et du fait que ses conclusions historiques ont abouti à ce constat: la persistance de l'état de sous-développement et de la forme bédouine de la société en pays Maghrébin, est directement liée à l'açabiya tribale. A ce constat s'ajoute le postulat suivant: ce phénomène subjectif est le principal handicap interdisant l'unification de cette région sous la bannière d'un état puissant et durable, régi par des lois et institutions. Aussi cette recherche est-elle appelée à mettre sans doute en évidence, les subjectivités qui sont l'apanage de l'açabiya tribale, sans pour autant ignorer ses aspects objectifs, s'il en existe.

Le souci dominant lors de l'élaboration de cette thèse fût le recours à une méthode capable de mettre en exergue le phénomène de l'açabiya, particulièrement en appliquant cette théorie sur le terrain des évènements historiques vécus par le Maghreb islamique, tout en tenant compte de l'espace temporel limité à la période comprise entre les sixième et neuvième siècles de l'Hégire (douzième et quinzième siècles de l'ère chrétienne).

IBN KHALDOUN avait pris conscience de l'influence de l'açabiya tribale et de son impact puissant sur la Société maghrébine, fait qu'il a exprimé dans un chapitre: " il est rare qu'un état puisse demeurer stable dans des contrées où prolifère une multitude de tribus et de clans " (1)- " les tribus berbères sont innombrables; toutes sont bad'w, Ahl Açaïeb et Achaïer. Chaque fois qu'une tribu disparait, une autre prend sa place, portant sa dissidence religieuse et sa tendance apostasique; aussi les Arabes s'acharnent-ils depuis si longtemps à instaurer un état en pays d'Afrique et du Maghreb". (2)

---

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج :2، ص : 646/649.

(2) ـ نفسه ، ص : 647.

./.

Outre les tribus Amazigh, débordantes du zèle de l'açabiya, les autres tribus Arabes ayant envahi le Maghreb comme les Banou Hilal, Sélim, Maakel, se distinguent aussi par l'açabiya extrème, dont le rôle destructeur ne peut être ignoré et qui a été pendant des siècles un facteur de déstabilisation dans tous les pays du Maghreb.

Cette recherche a contribué à mettre en évidence les rôles accomplis par les tribus-suivant leurs appartenances diverses en pays Maghrébin, et ce à travers les chapitres consacrés à ce sujet et qui sont étayés par des témoignages historiques revélant les effets subjectif de l'açabiya tribale et aussi certains aspects objectifs, lesquels sont peu nombreux. Ces effets surgissent lors de l'examen des influences de l'açabiya tribale sur les normes culturelles, économiques, politiques et administratives, où ce phénomène figure comme un obstacle infranchissable sur la voie de toute évolution ou émancipation dans ces secteurs vitaux.

La présente thèse comprend une introduction, sept chapitres et une conclusion.

L'introduction, qui comprend deux parties, expose dans la première les buts et l'importance de la recherche, les difficultés auxquelles a été confronté l'auteur, la méthode adoptée pour l'élaboration de la thèse.L'importance et les buts ont été mis en évidence par les motivations objectives définies par l'auteur, l'ayant incité à entreprendre ce travail et qu'on peut trouver dans les évenements historiques qui ont secoué tout le pays maghrébin, tant aux époques antérieures qu'au moyen âge. L'auteur a relevé le fait que l'açabiya a pris la part du lion dans de tels évènements. D'où l'importance de cette recherche, visant à tirer des conséquences et des solutions. Les difficultés peuvent être résumées par l'inaccessibilité de certaines sources et documents utiles. Finalement,la méthode appliquée est exposée notamment dans sa délimitation du temps et de l'espace, dans la répartition des chapitres et autres subdivisions.

Quant à la seconde partie, elle est consacrée à l'étude critique des sources et documents sur lesquels est basée la recherche. L'auteur a mis l'accent sur les principales sources et références, les autres étant mentionnées dans l'index.

./.

Le chapitre premier est consacré à l'étude du rôle joué par l'açabiya tribale dans l'instauration de l'état et dans sa ruine, dans l'action de civilisation et dans son extinction. Cette partie peut être considérée comme un préambule ouvrant la voie à l'examen du thème principal de manière plus profonde et précise.

Le deuxième chapitre traite du thème de l'açabiya comme phénomène social et historique. La méthode suivie en ce sens tend vers l'abstraction, du fait que l'étude s'inspire ici de la théorie d'IBN KHALDON sur l'açabiya et de l'opinion des chercheurs contemporains à ce sujet.

Dans le troisième chapitre, l'auteur a examiné les diverses facettes de la société tribale dans le Maghreb islamique. Aussi cette partie comprend-elle une variété de paragraphes visant à définir la tribu et le tribalisme, ensuite le régime tribal d'une manière générale (du point de vue structre tribale, pouvoir et autorité au sein de la tribu), aprés cela sont abordées les coutumes et traditions tribales (habitudes alimentaires - parures - habitat - ameublement - hospitalité). Enfin, ont été examinées les relations tribales (relations entre les tribus, l'état souverain et les tribus, un état extérieur et les tribus). L'aspect de ces relations a été évalué soit sous forme de liens en temps de guerre, soit sous forme de liens en temps de paix.

Le quatrième chapitre fait connaitre les origines, les zones d'implantation et les rôles des tribus ayant vécu en pays Maghrébin à l'époque concernée par l'étude. Sommairement, on peut dire que ces tribus sont d'origine Amazigh ou Arabe. Quant aux zones occupées et les rôles joués dans les évènements historiques, ils ont été abordés dans ce chapitre de manière succinte et claire.

Le chapitre cinquième traite des influences imprimées par le tribalisme au système économique en pays Maghrébin. Il met en évidence les rôles destructeurs du tribalisme, notamment la régression consécutive de certains secteurs économiques. Certains aspects considérés comme objectifs ont été néanmoins soulevés, ayant trait à l'expansion d'autres secteurs économiques tels l'élevage, la protection de certaines caravanes sahariennes ... etc ...

./.

Le sixième chapitre a été consacré à étudier l'empreinte de l'açabiya tribale sur les normes culturelles et la doctrine religieuse. A travers ce chapitre ont été étalés les divers aspects subjectifs et objectifs issus du tribalisme, sur les plans culturels et religieux.

Le septième et dernier chapitre, s'intéresse à l'étude des influences de l'açabiya tribale sur les systèmes politiques et administratifs en pays Maghrébin. L'auteur a concentré ses efforts dans la première partie de ce chapitre, sur l'influence de l'açabiya tribale sur les régimes politiques des états Almohade, Hafside , Abdelwadid et Mérinide. Quant à la seconde partie, elle se rapporte à l'étude des influences de l'açabiya tribale sur certaines normes administratives contenues notamment dans le système militaire et financier .

Enfin, l'auteur a synthétisé dans sa conclusion, les buts atteints par sa recherche, mettant en relief dans ce contexte, les aspects essentiels et les questions surgies, pouvant être considérés comme inhérents à cette étude.